جامعة الحاج لخضر -باتنة-
كلية الحقوق
قسم العلوم السياسية

.

النقاش الرابع بين المقاربات النظرية للعلاقات الدولية

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في العلوم السياسية، تخصص: العلاقات الدولية

إعداد الباحث:
عادل زقاغ

إشراف الأستاذ:
د. صالح زياني

لجنة المناقشة:

أ. د. محمد رضا مزوي	جامعة الجزائر	رئيسا
د. صالح زياني	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
د. عبد النور بن عنتر	جامعة باتنة	عضوا مناقشا
د. عبد الحق بن جديد	جامعة عنابة	عضوا مناقشا
د. محمد غربي	جامعة الشلف	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2009/2008

خطة البحث

مقدمة

مقدمة

تـزود النظريـات والنمـاذج النظريـة التـي تـم تصـميمها بهـدف المقاربـة للظـواهر الدوليـة، دارسـي تخصـص العلاقـات الدوليـة، بـأدوات تحليليـة تمكـنهم مـن اختـزال المـادة الخـام (الأحـداث والظواهر الدولية) في مفـاهيم وتصـورات مفتاحيـة كخطـوة نحـو التفسير و/أو الفهم والاستشـراف. ومع ذلك، فإن التعدد في الطروحات النظرية يشير إلى صعوبة الحسم فـي ماهيـة الأدوات التحليليـة التي تمنحنا فهما أفضل لأي من مواضيع البحث في الحقل المعرفي للعلاقات الدولية. لكن طالما أن طبيعـة العلـوم الاجتماعيـة ذاتهـا تنطـوي علـى سـعي مسـتمر نحـو التحسـن، فـإن النقاشـات النظريـة الأربعـة الكبـرى Great Four Debates فـي العلاقـات الدوليـة كانـت فرصـة للسـجال المعرفـي البناء، والذي رسم خارطة طريق للحقل في فترات زمنية أعقبت احتدام هذه النقاشات.

وخلال هذا المسار الحافل، خرجت الواقعية منتصرة من سجالها الأنطولوجي مع الليبرالية المثالية في فترة ما بين الحربين، في حين استطاعت كسب مجادلاتها المنهجية مع السلوكية بصعوبة في ظل النقاش النظري الثاني، أما خلال النقاش الثالث فقد اضطرت للمضي في اتجاه تركيب (أشبه بالتحالف) منظوراتي مع النيوليبرالية (التوليفة نيو-نيو). لكن الأمر أصبح مختلفا عندما تعلق الأمر بالنقاش النظري الرابع، حيث أصبحت المقاربة الواقعية بكل اتجاهاتها النيوواقعية البنيوية والواقعية النيوكلاسيكية البنيوية مجرد طرف في معسكر الوضعيين العقلانيين في مواجهة جدال فكري أعمق وأخطر لأنه يهدد بالعودة إلى أسس التنوير لتقويضها وإعادة رسم خارطة معرفية مختلفة ترفض الوصاية الدوغمائية للوضعيين وللعقلانيين على المعرفة. هذه الوصاية التي تكرست من خلال فرض معايير معينة للصحة والصلاحية، والتي يعتبرها المعسكر التأملي مجرد إقصاء للاجتهادات المستلهمة من تقاليد بحثية أخرى غير تلك المنتمية للتقليد البحثي الوضعي-العقلاني.

إذن فقد اتسم النقاش الرابع، أو على الأقل مع بداياته، بدخول استراتيجية بحثية تقويضية ميدان الجدال المعرفي، استهدفت "التوليفة نيو-نيو" في أسسها الفكرية. لكن ظهور التفكيكية والجندر وما أمدا به دارسي الحقل من أدوات تحليلية كشفت عن ضعف البنية التصورية للوضعية وسذاجة بعض من طروحاتها. وفضلا عن ذلك، فإن دخول المنظور السوسيولوجي من خلال البنائية كجزء من النقاش المنظوراتي أضعف من سطوة ما يعرف أكاديميا بـ mainstream أو التقليد البحثي السائد (المهيمن) بشقيه دولاتي-التمحور (الواقعية) ومتعدد-المرجعيات التحليلية (الليبرالية).

إمبريقيا، أكدت إخفاقات الإستراتيجية الأمريكية الكبرى، وإخفاقات مسعى إرساء الديمقراطية في الشرق الأوسط، ضرورة مراجعة معايير توزيع الثقل في الإطار النظري لدراسة العلاقات الدولية، لأن التقليد البحثي السائد لم يخفق في بلورة توصيات ملائمة للسياسة العامة policy oriented recommendations بل أخفق حتى في تقديم توصيف دقيق analytical description للواقع. وقد تجلى ذلك في عدم تزويد صناع السياسة أو الأوساط الأكاديمية بأدوات فعالة لفهم ومن ثمة استشراف المستقبل، ولأدل على ذلك من الإخفاق في التوقع لنهاية الحرب الباردة. وإذا راجعنا الجدل القائم بين دعاة الفعل الجماعي "النيومؤسساتيين" ودعاة الفعل الأحادي الجانب "النيوواقعيين" فإن مآخذ عدة سجلت على الافتراضات النظرية للطرفين، فالتوظيف الانفرادي للقسر دون شرعنته في إطار المؤسسات الدولية أدى إلى استشراء الاضطرابات بدل ضبطها، أما المؤسسات الدولية ذاتها فقد أثبتت أهميتها في عالم يحتاج للضبط regulation وإلى حوكمة governance ترسي شراكة مع فواعل آخرين غير الدولة، ورغم ذلك ظل التمركز الأورباني euro-centrism وعدم مراعاة السياقية القيمية شائبة تمس بالصلاحية الإمبريقية للتوليفة "نيو-نيو" التي خرج بها النقاش النظري الثالث، ما وضعها في محك النقاش المتعدد المستويات نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وهو النقاش الذي يمتد إلى غاية الفترة الحالية بحسب المراجعات المختلفة للأدبيات في الحقل، والتي تم الاعتماد عليها في هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

يعتبر النقاش الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية تحولا جوهريا في الحقل المعرفي ككل، حيث أنه يتضمن خاصية فريدة مقارنة بالنقاشات السابقة وهي: الانعتاق من الثنائية التي طبعت الفكر الإنساني بشكل عام، بالنظر لأنه أتاح الفرصة لمنافسة معرفية يصفها البعض باللامتقايسة: بين العقلانية والتأملية والبنائية، كما أن من المهم الانتباه إلى تضمن هذا النقاش لمستويات تنافس ابستيمولوجية، وأنطولوجية ومنهجية بشكل متزامن، يضاف إليها المستوى الأكسيولوجي الذي لم يكن حاضرا في النقاشات الثلاثة الأولى.

إن الأهمية الكبيرة التي يوليها الباحثون على مستوى مراكز مراجعة وتقييم وصناعة المعرفة في هذا الحقل، بالأساس مدرسة كوبنهاقن، مدرسة لندن للاقتصاد وعلم السياسة، وجامعة أبرسفيث بـ ويلز، فضلا عن مدرسة البحوث حول الحكومة بهارفارد تنبه إلى أن هذا النقاش في الأساس ما هو إلا مسايرة للتحولات المتسارعة إمبريقيا. ومن هنا، فإن العديد من مراكز البحث تنظر باهتمام لمخرجات هذا النقاش وما قد تمد به صانعي القرار من استبصارات تساعدهم على تصور مخارج للانسداد الذي أوجدته المشكلات المعقدة للعالم الرقمي في فترة ما بعد الحرب الباردة. إذن، يمكن تلخيص أسباب اختيار الموضوع في النقاط التالية:

- يعود اختيار هذا الموضوع إلى الرغبة في فهم أفضل للمقاربات النظرية السائدة في حقل العلاقات الدولية لأنها تزودنا بأدوات التحليل، وحيث أن التحكم في أدوات التحليل تعتبر أفضل طريقة لإنجاز أبحاث ممنهجة ومحكمة سيما وأن الكثير مما يكتب في التخصص يغلب عليه طابع التغطيات الصحفية؛
- وضع النقاش النظري الرابع في الإطار العام لتطور الحقل، إذ تمت الإشارة إلى النقاشات الثلاثة الأولى فضلا عن التحولات البارادايمية الأساسية في علم السياسة؛
- تحيين البحث مع التطورات المتتابعة في التخصص، والمساهمة في وضع تيبولوجيا محينة باللغة العربية لأهم الأطر النظرية في العلاقات الدولية.

أهمية الدراسة:

تظهر مسوح الأدبيات تنامي عدد الدراسات التأصيلية في الحقل المعرفي للعلاقات الدولية ابتداء من تسعينيات القرن العشرين، حيث تزامن ذلك مع تراجع التقليد البحثي المهيمن (الوضعي) والذي يعزى بدوره لظهور أنماط سلوكية وظاهراتية غير مألوفة خلال الفترة السابقة مثل: الحوكمة العالمية الشبكية مقابل تراجع دور الدولة، العنف في صوره ما قبل الحداثية (التطهير الإثني) مقابل تراجع حدة الحروب بين الدول، خوصصة الاقتصاد (تحويل ملكية قطاعات واسعة) وخوصصة

السياسة الخارجية (التدخل الفاعل لمركز كارتر لدراسات السلام) ثم خوصصة الأمن (نموذج بلاك ووتر) تباعا.

لاشك أن تزايد الاهتمام بالمواضيع الفلسفية التأصيلية، واللجوء إلى فلسفة المعرفة يعتبر منطقيا مع ظهور بوادر إخفاق التقليد البحثي المهيمن في تزويدنا بالفهوم الملائمة لديناميكيات التفاعلات بين الدول. ففي مثل هذه الفترات الحرجة ضمن أي حقل معرفي تتزايد مستويات الغموض، حيث يصعب فهم مسار الأحداث. وتعود المشكلة في جزء هام منها إلى استعصاء الظاهرة الدولية أمام أدوات التحليل المتاحة في سياق مسلمات الإطار الفكري الأوسع، المسمى لأغراض تحليلية "البارادايم". لقد كانت هذه سمة الفترة التي أعقبت نهاية الحرب الباردة، مما ساهم في منح مبررات كافية لإطلاق أجندة بحث تدرس الخلفيات الابستيمولوجية لأفول برنامج البحث "العقلاني" ومدى صلاحية البديل "التأملي" من جهة، وصحة المزاعم القائلة بإمكان جسر الهوة بواسطة "البنائيين". كانت هذه بمثابة المبررات الأولية التي ساقتها مراكز بحث استطاعت الاستئثار بنصيب متزايد من ميزانية تمويل البحث العلمي، ففي بريطانيا على سبيل المثال بلغ حجم المخصصات الموجهة للبحوث الفلسفية عام 2008 إلى 10 مليارات دولار. وعموما، فإن أهمية هذا البحث تكمن في:

- المساهمة في البحث -ضمن الأدبيات التي اعتمدت عليها الدراسة- عن آليات تحليلية لجسر الهوة بين النظرية والممارسة، وذلك عبر فحص عدد من الطروحات التي ترى بإمكانية تذليل عقبة اللامقايسة، والتي تمنع الاستفادة من الفهوم التي تمنحها لنا المقاربات المختلفة، وذلك لتفسير/فهم الظاهرة الدولية الآيلة لتعقد متزايد، ما يحول يجعل مزاعم السعي لنظرية عامة في الحقل غير عملية؛
- وضع خارطة طريق أولية قابلة للتنقيح تساعد باحثي العلاقات الدولية على فهم مسار تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية، وتمهد الطريق لدراسات جينالوجية أعمق حول هذا الموضوع.

إشكالية البحث:

ينصب هذا البحث على مراجعة للأعمال التأريخية historiographical حول مسار تطور الحقل بشكل مقارن بالاعتماد على المداخل الابستيمولوجية والأنطولوجية والأكسيولوجية، وذلك بهدف البحث عن مخارج النقاش النظري الرابع حسب ما تطرحه الأدبيات في هذا الموضوع، ومن هنا فإن البحث يعالج **الإشكالية** التالية: **"هل ينطوي النقاش الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية على خاصية لامقايسة incommensurability ضعيفة تمكن من تعايش بارادايمي في إطار العلم ما بعد "الكوني" post-Kuhnian وبالاعتماد على تصور التوليفة كما يقترحها علم التعقد complexity science؟"**

تعتمد الإجابة عن هذه الإشكالية على البحث المعمق في عدد من جوانب الموضوع والتي تثير عددا من **الأسئلة الفرعية**:

- ما هي الفهوم التي تقدمها النظريات المفسرة للتقدم المعرفي بشأن تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية؟ وإلى أي مدى تعتبر "التحولات البارادايمية الكونية" و"البرامج البحثية اللاكاتوشية" مجدية في هذا الخصوص سيما بالنسبة للنقاش النظري الرابع؟
- ما هو مضمون أهم التحولات "البارادايمية" التي عرفها النقاش النظري الرابع؟ وكيف يمكن إسقاطها على قضية مأسسة التفاعلات الدولية؟
- كيف يساعدنا علم التعقد على البحث عن مخارج للنقاش النظري الرابع؟

ينطلق هذا البحث من **فرضيتين** أساسيتين:

- إن أيا من "البارادايمات" الثلاثة التي تعتبر طرفا في النقاش النظري الرابع بين مقاربات العلاقات الدولية لن يتيسر لها الهيمنة على الحقل المعرفي، وبالتالي العودة إلى العلم العادي normal science، وهو ما يؤكد افتراضات "العلم ما بعد الكوني"، والتي تنطوي أساسا على وجود خاصية لامقايسة بارادايمية ضعيفة، وما ينجر عنه من تعايش "بارادايمي".
- إن مخارج النقاش النظري الرابع، ولتفادي العقبة الأكسيولوجية، تعتمد أساسا على سيبرنيطيقا المستوى الثاني للملاحظة التي يقترحها "بارادايم التعقد".

منهجية البحث:

المدخل الابستيمولوجي/الأنطولوجي/الأكسيولوجي:

يهتم المدخل الابستيمولوجي epistemology بالطريقة التي يتم من خلالها المقاربة لموضوع المعرفة، أي الأدوات التي اعتمدنا عليها في ذلك والسبب الذي جعل اختيار الباحثين يميلون إليها تحديدا دون أخرى، وهو ما يسمح بفهم التباين القائم بين التقليد البحثي الوضعي وما بعد الوضعي باعتباره بعدا أساسيا للنقاش الرابع.

المدخل الأنطولوجي ontology وبتركيزه على موضوع المعرفة في حد ذاته فهو ينصب على اختيار مرجعية معينة للتحليل، بطرح أسئلة حول: ما هو الشيء الذي نريد المقاربة له بالتحديد ولماذا تختلف المقاربات في تموقعها أنطولوجيا، بحيث تسلم كل منها بأن التحليل سيكون مجد فقط عندما يتم التركيز على بنية النظام الدولي مجسدة النزعة الكلانية holistic مقابل مقاربات أخرى تميل إلى الاعتقاد بالاختزالية أو حتى التشظي atomism.

المدخل الأكسيولوجي axiology يعتبر مهما جدا لفهم أبعاد النقاش النظري الرابع، ومن المهم الإشارة إلى أن النقاش في هذا المستوى التحليلي الفلسفي لم يكن واردا خلال النقاش الثلاثة

السابقة بل هو مستوى أصيل في النقاش الرابع، وقد كان له تأثير في إعطاء هذه النقاشات الشكل الذي بدا عليه طيلة عقدين تقريبا، وذلك عبر حؤوله دون حسم إحدى "البارديمات الثلاث" الجدال النظري لصالحها، فهو ينصب على التموقع القيمي أو البحث في إمكانية الحديث عن أرضية توافق بشأن منظومة أخلاقية ethical قيمية يتقاسمها الجميع أفرادا أو دولا. على المستوى الأكاديمي، تتخذ المقاربات المختلفة موقفين من البعد الأكسيولوجي: الموقف الإدراكي cognictivist يرى بإمكانية الحديث عن أن اختيار القيم الأخلاقية ممكن بل وموضوعي وهو ما يعترض عليه أصحاب الموقف النسبي relativists والذين يرون بنسبيتها، وإذا ما تم جلب هذا المستوى التحليلي إلى النقاش، فإن هذا المدخل سيسمح بالنظر في إمكانية الحديث عن أرضية محايدة لتقييم المسار المعرفي سيما المسائل المرتبطة بالصحة (أي مزاعم العلمية تعتبر صحيحة) والصلاحية (أيها أكثر إفادة لصناعة سياسة عامة "بناءة").

مدخل سوسيولوجيا المعرفة sociology of knowledge: وذلك بإدراج البعد التليلولوجي والتليونومي للبحث في مجال العلاقات الدولية. ينصب هذا المدخل على فحص البعد الغائي لمسعى البحث عموما، ومدى وجود ترابط بين المسار الذي تأخذه النقاشات والاستقطاب بين المقاربات النظرية، من جهة، وبين البيئة الاجتماعية التي تباشر فيها عملية البحث، فمن الطبيعي أن تبطن هذه البيئة ضغوطا بحكم أن البنى الاجتماعية تمارس عنفا بنيويا ضروري للاستقرار، لكن هذا الاستقرار يكون عادة عبر التمكين لخطاب معين للهيمنة على حساب خطابات أخرى وبالتالي مصالح وهويات أخرى.

المدخل التأريخي للمعرفة historiography of knowledge: ينصب المدخل التأريخي على مراجعة الطرق التي يتم من خلالها رصد المسار التاريخي لتطور الحقل المعرفي IR as a discipline، كما يساعدنا في الوقوف على جملة من المحاذير المرتبطة بقراءة التاريخ بعيون الحاضر، وبالتالي إعادة كتابة التاريخ بحسب موازين القوى السائدة في الحاضر. يمدنا هذا المدخل بفهوم متبصرة للسبب الذي أدى إلى تمسك الكثير من الدراسات التأريخية للحقل بطرح مفاده أن مسار تطور علم العلاقات الدولية ليس سلسلة من النقاشات النظرية المتعاقبة، ومن جهة أخرى، فإنه يساعدنا على وضع معالم للتحولات البارادايمية إن وجدت، فهو لا يسلم بها بالمطلق. وبالتالي، فإن تأريخ المعرفة جنبا إلى جنب مع علم اجتماع المعرفة يزودان هذا البحث بأدوات فعالة تمكن من الذهاب إلى ما هو أبعد من الاستعراض الوصفي لتطور الحقل وللنقاش النظري الرابع باعتباره آخر حلقة في هذا التطور. يضع المدخل التأريخي النقاش في سياقه الأكاديمي الأوسع (مسألة التحكيم العلمي والوصاية المتأتية من الادعاء البارادايمي بامتلاك آليات الحصول على الحقيقة)، بينما يضعه مدخل علم اجتماع المعرفة في سياقه الاجتماعي (ارتباط الأجندة السياسية بالأجندة الأكاديمية عبر منفذ التمويل).

ولا شك أن تناول هذا الموضوع في حد ذاته فضلا عن تبني إستراتيجية طموحة في البحث تعتمد هذه المداخل ستعترضه لا محالة عدد من الصعوبات الموضوعية.

الصعوبات التي واجهت البحث:

إن تقدم الدراسات الأنجلو-ساكسونية في حقل العلاقات الدولية عموما وفي مجال الدراسات التأصيلية بشكل خاص حقيقة لافتة، وبالتالي، فإن عدم وجود مرجعية لغوية موحدة تتولى الجوانب الاصطلاحية في الترجمات من اللغة الإنجليزية وإلى حد ما اللغة الألمانية يعتبر مشكلة حقيقية، فأهم ما اعترض سير عملية البحث والترجمة هو نحت اللفظة العربية التي تقابل اللفظة الإنجليزية، خاصة بالنسبة للمفاهيم الجديدة، والتي تندر مصادفتها في الأدبيات باللغة العربية. مع الإشارة إلى أنه تم تبني الترجمة الشائعة حيثما توفرت، إلا أن عددا كبيرا من الترجمات تتباين بشكل واضح وتعطي مجالا واسعا للاختيار، بطريقة تربك عملية التحرير، بالنظر إلى أهمية انتقاء اللفظة المناسبة بالنسبة للمجموعة العلمية التي سيتم تداول البحث فيها.

وزيادة على مشكلة الترجمة، فإن ما أبطأ مسار البحث هو النسبة المتدنية للمراجع المحكمة في الموضوع، فمن خلال مراجعة دليل الدوريات المحكمة في العلاقات الدولية لكل من: "منشورات ساج" SAGE Pub، "منشورات بلاكويل" Blackwell و"منشورات ميت بريس" Mit Press، وبالاعتماد على العينة التي تشتملها الهيئات الثلاث والتي تتضمن أهم الدوريات في التخصص، فقد تبين أن عدد المقالات المحكمة التي تتناول الجوانب التأصيلية في العلاقات الدولية لا يزيد عن 04 % إلى 10 % تبعا لاعتماد معيار صارم أو فضفاض بخصوص مفهوم "الجوانب التأصيلية"، ومن بين هذه الدراسات النظرية على قلتها فإن نسبة 06 % منها تتناول بالتفصيل موضوع النقاشات النظرية في العلاقات الدولية، بل أن هذه النسبة لا تتجاوز 03 % إذا اعتمدنا معيارا صارما بحيث تحتسب فقط تلك المقالات التي تجعل من النقاشات النظرية محور اهتماماتها. لكن مع ملاحظة أن هذه النسبة لم تكن لتتحقق أساسا لولا الفترة الزمنية التي تمتد من بداية التسعينيات إلى يومنا هذا، وذلك بفضل تنامي الاهتمام بهذا النوع من الدراسات خلال هذه الفترة.

أما بخصوص الصعوبات الأخرى فهي ناجمة أساسا من الالتزامات المتعلقة بشغل وظائف إدارية جنبا إلى جنب مع الالتزامات البيداغوجية والاهتمامات البحثية الأخرى، بحيث أبطأ ذلك عملية التحرير والمراجعة. وفي هذا الصدد، ولتذليل كل العقبات المشار إليها، أوصي الباحثين بالتسجيل مبكرا في الدكتوراه وبضرورة مباشرة عملية التحرير مبكرا تفاديا للضغط المتزايد مع اقتراب مواعيد الإيداع القانونية، سيما وأن ذلك يقترن عادة بظهور التزامات أكاديمية ومهنية أخرى.

مراجعة الأدبيات:

إن استخدام مصطلح النقاشات النظرية في توصيف تطور الحقل يعتبر في حد ذاته شيئا جديدا، وأولى الدراسات التي نشرت في هذا المجال كانت دراسة "ري مانقرور" Ray Manghroor و"رامبيرغ بينيت" Ramberg Bennett (1982) "العالمية مقابل الواقعية: النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية". ورغم تعرضهما لمصطلح النقاش النظري في حدا ذاته إلا أن المفهوم اكتسى لديهما نوعا من الضبابية، فالنقاش الثالث أطلق على جزء مما تضمنته هذه المرحلة من التطور داخل الحقل.

لذا كانت دراسة "جون فاسكويز" و"مايكل بانكز" John Vasquez and Michael Banks (1985) بمثابة عمل مرجعي في هذا الخصوص، ففي كتاب بعنوان: "النقاش عبر المنظوراتي"، أشارا إلى أن مسار تطور الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قد بلغ "النقاش الثالث"، وبأن هذه المرحلة تجمع بارادايمات متعددة، يفرق بينها تموقعها الأيديولوجي.

وهو ما أكده باحثان آخران في أولى الكتب الأكاديمية الموجهة لدارسي التخصص، حيث أقر ذلك كل من: "أ. قروم" و"مارقوت لايت" Margot Light و A.J.R. Groom (1985) وكان عنوان مؤلفهما: "العلاقات الدولية: الدليل نحو النظرية الحالية". لكن لم يطل الأمر طويلا حتى سبق "مايكل فاسكويز" (1985) عصره وتحدث صراحة عن مرحلة جديدة لم تتبلور بعد ميزتها التحدي ما بعد الوضعي، وقد نشر ذلك في مؤلف بعنوان: "النقاش ما بعد الوضعي". وفي خطوة مماثلة تنبأ "دايفيد كامبيل" بدخول الابستيمولوجيا البنائية على خط النقاش المنظوراتي في (1988) من خلال كتاب بعنوان: "التحولات الحديثة في النظرية الاجتماعية: تساؤلات بالنسبة للعلاقات الدولية".

إحدى النقاط الهامة في هذا البحث تلك المتعلقة بطريقة التأريخ للحقل: فقد تحدث "ستيف سميث" Steve Smith (1995) في كتابه "الصور الذاتية لحقل العلاقات الدولية"، عن الصور النمطية التي غالبا ما يتم اللجوء إليها لاستعراض مسار تطور علم العلاقات الدولية"، أما كين بوث" وآخرون Ken Booth et al. (1998) فقد قاموا بمحاكاة صياغة "إدوارد كار" عبر مؤلف بعنوان: "ثمانون سنة من الأزمة: العلاقات الدولية بين 1919-1998"، وفيه يقدمون توصيفا تعدديا لنماء الحقل خلافا لـ"دونالد ج. بوشالا" Donald J. Pushala (1990) "بلاء يتامى الثورة العلمية" الذي يصر على عدم جدوى النقاش الثاني، وبأن هذا النقاش أضاع الوقت والجهد دون أن يكون له وقع على تطور العلاقات الدولية كـ"علم".

ومع أن بداية التأريخ للحقل بتوظيف تصور النقاشات النظرية المتعاقبة بطريقة استكشافية أبدت نوعا من التوافق بين الباحثين، إلا أن وضع تيبولوجيا صارمة لم يتحقق، فبعض الباحثين يصرون حتى الآن على أننا لم نخرج أصلا من النقاش النظري الثاني ("نافون" 2001)، أما البعض الآخر فيرى أن النقاش بين العقلانيين والتأمليين والبنائيين يجسد النقاش الثالث ("لابيد" 1989) مغفلا الفترة التي تمتد بين نهاية السبعينيات ونهاية الثمانينيات التي شهدت النقاش نيو-نيو فضلا عن المرافعات "النيوماركسية" لصالح نظرية بنيوية تبطن طرحا معياريا أو راديكاليا كما تسميه بعض الأدبيات (هوفمان 1987).

لكن في منشورات الباحث البارز في فلسفة علم العلاقات الدولية: "أول ويفر" Ole Wæver (1997) وبالذات في كتابه: "باحثون لامعون في العلاقات الدولية: تقديم الحقل المعرفي بالاعتماد على رواد النظرية بدل البارادايمات" ("ويفر" 1997، ص. 25) يبرز "ويفر" من ضمن أشد المناصرين للتقسيم الرباعي. وكذلك فإن "يورغ فريدريكس" Jörg Friedrichs (2004) في كتابه المعنون: "المقاربات الأوربية للعلاقات الدولية" ("فريدريكس" 2004، ص. 11) يميل إلى وجهة النظر التي سبقه فيها "ويفر" ويعتبر أن التيبولوجيا الرباعية هي الأسلم لتلقف ديناميكية التطور المعرفي لنظرية العلاقات الدولية.

إذا تجاوزنا مسألة وضع تيبولوجيا توافقية، فإن المسألة الأخرى الأكثر أهمية هي طريقة رصد التقدم المعرفي في التخصص، وخلافا للأعمال الرائدة لفيلسوف علم العلاقات الدولية "جون فاسكويز" تبرز الدراسات التي أشرف عليها "كولين إلمان" و"ميريام فينديوس إلمان" Colin Elman and Meriam F. Elman سيما الدراسة التي نشرت في (1997) "تقييم التقدم في نظرية العلاقات الدولية"، حيث خلصت أغلبية الفصول إلى تبني برامج البحث اللاكاتوشية كإطار لفهم هذا التقدم. بينما يعتبر مقال "كولين وايت" Colin Wight (1996) "اللامقايسة والاتصال عبر المنظوراتي في نظرية العلاقات الدولية"، سابقة مهمة في التعرض للإشكالية التي اعتمدتها هذه الأطروحة.

ولا تخلو الأدبيات في هذا الشأن من عدد من الطروحات المثيرة للجدل مثل: "أسطورة النقاش النظري الأول" لـ"بيتر ويلسن" Peter Wilson (1998) وفيه يشير بالدلائل إلى أن هذا النقاش باعتباره مؤسسا للحقل لا يجد له قرائن تؤكد حدوثه فعليا. لكن "فريدريك كراتوشفيل" Friedrich Kratochwil (2006) في مقاله: "التاريخ، الفعل والهوية: مراجعة للنقاش النظري الثاني وتقييم أهميته للنظرية الاجتماعية" يرفض إلغاء مراحل من تطور هذا التخصص، لكنه يدعو الباحثين إلى الاستفادة من تبصرات خرجت بها النقاشات السابقة لمساعدة النقاشات الحالية على حلحلة بعض المسائل الابستيمولوجية أو الأنطولوجية. وبعيدا عن الإشكالات النظرية البحتة فإن دراسة قام بها "جوزيف ليبقولد" Joseph Lepgold (2001) بعنوان "ما وراء القبة العاجية لنظرية العلاقات الدولية: مسألة ملائمة النظرية لصناعة السياسة"، تعتبر نموذجا للدراسات التي ترى أنه من الأجدى الاهتمام بمدى ملائمة العلم لصناعة السياسة، لكن المشكلة مع هذه الدراسات هي أنها متموقعة ضمن دوغما ابستيمولوجية وضعية أثبتت عقمها مع نهاية الحرب الباردة، سيما

في التعاطي مع المشكلات المستجدة، لذا فإن مفهوم الملائمة في حد ذاته يضعه النقاش النظري الرابع محل تساؤل: ملائمة أي من المنطلقات الأكسيولوجية (القيمية).

تبرير الخطة:

للإجابة على إشكالية البحث واختبار الفرضيتين فقد تم اعتماد خطة من ثلاثة فصول. وقبل استعراض الجزئيات المرتبطة بكل فصل من المهم الإشارة إلى أن هذه الأطروحة تلافت اللجوء إلى المداخل المفاهيمية، بمبرر أنها موجهة للباحثين الذين لديهم اهتمامات بالجوانب التأصيلية للعلاقات الدولية، ولذلك لم تتضمن خطة البحث أي إسهاب في المداخل المفاهيمية التي تضيع عادة الكثير من الجهد والوقت، في حين أن الأطروحات تتوجه بالأساس للمختصين.

يهتم الفصل الأول من الأطروحة بتقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالا جوهريا، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساسا، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات البارديمية في شقها الابستيمولوجي، بدء بالتفسيرات التي قدمتها الدراسات التأريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركية العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكاتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فايرآبنت".

في المبحث الثاني من الفصل الأول تم التركيز على التحولات البارادايمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، وذلك لوضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات البارادايمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها. أما في المبحث الثالث، وبعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركية التحولات البارادايمية، إن وجدت، في ما اصطلح على تسميتها بالنقاشات النظرية الثلاث الكبرى والتي أرست لبارادايم عقلاني لاحقا.

بالنسبة للفصل الثاني من الأطروحة، وبعد استعراض الإطار المفاهيمي والتأريخي للمقاربة لموضوع النقاش الرابع، سيما النقاشات الثلاث المؤسسة للبارادايم العقلاني في العلاقات الدولية، فإن هذا الفصل ركز على التحولات البارادايمية الأساسية التي شهدها النقاش الرابع ومن ذلك أن التوليفة البارادايمية العقلانية أصبحت تواجه تحدي تأملي-بنائي، بما أوجد وضعية فريدة في الفكر الإنساني تتلخص في التملص من مصيدة الثنائيات في تأطير framing "البارادايم" داخليا في بنيته التصورية ورؤيته للعالم، وفي تأطير النقاش "البارادايمي"، أي أن هذه الوضعية أسست للعلم "ما بعد الكوني" والذي ينصب على تعايش "البارادايمات" وعلى رؤية مختلفة لمخارج النقاش ذاتها: فصل غير صارم لمستويي النقاش المعرفي الابستيمولوجي/الأنطولوجي (نظرا لتقاسم البنائية انتمائها أنطولوجيا بيذاتانية وابستيمولوجيا وضعية) مضافا إليها أيضا مستوى ثالث أكسيولوجي، لم يكن قائما في حالة النقاشات الثلاثة السابقة. سيعالج هذا الفصل، ومن خلال مبحثين التحول نحو العلم "ما بعد الكوني" والتحول نحو البيذاتانية، فضلا عن تأطير النقاش فيما اصطلح على تسميته بأرضية وسطية للمعرفة وللنقاش النظري. أما المبحث الثاني فقد كرس لقضية حيوية بالنسبة لحقل العلاقات الدولية: المأسسة، حيث تمت المقاربة له من خلال الرؤية العقلانية ومنظور البناء الاجتماعي إضافة إلى التناص التأملي.

أما الفصل الثالث والأخير من الأطروحة فقد انصب على استعراض بعض جوانب ما يعتبره البعض بمثابة النقاش النظري الخامس في العلاقات الدولية، في حين يرى آخرون أنه يعتبر توليفة تصورية تهدف إلى زيادة القوة التحليلية لنظرية العلاقات الدولية في مجملها وتجاوز مرحلة النقاش العقيم. وهكذا فقد استعرضت مباحث هذا الفصل الإشكاليات المرتبطة بالدراسات التأريخية للعلاقات الدولية، ومآل الدراسات النظرية قياسا بالتطورات الميدانية التي أظهرت وجود حالة ارتباك في العلوم الاجتماعية نظرا للتطور غير المتواسق مقارنة بأصعدة أخرى. تناول هذا الفصل أيضا المعضلات التليولوجية والتيلينومية المرتبطة بالبحث في ميدان العلاقات الدولية ومخرج الفرونيزيا المقترح من طرف فليوبيا. كما اهتم الفصل الثالث بكيفية تأهيل نظرية الأشكال الرياضية لـ "سبنسر" و"براون" للتعاطي مع القضايا المنطقية في العلاقات الدولية ومع ظهور الدلالات في المقام الأول. وبعدها تم استعراض شريط موبيوس كأداة استكشافية تمثيلية لكن غير اختزالية للتفاعلات في الساحة الدولية. وفي المقام الأخير تم التفصيل في السيبرنيطيقا الجديدة والملاحظة من الدرجة الثانية والتي تحل أهم معضلة أكسيولوجية: معضلة الأرضية المحايدة لتقييم مسار التطور المعرفي.

هذه الخطة المعتمدة تهدف بالأساس إلى تشريح النقاط الأساسية المنضوية تحت عنوان النقاش النظري والتفاعلات البارادايمية، وبالتالي فتح آفاق لمراجعات مفصلة بالنسبة لكل محور على حده، ومن جهة أخرى، فهي تهدف إلى إبراز مزايا الاستعانة بأدوات تحليلية من الحقول المعرفية الأخرى بما في ذلك الرياضيات والفيزياء لحل المعضلات النظرية في حقل العلاقات الدولية.

الفصل الأول:

التحولات "البارادايمية" في العلاقات الدولية

-مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

الفصل الأول: التحولات "البارادايمية" في العلاقات الدولية-مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيلنا مباشرة إلى تقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالا جوهريا، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساسا، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات الباردايمية في شقها الابستيمولوجي، بدء بالتفسيرات التي قدمتها الدراسات التأريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركية العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكاتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فايرآبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات البارادايمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، ويهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات البارادايمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التفسيرات المختلفة لحركية العلم (تطور/تقهقر/قطيعة/ثورة) سيما الثورات الكونية وبرامج البحث اللاكاتوشية.

المبحث الأول: الإطار الابستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعد على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الابستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضا في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يردان في الأدبيات أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تيبولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تندرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضا من مكونات النظريات القديمة لكنها تنتفض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أسسا جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللاخطي"، أي المتأرجح بين طرق عدة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تيبولوجيا لا تختلف كثيرا عن تيبولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع للمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموما، ستساعد هذه التيبولوجيات، على الرغم من غموضها أحيانا، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و1857، لكن تأثره بالنزعة الوضعية التي كانت في أوجها خلال القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.[1] وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكييفها مع مسلماته الاستقرائية.[2] لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستيوارت ميل" نفسه توقف عند التناقض الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقراء وبالنزعة الإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملكات الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تنم عن التعالي العقلي.[3]

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التأريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعا مهما جدا من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميدانا من ميادينها في إطار "تأريخ العلم" historiography of science. وقد تطلب الأمر قرنا كاملا لتقديم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاها لم تكن لتخرج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتكملها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "ارنست نيجل" Ernest Nagel في كتابة: "بنية العلم" (1961) لتؤكد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.[4] وهو الطرح الذي أيده لاحقا "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالي، قوامه قابلية النظريات للتكذيب وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.[5]

يستند الطرح "البوبري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:[6]

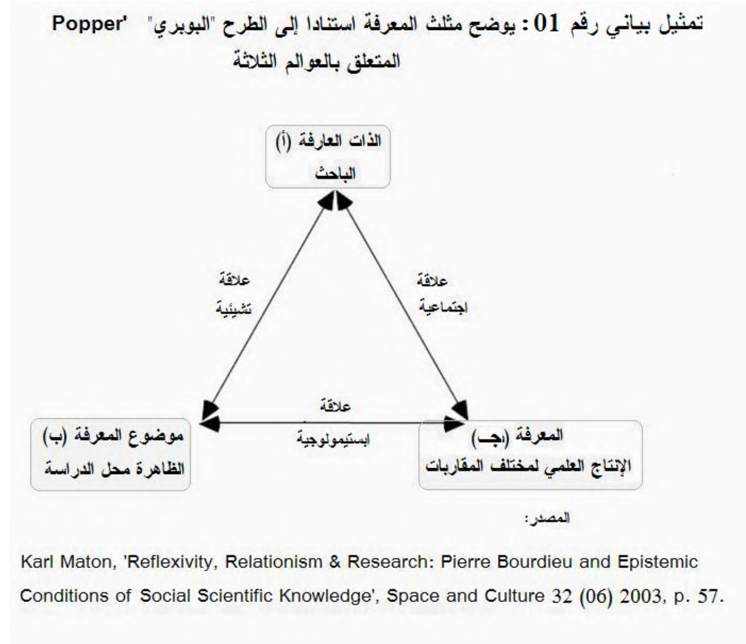
- **العالم الأول**: ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضا الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساسا على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني**: ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات العارفة؛

---

[1] John Losee, '**Theories of Scientific Progress: An Introduction**' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.
[2] Ibid., p. 17.
[3] Ibid., p. 19.
[4] Ernest Nagel, "**The Structure of Science**" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.
[5] كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "**بحثا عن عالم أفضل**" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.
[6] Margaret Scotford Archer, '**Structure, agency and the internal conversation**' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

- **العالم الثالث:** ويشتمل على كل ما أنتجته الذات العارفة أو الدماغ البشري من معارف لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبر" كل النظريات العلمية والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعله مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبر" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني ويخضع للتمحيص والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونمائها.

تمثيل بياني رقم 01: يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبري" 'Popper' المتعلق بالعوالم الثلاثة



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايسة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيقة والناشئة، بسبب استخدام تصورات بمضامين مختلفة وأدوات قياس متباينة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكاتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكاتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسع مجال النظرية لتضمين متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهكذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.[7] وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أتت تباعا، وهي التي تشكلت أساسا من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقيا للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنيوية لدى "وولتز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد

---

[7] Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.

إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتا.[8]

ظلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تأريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين"Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعاب على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلصق بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.[9] المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مسارا لا تتلقفه النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلانية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضمونا مقيدا ومنهجيا، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استنباط الفرضيات واختبارها وفق منطق جديد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلا عن أنهما يرسمان أهدافا متباينة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.[10]

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جذري بل قد تقود مظاهر الخلل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتنقيحات تصورية عبر تفاعلها مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (للباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.[11] وقد ذهب "نيكولاس ريشر" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية-التنقيح، تؤكد على مواطن القوة المنهجية وتضيف عليها بينما تستبعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.[12]

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدم العلمي باعتباره تقربا مستمرا من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى رده على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر

---

[8] Stephano Guzzini, "The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations", **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004, pp. 538-539.
[9] John Losee, op cit., p. 65.
[10] Ibid., p. 69.
[11] Ibid., p. 82.
[12] John Losee, op cit., p. 105.

وضوحا، وهي أن التقدم ينصب على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.[13] لكن هذا الطرح متأثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems، وهي سمة بارزة في ظل تشابك المصالح وتعقد المشكلات. ولتفادي الانتقال الكلاني من نموذج لآخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جذري، رغم أن ذلك ليس ضروريا، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكميا في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيتشر" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العملي (تحسن فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسيطية) وأخيرا، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التيبولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عددا من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدم العلمي:[14]

1. **التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي** Inductivism: الذي تنضوي تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛
2. **الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي** Conventionalism **والذرائعي** Instrumenalism: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشييد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتفق مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسيطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحيين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تتسم بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعة التبسيطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضا esthetic، إذن فالمفاضلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "لاكاتوش" وفي مآخذه على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يحققها معيار البساطة.
3. **القابلية للتكذيب لدى الاتجاه البوبري**- Falsifiability: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدوس الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقدم العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفنيد التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفسح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدوس أكثر جرأة وابتكارية تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتكذيب لدى "بوبر" وثوراته المطردة جاءت بفضل "لاكاتوش".

---

[13] Ibid., p. 120.

[14] يمنى طريف الخولي، **"فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية"** (الكويت: عالم المعرفة: 2000)، ص ص. 414-415.

4. **تنافس البرامج البحثية لدى الاتجاه اللاكاتوشي**: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقبا لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدميا في حين ينتكس البعض الآخر.

وسيتم التفصيل في أهم الطروحات السابقة عبر التركيز على التأريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيرا من منظور "الفوضى المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطروحات التي بثت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بنى "كون" تصوره على أعمال "كارل بوبر" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالا من نموذج قياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.[15] ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسته حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تفادي النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحينها سوف يحدث تاريخ العلم تغييرا جوهريا في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماما سيما إذا تحاشينا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن نتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بنى عليها مفهوم اللامقايسة أو اللاقياسية).[16]

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التأريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعطى الحالي غير مجدية لأن هناك تمايزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات، والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بديهيا، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.[17]

لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق التقدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد

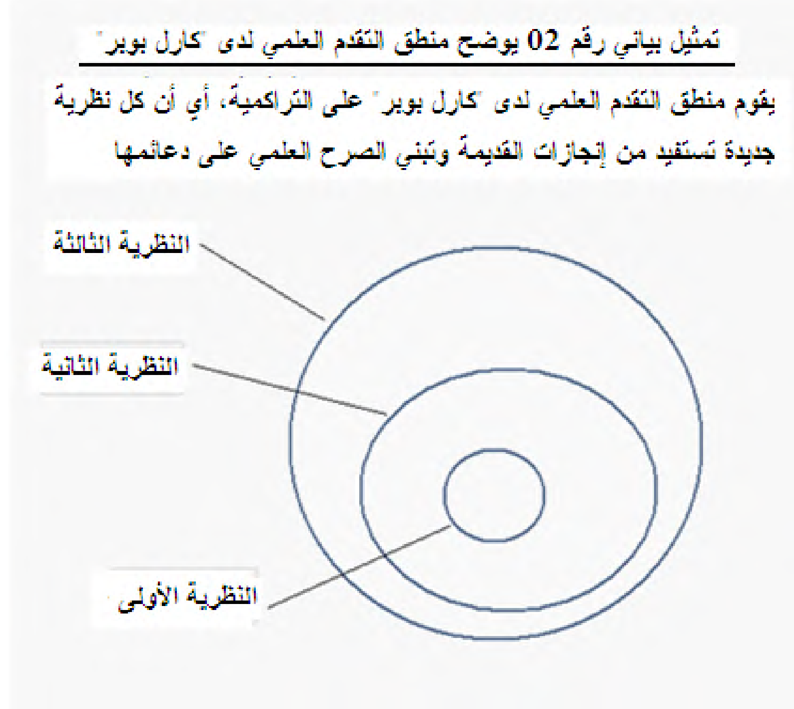
---

[15] "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" (1952-1956)، جامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساتشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم.

[16] Ronald N. Giere, '**Science without laws**' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

[17] Ibid., p. 38.

السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطي، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. ويبدو أن "كون" وخلافا لسلفه "كارل بوبر" يتحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطا قاسية لذلك.[18]



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يلتزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التنقيح والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

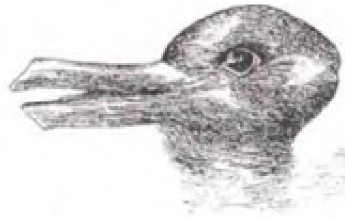
- ما الذي يجب ملاحظته؛

---
[18] Ronald N. Giere, op cit., p. 38.

- ما هي الأسئلة التي يتعين طرحها؛
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؛
- كيف يمكن قراءة وتأويل النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير استطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أدناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأرنب، ويماثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أرنب)



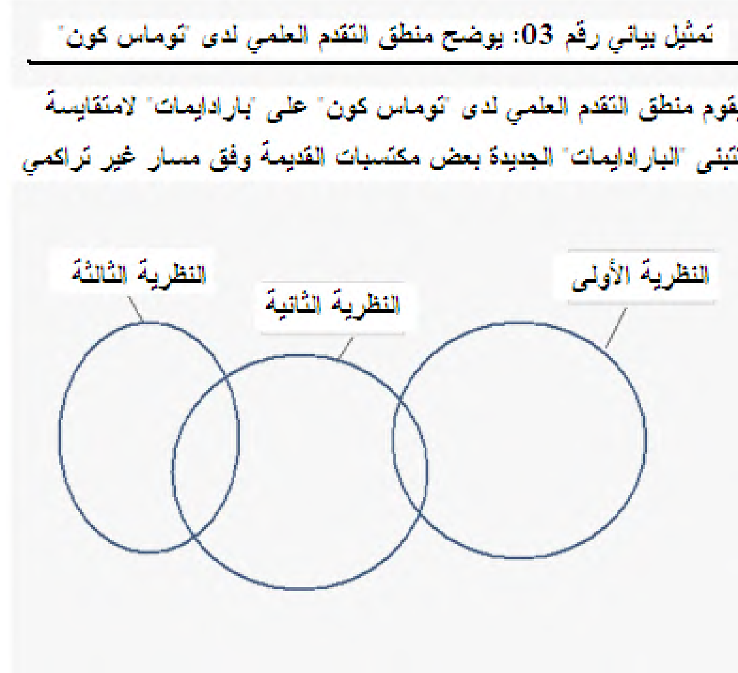
فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متباينة تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "عالم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهتم بدراسة الظاهرة ذاتها.[19]

يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الوهلة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسليم بنموذج قياسي إرشادي يهيئ الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوبر" في تصوره: "القابلية للتكذيب" falsifiability، فالعلم ينمو في مراحله العادية من خلال "تفكيك الأحاجي" puzzles التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعا وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على

---

[19] Stephen Walt, 'International Relations : One World, Many Theories', **Foreign Policy** (Spring) 1988, pp. 29-45.

نجاح المشروع العلمي برمته، لكنها تفتقد لأية ابتكارات جوهرية فلدى سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.[20]



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادية normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهيئين للتعامل معها، ذلك أن "البارادايم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكلل بتعديل "البارادايم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادابم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادايم" نفسه يحوي بذور أفوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكرر والمطرد فالمبالغة في ذلك تعني أن "البارديم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويماثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطويرها لحقل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "وولتز" Waltz و"راقي" Ruggie.[21]

في سياق التنقيح "البارادايمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعى البحثي غير تراكمي، ولتوضيح الأمر نعود إلى

[20] Patrick James, '**International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered**', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.
[21] Patrick James, op cit., p. 128.

التصور "البوبري": القابلية للتكذيب. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضا على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكذيب من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنبا إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه –في حال نجاحه- بـ التحول البارادايمي paradigm shift.[22]

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها الديزل والطائرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسيير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقنص والتفجير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحاليا يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات البارادايمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول البارادايمي قبل الإحالة على المضامين الأكثر تجريدا عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولا في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت تراكمية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.[23] في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلى ذلك في إخفاق "النيوواقعية" و"النيوليبرالية" في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنهما نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

لقد أتاح ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تتمتع بصلاحية إمبريقية أكبر، وهذه "البارادايمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبنت نظرة للعالم worldview متوائمة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إذن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلا متميزا، كما أنها تمثل تطورا نوعيا بل وربما قطيعة معرفية بمفهوم "باشلار"

---

[22] توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، '**بنية الثورات العلمية**' (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.
[23] توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.

Bachelard.[24] إذ أن "البار اديمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطائنا فهوما، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـ silences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكاديمية Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "البار اديامات" على منافساتها فإنها ستهيمن على الحقل في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإخفاق في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويدنا بها، وعندما يصعب التخفيف من حدة هذه الأزمة عبر تنقيح "البار ادايم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (بار ادايم) جديد، والذي ينطوي أيضا على تغيير في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به البار ادايم الجديد والقديم غير متيسر، فكل منهما يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضا، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقايسة Uncommensurability، فعندما نكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علميا، فضلا عن أن النظرية تقاس بالسياق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فلكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدة من "البار ادايم" الذي تم تفعليها فيه.[25]

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "بار ادايم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "البار اديمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (البار ادايم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكاتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكاتوش".

إن اهتمام "إمري لاكاتوش" (1922-1974) بمجال التأريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".[26] وهي المقولة التي صاغها عن طريق تعديل قول "إمانويل كانط" المتواتر: "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء"، وهنا يشبه وقائع

---

[24] لمريد من التفصيل في مفهوم القطيعة المعرفية لدى "باشلار" أنظر: محمد عابد الجابري، **'مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي'**، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.

[25] توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

[26] إمري لاكاتوش Imre Lakatos (1922-1974) من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجري لقبه الأصلي "ليبشوتز"، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

تاريخ العلم بأنها محض مدركات عمياء، ونظريات فلسفة العلم محض تصورات عقلية فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدهما من دون الآخر.[27]

تأثر "لاكاتوش" في أعماله بفلسفة العلم سيما نظريته في المنهج (الميثودولوجيا) لكنه منحها فعالية وحركية تاريخية. غير أن أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "ميثودولوجيا برامج الأبحاث العلمية"، فقد جاءت متأثرة بمفهوم "النماذج الإرشادية" لدى "توماس كون" وأيضا "الإستراتيجيات العقلية" عند "ستيفن تولمن".[28]

ويعتبر الحديث عن البرامج البحثية اللاكاتوشية وأهم رؤى "لاكاتوش" في هذا الشأن منقوصا قبل المرور على إحدى المفاهيم الابتكارية التي جاء بها وهي: تكذيب الفروض refutation، حيث يصر "لاكاتوش" على اعتبارها الخاصية المميزة للنظرية العلمية -وخلافا لما ذهب إليه "بوبر"- فإن النظرية العلمية ما يميزها ليس قابلية التكذيب المتضمنة فيها بل الأصح هو عدم إمكانية القيام بذلك.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهيم-كواين" Duhem-Quine Thesis:[29] تنص هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويلها بالنسق العلمي الذي تولدت فيه هذه الفرضيات؛ ثانيهما، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال أثبتت القرائن الإمبريقية خطأ إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطو أية خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهيم-كواين" بدلا من ذلك تصورا آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاكاتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي الافتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكذيبها بواسطة الاستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من الافتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برامج البحث" يتيح للنظرية التعامل بإيجابية مع عالمها دون الخشية من أن تنهار بفعل اختبارات سلبية.[30]

---

[27] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 409.

[28] المرجع نفسه.

[29] Donald Gillies, 'Lakatos' Criticisms of Popper', in George Kampis et al. (eds.) '**Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man** (US: Springer, 2002), p. 15.

[30] Donald Gillies, op cit., p. 16.

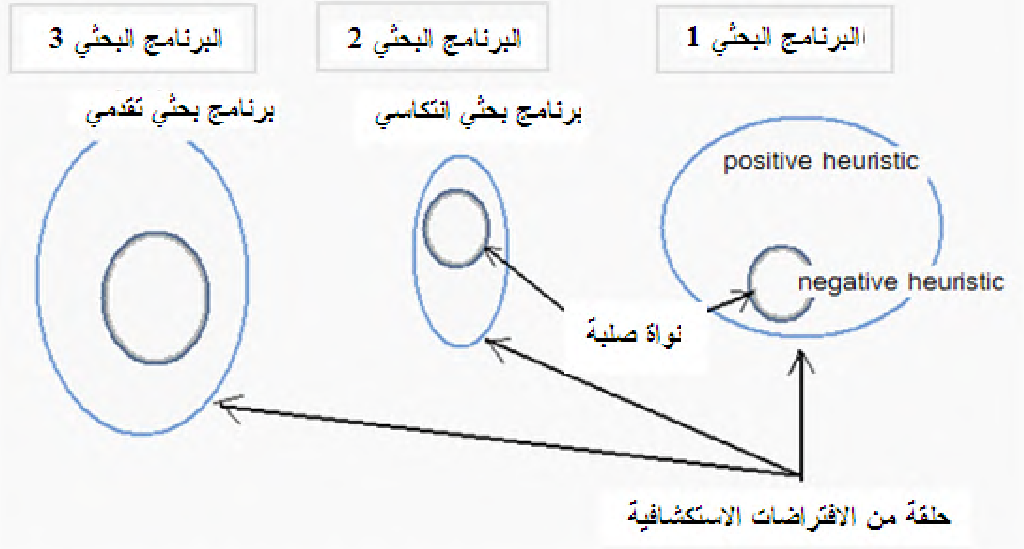
في حقل العلاقات الدولية تماثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "لاكاتوش" negative heuristic أي أنها محصنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعنيين يعبرون عن انتمائهم لهذا البرنامج البحثي Scientific Research Program، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى برنامج بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدفاعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكاتوشي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديلها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويماثل ذلك الواقعية الدفاعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمن).[31]

---

[31] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, 'Apprasing Progress in International Relations Theory: An Introduction', in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "إمري لاكاتوش"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "لاكاتوش" على افتراض مفاده أن البحث العلمي مهيكل في إطار برامج بحثية تتكون من نواة صلبة محصنة ضد التكذيب وحلقة من الافتراضات الاستكشافية الخاضعة لمقياس الاختبار



البرنامج البحثي الذي تتوسع حلقة افتراضاته الاستكشافية يصبح تقدميا (الواقعية مثلا)
أما البرنامج البحثي الذي تضيق فيه هذه الحلقات فيصبح انتكاسي (النيوماركسية مثلا)

إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدفاعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدفاعي Defensive Realism /"الهجومي" Offensive Realism لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكاتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتمين لهذا البرنامج ليسوا مضطرين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "البارادايم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكاتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift، وهي الطريقة الوحيدة لحماية، ليس النظريات فحسب من الصعود والسقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية.

وهنا يوضح "لاكاتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].[32]

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنتكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحزام الدفاعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبات باتجاه تحصيل المزيد ميدانيا، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراوحة مكانها فإما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهار النظرية لأنه يفترض بهذا الحيز أن يكون بمنأى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.[33]

إذن، فـ "لاكاتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متوالية من برنامج بحث أصبح منتكسا، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الواعدة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقييم مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرقا لحل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثودولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإبستمولوجي الذي هو تطور عقلاني خالص".[34]

لقد حقق تصور "برامج البحث" لدى "لاكاتوش" نجاحا باهرا في الأوساط الأكاديمية، سيما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظرا للصعوبات التي اكتنفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجندر، البنائية،...). التعايش، إن صح التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "البارادايم" المنتكس أو المتقهقر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جدا، فإما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقا بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" و"قاليليو" إلى "النيويتينية" وصولا إلى "النسبية" وأخيرا "ثورة الكوانتوم" وهي المحطات التي بنى على ضوئها "كون" نظريته).[35]

---

[32] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.
[33] Ibid.
[34] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 414.
[35] John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003)**,** pp. 420-422.

غير أن ذلك لم يكن حائلا دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلا حديث "لاكاتوش" عن البرامج البحثية الواعدة التقدمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتجد نفسها في موقع دفاعي، كان معيارا تصنيفيا جيدا، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكاتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن نبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على ضوئها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكاتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متتالية يعد كافيا للحكم عليه بالتقدمية.[36] غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكاتوشي للتحولات المعرفية تتمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلانية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا تربطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكاتوش" على حد سواء.

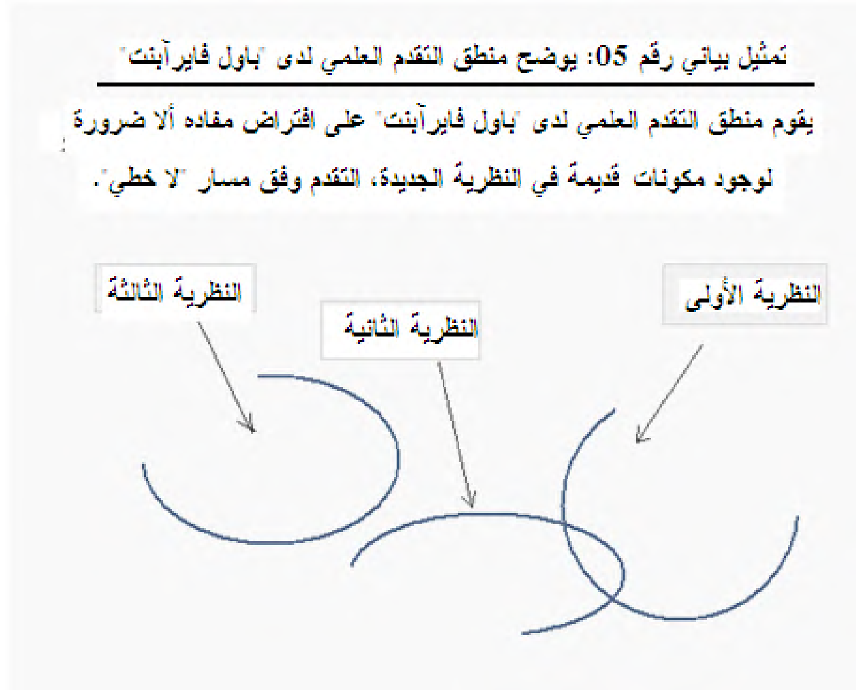
المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فايرآبنت".

تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فايرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة".[37]

---

[36] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

[37] لفهم أعمق لمطارحات فايرآبنت، أنظر بالأخص: باول فايرآبنت، ترجمة: محمد أحمد السيد. **"ثلاث محاورات في المعرفة"** (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مسعى فوضوي" Anarchic Enterprise، إذ لا يجدي نفعا تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية.[38]

وكانت أسانيد "فايرآبنت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره القائلة بأن الصرامة المنهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيدا في رؤى "فايرآبنت" لا نجدها داعية إلى الفوضى المنهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحاته، بل هو مناصري "التعددية المنهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تفتي بما يجوز من دونه منهجيا لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القداسة بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآبنت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تنطوي على نظرة ديناميكية للقيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريا للحكم بالتقدمية أو الانتكاس مثلا، لكن من منظور "فايرآبنت" سيتعين أولا مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

[38] Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, **'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox'**, (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانتكاسة، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.[39]

لقد ذهب "فايرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماما مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعددية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فايرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضا بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعليا عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تنميط المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يكمن في علمنة للعلم تماما مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنساق عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرتها التحليلية، فضلا عن أنها ليست خاطئة قياسا بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فايرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنساق العقلانية المختلفة لامتقايسة incommensurable. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحتكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فايرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيتقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "لعبة اللغة" language game، ما يميز شكلا عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تنبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيتقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة والعلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

---

[39] Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسية والتفسير "الكوني"-"اللاكاتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لتخصص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات البارادايمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لنقاشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتميزة.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تأريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هايسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد التالية:[40]

- محاولة شرعنة البارادايم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحى آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعاقبة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كتخصص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بسعي إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:[41] مرحلة سيادة "النزعة الدولاتية" State-centred (التمحور حول الدولة وجعلها مرجعية للتحليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بواكير سعيه لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعة التعددية" Pluralism: وقد برز هذا التوجه

---

[40] Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimation, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

[41] John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبا باهتمام التحاليل السياسية بفواعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعة السلوكية" Bahavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية الستينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثا بـ "بريسترويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعددية" و"السلوكية" استطاعتا إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "الاكاتوش". ويحاجج "دريزك" بأن سر نجاحهما هو عدم تعرضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.[42]

إن الهدف المتوخى من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندة جديدة للبحث على أنقاض الأجندة التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ "دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكاتوشية" مثل "الوظيفية البنيوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" و"سكوكبول" Pierson وSkocpol مع وجهة النظر هذه ويرتأيان أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة براديمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" و"العقلانية" و"المؤسساتية".[43] لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقا ضمنيا بين الطرحين، فـ "دريزك" يتحدث عن نجاح مسعيين لإحداث تحول "باراديمي" في الحقل وهما: الدولاتية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندة الحقل بشكل كلي. والتوافق الضمني هنا يكمن في أن المؤسساتية امتداد للنزعة الدولاتية بينما تنطوي الاثنتين على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات البارادايمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولاتية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداء من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولمبيا الأمريكية عام 1857، وصولا إلى "وودرو ويلسن" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، وخلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" و"مواطنة فاضلة".[44] وقد تبنى

[42] Ibid.
[43] David D. Laitin, 'The Political Science Discipline', in '**The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics**' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.
[44] John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكاديمية تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "وولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"وودورو ويلسن" في الولايات المتحدة.[45]

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلح على تسميته بالنقاشات الدستورية بين "الفدراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسن" لم يكن وحيدا في تصوره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لناخبين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتعكف على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة دأبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبية والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مُؤلف "ويلسن" نفسه المعنون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.[46]

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة –فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمتع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناو" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحيانا تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدولاتية إلى محاصرتها، تماما مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".[47] يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوستن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندة البحث وأجندة الباحثين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.[48]

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدولاتية [الدستورية] كانت لديهم مآخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ "التعدديين" pluralists [المنادين بتعدد الفواعل المشاركين في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة]، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ"التعددية" pluralism الذين طالما وصف أتباعها بـ"الهواة" في

---

[45] David Boston, ‘The Political Science in the United States: Past and Present’, in David Easton et al. (eds.), '**The Development of Political Science: A Comparative Survey'** (UK: Routledge, 1991), p. 276.
[46] John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[47] Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[48] David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولاتيين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحقل، لم يكونوا بأسوأ حالا في هذا الجانب من "الدولاتيين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعا لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقفي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تنطوي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحتة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعدية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولاتي" State-based.[49]

لقد اتسمت المنهجية في هذه الفترة –فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دايفيد بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالا غير رسمي، وهو نوع من التناقض فـ"الدولاتية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن المنهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولاتيين الكلاسيكيين "المحترفين" أو للتعديين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحا للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسنى لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدما وفي وقت مبكر.[50]

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان البحاثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائما حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولاتيين يتمثل في النزعة التعددية.[51]

المطلب الثالث: أول تحدي بارادايمي في حقل علم السياسة-البارادايم التعددي.

خلافا لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاوتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادايم بل من داخله، فـ "بيقهوت" و"ويلسن" كانا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطا معتبرا على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلا على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجوعات الضغط الناشئة.[52]

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولاتيين" يقرون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتعين حلها لا وضعية ينبغي تثمينها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

[49] Ibid.
[50] David Boston, op cit., p. 276.
[51] Ibid., p. 277.
[52] Ibid.

بنتلي" Arthur Bently المعنون: "عملية الحكم" The Process of Government والذي يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقا بعنوان: "صانوا القرار، المعنيون بالقرار والمتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبَر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "تشارلز ميريام" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينيات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز التحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.[53]

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنزيف مع فقدانه للتحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقديس الدولة استمر خلال العشرينيات لأنها كانت تلبي تطلعات معيارية،[54] منها صعود التيارات القومية في أوربا.

غير أن التعددية المعيارية أضحت تحتل حيزا متزايدا مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفة "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقا حصريا لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرقا عدة يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشفاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من للقاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العكسي من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولاتيين" في تقديسهم لدور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالا مهما للدولاتيين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولاتيين قدموا إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالته".[55]

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولاتيين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقيا، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجيا بالأساس، وإلا لكانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظرا لثوريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتجاذبة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجاذب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغوط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.[56]

لقد حاول "دريزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينيات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقية الوحيدة التي

---

[53] John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[54] Ibid.

[55] التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعديين) ليس التعددية الحزبية التي تعتبر ركيزة الديقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الاكتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدي تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، أنظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[56] David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعة لتعددية" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (ووسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعددي ينطوي على بعض الصحة.[57]

لكن، وحسب "دريزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشفاف وجود تقارب كبيرا بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ"الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعددية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدديين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحهم هذا لم يحض بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبناة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.[58]

المطلب الرابع: التحول البارادايمي الأول في علم السياسة–السلوكية-

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "البارادايم الدولاتي"، ومع إخفاق "البارادايم التعددي" في تحويل أجندة البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "البارادايم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "البارادايمات" السابقة. وهكذا فقد تبنى "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعددية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقبع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية الستينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكية، وأعطى ذلك انطباعا بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجندة البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورقنتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكوا الأوساط الأكاديمية بانتقاداتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبهم للتأصيل النظري والتوجيه المنهجي.[59]

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكية ثورة معرفية، فضد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطاب الثوريين يتحدث عن توجيه ثورتهم المعرفية ضد "علم السياسة التقليدي" الذي يعتمد المنهج التاريخي والمغالي في واقعيته حسب "دايفيد إستون" David Easton؛ لكن من هم الباحثون الذين وسمت أعمالهم بـ"التقليدية"؟ ذلك سؤال لم يجب عنه السلوكيون الذين ظلوا صامتين

---

[57] John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[58] Ibid.
[59] Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), '**Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880**' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلوا من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية.[60] وهو وضع يختلف كثيرا عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذا في الأوساط الأكاديمية وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.[61]

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعددية كمنطلق أنطولوجي والتخلي عن الأحادية الدولاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنيتهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.[62]

يعتبر "دايفيد إيستون" من خلال كتابه المعنون: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكي، ويمكن استشفاف نقمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائيي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالا فكريا كبيرا، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمغالاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسقة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسقة.[63]

تأكيدا لتمسكه بموقفه أصدر "إيستون سنة 1984 مؤلفا آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكيد على مزاعمه أشار إلى "بنتلي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلا حقيقة أن "بنتلي" اختفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتلي" نفسه تحول إلى واحد من المتحمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكي في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

---

[60] John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[61] للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية أنظر:
Friedrich Kratochwil, '<u>History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory</u>', **European Journal of International Relations** 12 (01) 2006. pp. 5-29.

[62] Robert Adcock, op cit., p 189.

[63] تعتبر مسألة غياب خصوم للثورات المعرفية التي نجحت في تحويل أجندة الحقل أهم نقطة ركز عليها "دريزيك" في مقاله ولتأكيد وجهة نظره هذه فهو يشير إلى أن "إيستون" في الفصل الثالث من كتابه: "النظام السياسي" حاول تقديم نموذج عن خصومه فأشار إلى "جيمس برايس" James Bryce رغم أن كتابات هذا الأخير تعود إلى نصف قرن مضى، أما في الفصل العاشر، فقد انتقد "إيستون" لجوء منظري علم السياسة إلى تاريخ الفكر السياسي لكنه لم يجد من يدينه بذلك سوى George Sabine. أنظر:
John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصيا، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسساتيا.[64]

لقد خلص "دريزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقيضا آخر لـ "النزعة العلمية" التي يدعي "السلوكيون" الدفاع عنها أو أية مقاربة أخرى. فميدانيا وعلى صفحات الدوريات لم يكن هناك باحث واحد في معسكر "المناوئين للنزعة العلمية"، حيث أن مثل هذا التوجه كان على الدوام توجها هامشيا في الحقل المعرفي لعلم السياسة، وهو ما تأكد قبل نصف قرن من ظهور السلوكية نفسها، أي لدى تأسيس APSA عام 1903، حيث أشار مؤسسوها إلى أن أحد أهداف APSA هو: "تشجيع الدراسة العلمية للسياسة". وطالما أن السلوك، والعلم، والتعددية والنظام هي أهم سمات "السلوكية"، فإنه لا مبرر لاعتراض التقليديين عليها، ذلك أن بحوثهم لطالما تناولت السلوك على المستوى الفردي سيما خلال الثلاثينيات والأربعينيات. وحتى الباحثين الذين لم يدرسوا "السلوك" لم يبدوا اعتراضا على القيام بذلك. لقد كانت "النزعة العلمية" قائمة حتى قبل مجيء "السلوكيين"، إذن ما الجديد الذي جاءت به السلوكية؟ فحتى تصور النظام السياسي الذي جاء به "إيستن" قدم مصطلحات جديدة (المدخلات inputs، المخرجات ouputs، والارتداد الارتجاعي feedback)، ولكنه لم يزودنا بنظرية جديدة شاملة لعلم السياسة. إن الجديد الذي جاءت به السلوكية ويجعل منها ثورة معرفية غير مسبوقة إحداثها تغييرات جذرية في توجهات قائمة سلفا في علم السياسة، هذه المجالات المنتقاة هي السلوك، العلمية، التعددية، الوصف مقابل التفسير في الجوانب النظرية. بدء بالسلوك، حيث اعتمد السلوكيون على الدراسات المسحية التي تستند إلى مجتمع إحصائي أوسع، كما عمد إلى زيادة وتيرة الدراسات الكمية التي تصدرت صفحات الدوريات العلمية الرئيسة في التخصص.[65]

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"البارادايم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في غمرة الفوضى التي تخبط فيها نهاية الستينيات، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فييتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أفريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوئ لليبرالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فوقلين" "هانا

---

[64] في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مآخذه على التقليديين مثيرا خلطهم للحقائق والقيم، وإطنابهم في وصف الظواهر السياسية دون تقديم تفسيرات وافية، يضاف لذلك كله إسهامهم بالقليل من النظريات الفضفاضة، وانتهى "إيستون" إلى اعتبار كتاب "القوى المتوازية" لـ "ميرل فينسود" Merle Fainsod بمثابة النظرية غير المعلنة لـ "التقليديين". ومعروف أن فينسود في كتابه هذا حاول تفسير عملية صنع السياسة بالقول أنها محصلة تفاعل قوى تدفع في اتجاهات مختلفة. وإذا كان هذا هو جوهر علم السياسة التقليدي في هذه الفترة، فلا يبدو هناك أي مبرر إذن ليدخلوا في سجال مع السلوكيين، وأكثر من ذلك فإن صاحب هذا المؤلف (فينسود) أصبح لاحقا رئيسا لـ APSA في ذروة هيمنة السلوكيين، بل وساهم هو نفسه عام 1968 في الحفاظ على انتصار "البارادايم" السلوكي بصفته رئيسا لـ "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA عبر تضييق الخناق (بطريقة ذكية ودفاعية) على "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" Caucus for a New Political Science من خلال وضع شروط معينة للمشاركة في المؤتمر السنوي لـ APSA تستبعد المنخرطين في مسعى تجديد علم السياسة، أنظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[65] John S. Dryzek, op cit., p. 490.

أرنت" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محايدة قيميا كما تدعي بل إنها جعلت من علم السياسة أداة للحفاظ على الوضع القائم status quo.[66]

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجيا على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حدتها مطلع الستينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئين لهم والذين كانوا مهمشين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاههم تنامى، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التقليديين ذوي النزعة التاريخية"، بل من باحثين يطالبون بدور إيجابي لعلم السياسة، من خلال إعطائه لمسة نقدية وتوجيه اهتمامات الباحثين نحو قضايا المجتمع.

المطلب الخامس: التحدي البارادايمي الأول للسلوكية-"المؤتمر من أجل علم سياسة جديد".

مع تصاعد حدة الانتقادات التي طالت السلوكية فقد جاء المؤتمر السنوي لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" سنة 1967 فرصة لمأسسة الاتجاه الذي أصبح يعرف لاحقا من طرف رواد السلوكية وعلى رأسهم "دايفيد إيستن" بـ "ما بعد السلوكية" post-behavioralists، غير أن المنتسبين إلى هذا الاتجاه النظري الصاعد يفضلون نعت أنفسهم بـ المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" CNPS. بداية التصادم بينهم وبين المدافعين عن التقليد البحثي المهيمن آنذاك (السلوكيين) كان بسبب استحضار السلوكيين الذين ظلوا مسيطرين على أهم المناصب في APSA طيلة الستينيات، للمادة الثانية من دستور APSA،[67] لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة من زاوية اتخاذ مواقف بشأنها سيما حركة الحقوق المدنية للسود وحرب فييتنام. ورغم أن هذه المادة لا تنص على منع أعضاء APSA من مناقشة القضايا العامة إلا أن تكييفها كذلك من طرف السلوكيين الذين هيمنوا على المناصب الإدارية للجمعية، أقنع مناهضيها بضرورة إيجاد إطار تنظيمي يحمي وجهات نظرهم من "التسلط السلوكي". وفعلا، فإنه وبالموازاة مع مؤتمر APSA عقد هؤلاء مؤتمرهم بحضور 225 حيث انتخبوا "تشارلز ماكوي" رئيسا لـ CNPS.[68]

وقد قدم المؤتمر مرشحا لرئاسة APSA وضم في صفوفه قائمة من أبرز باحثي علم السياسة آنذاك ولفترة طويلة مثل "سيمور مارتن ليبست" Seymour Martin Lipset، "بيتر باكراتش" Peter Bachrach، "كريستيان بي" Christian Bay، "تيودور لوي" Theodore Lowi، "مايكل برينت" Michael Brent، ، "شيلدون ولين" Sheldon Wolin، كما تضمنت القائمة أيضا وجها بارزا في تخصص العلاقات الدولية: "هانتس مورقنتهاو" Hanz

[66] NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science', **New Political Science** 29 (04) 2007, pp. 501-502.

[67] تشير المادة الثانية من دستور APSA إلى أن الجمعية: لا تلزم أعضائها باتخاذ مواقف إزاء قضايا السياسة العامة إذا كانت هذه القضايا لا تمس بشكل مباشر المقاصد التي وجدت الجمعية من أجلها. هذه المادة تم تكييفها بطريقة غريبة من طرف مسيري APSA لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة في مؤتمراتهم السنوية.

[68] NPS Caucus, op cit., p. 502.

Morgenthau والذي كان من بين المعارضين للحرب في فيتنام، فضلا عن "إدوارد سعيد" Edward Said و"نعوم تشومسكي" Noam Chomsky.[69]

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكاديمية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكي". ولتسويق طرحهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تغطية ما يرونه جوانب قصور في "الاتجاه السلوكي": حيث توجهوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمات السياسية لتلك الفترة، كما طالبوا بعلم سياسة يتخذ موقفا جماعيا موحدا من القضايا السياسية المثيرة للجدل مثل: حرب فيتنام، التمييز العنصري، والفقر، إضافة إلى قضايا البيئة والمرأة. ولاحقا تمكن هؤلاء من الحصول على تمويل يسمح بإجراء بحوث حول قضايا ملحة أخرى مثل: الإيدز العلاقة بين حقوق الإنسان، والديمقراطية والرأسمالية، الحرب على العراق الجوانب العرقية والجندرية والطبقية للسياسة العامة.[70]

لم يبد هذا "البارادايم" الصاعد حنقا تجاه "العلمية"، حيث أنه ركز توصياته على ضرورة إعادة ترتيب الأولويات لتكون "العلمية" في المرتبة الثانية بعد الالتزام بقضايا المجتمع من جهة ومدى الصلاحية الإمبريقية للأبحاث التي تجرى باسم علم السياسة. وبرروا موقفهم هذا بكون مسألة تفسير السلوك السياسي لا تشكل حقيقة مركز الثقل المعرفي في علم السياسة. ولأجل ذلك سخر أعضاء المؤتمر أكثر جهودهم لمسعى إصلاح APSA، وقدموا مرشحين لمنصب الرئيس ولعضوية مجلس الجمعية، لكنهم أخفقوا في الحصول على الرئاسة رغم نجاحهم في الاستحواذ على بعض المقاعد في المجلس. وتجدر الإشارة إلى أن بعض رواد "المؤتمر" من أمثال "تيودور لوي" Theodore Lowi، و"أيرا كاتزنيلسن" Ira katznelson، تمكنوا من الحصول في فترات لاحقة على منصب الرئاسة باعتبارهم مرشحين رسميين.[71]

استطاع السلوكيين إلى حد ما احتواء نقمة التيار "ما بعد السلوكي" خاصة في النقطة المتعلقة بعدم ميل "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" للتهجم على النزعة العلمية، حيث عمل "دافيد إيستون" على التخفيف من حدة التوتر بين "السلوكيين" و"المؤتمريين" من هذه الزاوية، إذ خلال مداخلته له أمام APSA عام 1969 بصفته رئيسا للجمعية تحدث عن "ثورة جديدة في علم السياسة"، بإمكانها أن تجعل التقنيات التي طورها "السلوكيون" و"نظريته للنظم" على حد سواء في خدمة المشكلات الاجتماعية. لم ينجح "إيستون" في ردم الهوة بين المعسكرين، إلا أنه نجح في إرساء تخصص ثانوي في علم السياسة وهو السياسات العامة. وهكذا ظل السلوكيون في إطار APSA متشبثين بمقاومتهم للتغيير الذي بشر به "المؤتمر من أجل علم سياسة جديدة"، إلا أن ثقتهم في النفس قد تزعزعت كثيرا، وهم الذين استماتوا في مقاومة تسييس "حقل علم السياسة"، وهي

---

[69] Ibid.
[70] NPS Caucus, op cit., p. 503.
[71] John S. Dryzek, op cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".[72]

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجندة البحث في علم السياسة، والتالي مدى نجاحه كثورة معرفية، فلدى التمعن في محتويات الدوريات الأكاديمية الرئيسية يمكن لأي باحث أن يستشف تراجعا نسبيا لكنه ثابت للأعمال العلمية التي تعتمد معايير المدرسية السلوكية سيما توظيف الأدوات الكمية. لكن وبالمقابل فإن "دريزيك" يرى بأن "المؤتمر" وبدل أن يتوجه نحو تشييد روابط مع التيارات الاجتماعية والسياسية والتي تحمل ثقافة مناوئة له، فقد كرس جهوده على الصعيد المهني، مما دعا باحثا آخر هو "لوي" Lowi إلى تسميته بـ "المؤتمر من أجل جمعية جديدة لعلم السياسة"، ومع إخفاقه في الحصول على رئاسة الجمعية فقد تراجع طموح أعضاء "المؤتمر" وأصبح تنظيمهم مجرد قسم عادي ضمن أقسام APSA يعمل على تمويل لجان عمله بشكل ذاتيا، أما المجلة العلمية التي قام "المؤتمر" برعايتها (علم السياسة الجديد) New Political Science فقد ظل انتشارها محدود، ولم يظهر اسمها ضمن ترتيب أبرز 115 دورية علمية في التخصص. وقد جاء تيار "بريسترويكا علم السياسة" لأعطاء دفعة جديدة للجهود من أجل إرساء تحول "بارادايمي" عميق يغطي نقائص "بارادايم الخيار العقلاني" الذي تمثله السلوكية.

المطلب السادس: استعصاء التحول "البارادايمي" -مستقبل برويسترويكا علم السياسة-

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقا كليا بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحهم لا يعني بالمقابل نجاح "السلوكية" فهذه الأخيرة وإن استمرت إلا أنها استمرت وهي فاقدة لهويتها التي انطلقت بها وخاصة في الشق المتعلق بزعمها إمكان إرساء أسس علم محايد أو علم مجرد من القيم. فقد قدم هذا التيار تنازلات متتابعة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" التي تعتبر محرك التغيير "البارادايمي" الذي لا يمكن تجاهله.

تجسدت هذه التنازلات بتبني دورية أكاديمية جديدة بعد ثورة "المؤتمريين" عام 1967 سميت السياسة وعلم السياسة PS: Political Science and Politics وذلك اعتبر ضربة لـ American Review of Political Science التي احتكرت المجال الأكاديمي لفترة طويلة نظرا لصلاتها بـ APSA، هذه الدورية الجديدة أتاحت الفرصة لنشر أعمال علمية تتوجه أساسا نحو معالجة مشكلات المجتمع والقضايا الملحة في السياسة العامة للدولة الداخلية والخارجية.[73] ولاشك أن هذه الخطوة تعتبر ميزة أمريكية تستحق التنويه، حيث أن قوة المنظومة الأمريكية عموما هي في قدرتها على احتواء ديناميكيات المجتمع عبر تعديلات بنيوية جزئية تمنع تقويض النظام ككل في

[72] John S. Dryzek, op cit., p. 491.
[73] NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكدت قوة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأمريكيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمى نفسه "السيد بروبسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان انفتاح الحقل على التعددية المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكمّيون" عليه.[74]

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البرويسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "بارادايم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بـ تيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل بروبسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه 'المؤتمر' Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكاديمية حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتركان في مسالة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".[75]

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكاديمية أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحدثوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندة الحقل.[76] لكن هل بقي هناك "أجندة بحث" في "علم السياسة" ليمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرة خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندة، فإما أننا إزاء برامج بحثية لاكاتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية انتكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستخفت أعمالها العلمية.

بالنسبة لـ قابرييل ألموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة اللانقاش، وبعبارته الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلا بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.[77]

---

[74] سيتم التفصيل في أبعاد "حركة البرويسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن معضلات النقاش الرابع.

[75] Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

[76] Ibid.

[77] Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', **PS** 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" **(يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)**	
1. الفدرالية والعلاقات بين الحكوماتية 2. القانون والقضاء 3. الدراسات التشريعية 4. السياسة العامة 5. التنظيم السياسي والأحزاب 6. الإدارة العامة 7. ديناميكيات النزاع 8. النظم التمثيلية والانتخابية 9. البحوث حول مؤسسة الرئاسة 10. المنهجية السياسية 11. السياسة والدين 12. السياسات العمرانية 13. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية 14. المرأة والبحوث السياسية 15. أسس النظرية السياسية 16. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال 17. الأمن الدولي ونزع السلاح 18. السياسات المقارنة 19. السياسة والمجتمع في أوربا 20. سياسة الدولة والسياسة العامة	21. الاتصال السياسي 22. السياسة والتاريخ 23. الاقتصاد السياسي 24. علم السياسة الجديد 25. علم النفس السياسي 26. تدريس علم السياسة 27. السياسة والأدب والسينما 28. السياسة الخارجية 29. الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي 30. السياسة والدراسات العرقية والإثنية 31. السياسة والتاريخ العالمي 32. الدمقرطة من منظور مقارن 33. حقوق الإنسان 34. البحوث الكيفية والمتعددة المناهج 35. السياسة والقضايا الجنسية 36. السياسة الصحية 37. السياسة الكندية

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 2009/01/15.
<http://www.apsanet.org/content_4596.cfm>

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلما يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تخلف عما عرفه علم السياسة عموما الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهور التحدي النقدي المعياري. لكن مع بادية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضا في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحيص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادايم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركية التحولات البارادايمية إن وجدت في ما اصطلح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرست لبارادايم عقلاني لاحقا. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماسك إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشا بينيا مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أنطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، سيما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقية للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوهر ما ستنصب عليه تحليلاتنا. وحول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين برز فيه "إدوراد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ. كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 'The Twenty Years Crisis 1919-1939'، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوربية بشكل عام، وفي الأسس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنشور عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأديولوجية قد تجاوزها الزمن، فالافتراض الفلسفي المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالية تعوزها الحقائق التي تدعمها، ومعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.[78]

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التلقائي" و"التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضا أن حركة التنوير كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" و"مثالية" "كانط" يرمزان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعا لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بواكير الفكر السياسي الأوربي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيللي" و"هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.[79]

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التنويري، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوربيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" و"الواقعيين"، أو بين "الثوريين" و"المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البنى الاجتماعية والسياسية والتي ورثها من ماض غامض.[80] إذن، فإن على المرء، من وجهة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجهة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.[81]

هذا الخلاف بين "المثاليين" و"الواقعيين" يمكن تأصيله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقوا سقراط، فـ "بياس برين" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيراقليطس" يؤمن بالتغير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطباع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضا، نجد "كزينوفون"

---

[78] Charles A. Jones, '**E.H. Carr and international relations: a duty to lie**' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.
[79] Charles A. Jones, op cit., p. 7.
[80] Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', **Review of International Studies** 27 (04) 2001, p. 612.
[81] Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبنى "أفلاطون"، و"أبيقور" و"ديوجين" من جهتهم النظرة المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستعاود الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدامى" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوربي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكويني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميول الشريرة للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوربيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيللي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية. [82]

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر تنويريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التمييزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهماك المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتثاث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد البحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد. [83]

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبيريسفيث" Aberyswyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

[82] Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
[83] Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.[84]

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أسس الافتراضات الأيديولوجية "للتنوير" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقده هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريدريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيننا، أما "ستانلي هوفمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "برايان شميت" Brian Schmidt.[85] ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المآخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مآخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافا لما تصوره الأدبيات المهتمة بتأريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلة من الليبراليين عموما صاغوا ردودا ممنهجة استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell "ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940 The War for Peace] "ريتشارد كوفينتري" Richard Coventry و"ألفيرد تسيمرن" Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدبيات أيضا حقيقة أن "كار" تأثر كثيرا بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدبيات الوظيفية التي تبلورت لاحقا على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.[86]

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "آنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللافعل وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

---

[84] Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), '**International Relations Theories: Discipline and Diversity**' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.
[85] Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
[86] Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', **International Relations** 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لكبحها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.[87]

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تتهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "ليونارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تتجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكرا لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضا لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.[88]

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوما عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. ولتوضيح ذلك يضرب "آنجل" مثلا بالعبيد، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعيا أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تسند التوظيف العدائي للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.[89]

أما بالنسبة لمآخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوورث" Lucian Ashworth،[90] "جويل كويرك" Joel Quirk و"دارشان فيقنيسفاران" Darshan Vigneswaran"،[91] "بيتر ويلسون" Peter Wilson،[92] وهؤلاء يجمعون في مآخذهم بين الغموض الذي كان يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعليا أم أن "كار" اصطنع سجالا خياليا لبناء الحقل المعرفي لعلم

---

[87] Ibid.
[88] Lucian M. Ashworth, op cit., p .40.
[89] Ibid., p .41.
[90] Ibid.
[91] Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', **Review of International Studies** (31) 2005, pp. 89-107.
[92] Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', **Review of International Studies** (24) 1998, pp. 10–12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش محتدم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصومه المزعومين بـ"الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصومه في حواشي كتبه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميولهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورقينتو" تم تصوريها على أنها تتقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد البحثي الليبرالي.[93]

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ"الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهؤلاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأدل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعفاء، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تفسير آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapolitik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ"نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم ويساهم في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقبع في التخلف والظلام، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.[94]

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقولة الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشوورث" هي بالنفي فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.[95]

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" و"الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفي أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقراط إلى أيامنا هذه. إذن فمنظرو العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذا معنى.

---

[93] Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.
[94] Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p .37.
[95] Lucian M. Ashworth, op cit., p .38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفي، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عدة للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالممارسة السياسية،[96] إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adoloescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحى يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخانيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزيج من الأدبيات غير المتسقة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعة السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظمية ولإيصال هذا التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إيذان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.[97]

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني"- نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرة غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرة المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

---

[96] Peter Wilson, op cit., p. 12.

[97] Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), **'Handbook of International Relations'** (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاما سياسيا لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".[98]

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة -في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلفيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـ اللاعدل والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، ولأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاذه، لم يعتقد "أرسطو" أبدا في إمكان أن يقودنا العقل لـ "الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تنبع منه فالممارسات والقوانين تتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدها الملاحظات تتسم بالخصوصية.[99]

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكال" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدد البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطارحات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلاني (يكفي أن تفكر جيدا لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجدر البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلا من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلهم المحض والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتأى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلهم المحض، كما أن الفكر الاستنباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعاليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدرا للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركهايمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعي قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".[100]

---

[98] Michael Oakeshott, '**On Human Conduct**' (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

[99] لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءا على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل العصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسا جديدا بدخول مفهوم الوحي (المستلهم من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شتروس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توفيقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ "الأكويني" و"أوغسطين"، و"ميمونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, '**Rationality**' (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

[100] Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكال" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكال إلا أن رفض ديكارت الاحتكام إلى" الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفي إلى وجود الله) لقد أحس "باسكال" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيدا في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنتهي"، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكال" المنظور العقلاني لديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسامح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجا إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكال أن الإنسان المثقف قد يكون منقسما بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.[101]

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل المحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلا أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل المحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذرا في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانط بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحديا جديا للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل المحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانط" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادرا على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل المحض يمتلك هذه القدرة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجبر الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".[102]

وهكذا يتبين أن الفلاسفة الأوربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلا النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي عما إذا كان الإنسان يستقي معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكارتيزيين (أتباع

[101] Harold I. Brown, op cit., p. 48.
[102] Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحية بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعة الإمبريقية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعي بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.[103]

هذا الطرح الفلسفي تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، فـ "روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتوافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، فبالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجا للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخفون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحض" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جذري بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريقي ليشمل مجال الفكر السياسي متمحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسبقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجا للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكفاحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفسير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فورييه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستنباط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقا للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكيته العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعني الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعني من جهتها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.[104]

---

[103] Ibid.
[104] Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضا ممن لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعيين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علما، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المسعى "البارادايمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مسعاهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يبطنها "البارادايم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علما.[105]

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية مغمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلى النقاش بين المقاربات المنتمية للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباينة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. فبينما كان "كابلان" واثقا من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقرا والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلا عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكا وتواضعا تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريدية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيا، وقبل أن يتوصلوا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلجؤوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأمريكيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوما بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علما، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضا في أن يكون هذا العلم "نافعا"، لكن نتيجة كلا المسعيين مخيبة للآمال.[106]

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

[105] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.
[106] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهمي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن اقتفاء آثارها لدى أشهر أعلام الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيغل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علميا، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضا كان اشتراكيا يؤمن بالتسيير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثنى على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفييتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذه لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بتخطيط اقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيغل" و"ماركس" بتبنيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفا، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهائية من التاريخ الأوربي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية.[107]

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفييتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بمُثُلٍ كانت حتى عهد قريب مُثلاً عالمية مقبولة وتتمثل في المبدأ الرأسمالي "دعه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفييتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبرى في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشتراكية القومية الألمانية سوى مقته للتقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوربية على طريقة هتلر".[108]

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية للقوى الكبرى، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات القائمة والتي لا يمكن أن تحيد عنها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكيف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تنبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسة من منظور عقلاني، رغم تسليمنا بأن الواقعية عموما تميل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلا، فإن جوانب القوة للقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، فما الذي تعبر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحض المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرة محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبز" لحياة الإنسان باعتبارها

---

[107] Ibid.
[108] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تتسم بالوحدة، والفقر، والدناءة، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلا أنه ليس علينا أن نتقبل هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحض". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، فبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظورا سياسيا محافظا، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.[109]

لم يكتف "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسد في تهجمه الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجرأ خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المثقفين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوربا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في انجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايرا ومناوئا للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هايديقر". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعا نموذجيا بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المتفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تنبع من التطلعات العقلانية الهادفة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.[110]

وحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. ويضيف "بوبر" أنه عندما يدعي الفلاسفة العقلانيون (مثل أفلاطون وهيقل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعا لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

[109] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.
[110] Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.[111]

لقد كان رفض "بوبر" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جدا إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبر" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبر" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكذيب على أسس عقلانية وهو ما يمكن التأكد منه لدى فحص الافتراضات الست التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورقينتو" Hans Morgenthau، المعنون بـ: "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948):[112]

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبعه، حسب مورقينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بمؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدفا في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتأثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوما موضوعيا يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مضامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعاقبة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالي بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضا بالتوتر الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمضامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبدلا من ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

---

[111] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.
[112] Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصرامة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:[113]

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحه النظري يحتمل مضامين عدة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلح على تسميته بالنسخة البنيوية للواقعية لدى "وولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنته الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيادة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمقراطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف دوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تماثل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموع الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحيح أن الواقعية والليبرالية انحنت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافتت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "باراديام" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحيح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيما في إطار النقاش نيو-نيو، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما مما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذا لدخول النقديين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادايمات الثلاث.

[113] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية الستينيات، ظهرت بوادر التحدي البارادايمي "البنيوي" و"النقدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية الستينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتملت في البداية على "بارادايمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "البارادايمي" interparadigm debate اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكل بانكز" Michael Banks.[114]

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالا للفعل وتداول الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية الستينيات كما أنها لم تعد تجد دعما كافيا في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايد وسلبي إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فييتنام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقا إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعنى بالمفاضلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمفاضلة بين "البارادايمات" التي ترعاها.[115]

يصف "بانكز" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل منطلقات مختلفة منذ البداية، فبالنسبة للنزعة الواحدية،[116] لدى الواقعيين، يعتبر المجتمع الدولي نظاما تتفاعل فيه الدول وفق منطق "كرة البيليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوة). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثيرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تنطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيرا، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنيوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"،[117] هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بـ"أخطبوط متعدد

---

[114] إن استخدام مصطلح "البارادايم" آنذاك كان شائعا بفعل الوقع الذي أحدثه عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقا أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك إحجام عن إطلاق وصف النقاش بين البارادايمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقا بارادايما واحدا في مواجهة البارادايم التأملي والبارادايم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف البارادايمات المتعارضة إذا ما اعتمدنا تعريفا مرنا للبارادايم، لفهم أفضل لبوادر النقاش الثالث، أنظر:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), '**International Relations. A Handbook of current theory**' (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

[115] Mark A. Neufeld, '**Restructuring of International Relations Theory**'(UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

[116] أي أنها تحاجج بكون الدولة فاعلا موحدا ووحيدا في العلاقات الدولية، منطق الواحدية mono مقابل التعددية pluri في رصد التفاعلات التي تشكل السياسة الدولية حسب النظرة الأولى والسياسة العالمية حسب النظرة الثانية.

[117] تختلف آراء الباحثين بهذا الصدد فمنهم من يرى أن النقاش يتضمن بالإضافة إلى الواقعية والليبرالية عددا من المقاربات يجمع بينها راديكاليتها ورفضها للعالم كما هو، ليدرج كلا من النقدية لـ "كوكس" والتبعية لـ"كاردوسو" و"سمير أمين". أما البعض الآخر مثل "مارك

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيفة [بلدان الجنوب].[118]

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متسقة داخليا، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كليا عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيرا حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية اللامقايسة مستساغا بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواقعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تنحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء.[119]

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنبا إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنيوية فإن مجال البحث يصبح شاسعا وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحليلا عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنتاج الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل للتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيرا الاستغلال والتبعية لدى البنيويين.[120]

بالنسبة لـ"نيكولاس جـ. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهدارا للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحض الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "البارادايمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثية أيديولوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من الغموض على مفهوم "البارادايم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تنحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقليد البحثي الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسية".
حول هذه النقطة أنظر:

Mark Hoffman, ‘Critical Theory and the Inter-Paradigm debate’, **Mellennium: Journal of International Studies** 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti '**The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory**' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

[118] Michael Banks, op cit., p. 30.

[119] Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

[120] Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية.[121] بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقييم المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تتفيه banalisation مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في واقع الأمر.[122]

لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الوهلة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تتمثل في وجود طروحات متباينة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجدية عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. فخلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيدا للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كادت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منطلقاتها تتمثل في فك الارتباط بالواقع فكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعايش بين برامج بحثية/أو بارادايمات مختلفة كل منها تتلقف جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظريا بشكل ملفت لأنها طورت منطقا داخليا وبناء تصوريا يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجيا وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.[123]

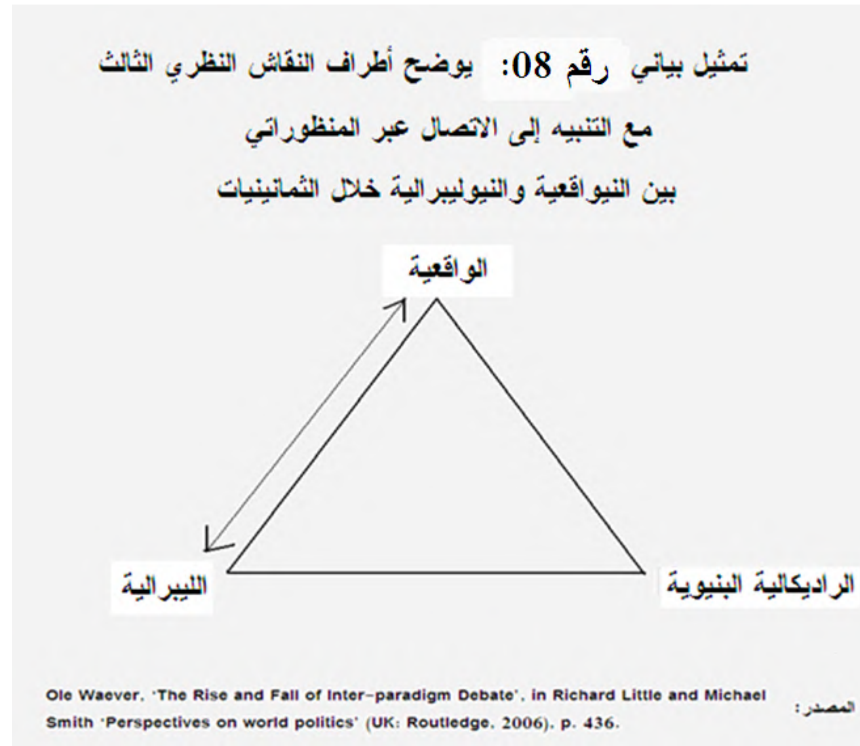
المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيو-نيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتفسيرات لا يمكن دحضها إمبريقيا، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيبا بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

---

[121] Nicholas J. Rengger, '**International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory'** (UK: Routledge, 2000), p. 30.
[122] Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.
[123] Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith '**Perspectives on world politics**' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي بارادايمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"البارادايم الوضعي" عموما في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "بارادايمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكاديمية للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "بارادايم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسليم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجها كل "بارادايم" على حده.[124]



لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تحاورية، فكل من المقاربات السابقة التي وصفت بـالبارادايمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقا خاصا بها لإنتاج الحقيقة truth، ونظرا لتباين الأنساق المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن ابستيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنساق الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "البارادايمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة self-referent.[125] هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيبرنيطيقا

---

[124] Ole Waever, op cit., p. 236.
[125] Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى به عندما تكون لدينا مقاربات عدة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكد بما لا يدع مجالا للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول البارادايمي الأساسي الذي أرسيت أسسه هو التخلي عن المنطق الثوري وعن منطق التحولات البارادايمية نفسه لصالح الفهم اللاكاتوشي أي برامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهقري regressive.[126]

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظللا، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسوارا معرفية حصنت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعنة التقليد البحثي المبني على برامج بحثية مجبرة على تكييف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضا محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني للملاحظة وشرعنته فعليا قبل أن يتم التنظير له تصوريا باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.[127]

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن البارادايم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيو-نيو ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه التركيبي نيو-نيو كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليين) في معظمهم نيوليبراليين مؤسساتيين مع حدوث التحول نيو-نيو، وكانوا بذلك قد اقتربوا من النيواقعيين، فكلاهما يسلم بالفوضى مع فارق أن النيوواقعيين يعتقدون بإمكان مساهمة المؤسسات الدولية في التخفيف من جدة الفوضى، كما أن كلاهما يسلم بوجود ظاهرة الركبة المجانية free-riding pattern والتي تتلخص في وجود دول تستفيد من مزايا التعاون دون المساهمة في تكاليف إرسائه.[128]

ويرى "جوزيف قريكو" Joseph Grieco أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوواقعية والنيوليبرالية هو في نظرتهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

---

[126] Ibid., p. 237.

[127] Ole Waever, op cit., p. 236.

[128] كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، **"فهم العلاقات الدولية"** (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،[129] وبتعبير أكثر تبسيطا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التنافسي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما من منظور النيوواقعية فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافى مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونا التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحقل عبر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنيوية (الينوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني rationalist الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي reflectivist والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنيوي الفرنسي poststructuralism، و"الهيرمونيطيقا" hermeneutics و"الفيتقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.[130]

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد البحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدي البارادايمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأملية التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد البحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحقل عبر تقديمه كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتبنى بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.[131]

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدي البارادايمي المتأتي من "التأملية" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "البارادايم البنائي" بداية التسعينيات مستفيدا من ثلاثة عوامل أساسية:[132] أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركية السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتلقفان هذه الحركية بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأملية وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظريا أو ممارساتيا؛ ثاني العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

---

[129] كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

[130] Ole Waever, op cit., p. 240.

[131] Ole Waever, op cit., p. 439.

[132] لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية أنظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, '**International Relations: Critical Concepts in Political Science**' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة اللامقايسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. فبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة باراديمات [بكل ما تحمله كلمة "باراديم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلا في العقلانية والتأملية.

الفصل الثاني:

أهم التحولات البارادايمية في النقاش النظري الرابع.

الفصل الأول: التحولات "البارادايمية" في العلاقات الدولية-مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيلنا مباشرة إلى تقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالا جوهريا، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساسا، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات البارديمية في شقها الابستيمولوجي، بدء بالتفسيرات التي قدمتها الدراسات التأريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركية العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكاتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فايرآبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات البارادايمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، ويهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات البارادايمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التفسيرات المختلفة لحركية العلم (تطور/تقهقر/قطيعة/ثورة) سيما الثورات الكونية وبرامج البحث اللاكاتوشية.

المبحث الأول: الإطار الابستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعد على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الابستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضا في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يردان في الأدبيات أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تيبولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تندرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضا من مكونات النظريات القديمة لكنها تنتفض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أسسا جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللاخطي"، أي المتأرجح بين طرق عدة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تيبولوجيا لا تختلف كثيرا عن تيبولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع للمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموما، ستساعد هذه التيبولوجيات، على الرغم من غموضها أحيانا، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و1857، لكن تأثره بالنزعة الوضعية التي كانت في أوجها خلال القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.[133] وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكييفها مع مسلماته الاستقرائية.[134] لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستيوارت ميل" نفسه توقف عند التناقض الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقراء وبالنزعة الإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملكات الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تنم عن التعالي العقلي.[135]

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التأريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعا مهما جدا من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميدانا من ميادينها في إطار "تأريخ العلم" historiography of science. وقد تطلب الأمر قرنا كاملا لتقديم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاها لم تكن لتخرج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتكملها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "ارنست نيجل" Ernest Nagel في كتابة: "بنية العلم" (1961) لتؤكد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.[136] وهو الطرح الذي أيده لاحقا "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالي، قوامه قابلية النظريات للتكذيب وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.[137]

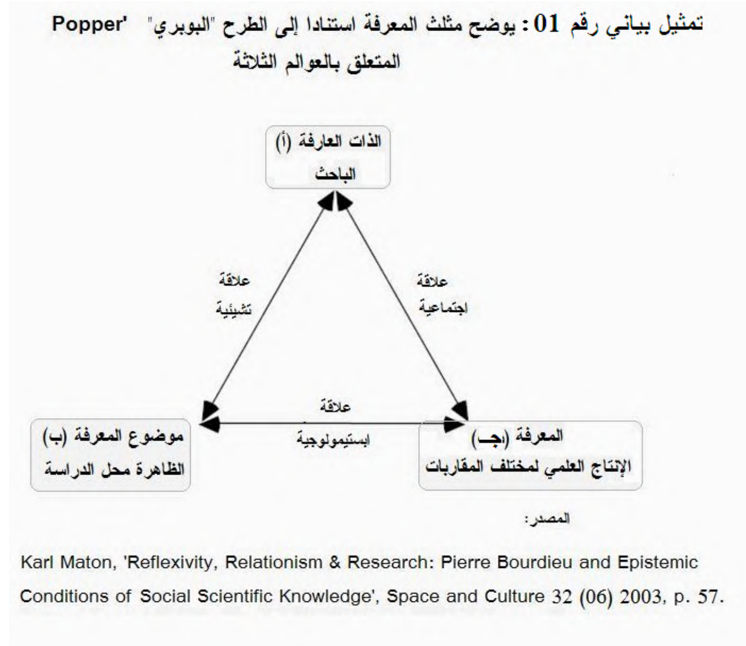
---

[133] John Losee, '**Theories of Scientific Progress: An Introduction**' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.
[134] Ibid., p. 17.
[135] Ibid., p. 19.
[136] Ernest Nagel, "**The Structure of Science**" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.
[137] كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "**بحثا عن عالم أفضل**" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.

يستند الطرح "البوبري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:[138]

- **العالم الأول**: ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضا الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساسا على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني**: ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات العارفة؛
- **العالم الثالث**: ويشتمل على كل ما أنتجته الذات العارفة أو الدماغ البشري من معارف لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبر" كل النظريات العلمية والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعله مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبر" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني ويخضع للتمحيص والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونمائها.

تمثيل بياني رقم 01 : يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبري" 'Popper' المتعلق بالعوالم الثلاثة



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايسة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيقة والناشئة، بسبب استخدام تصورات بمضامين مختلفة وأدوات قياس متباينة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكاتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكاتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسع مجال النظرية لتضمين

---

[138] Margaret Scotford Archer, '**Structure, agency and the internal conversation**' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهكذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.[139] وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أتت تباعا، وهي التي تشكلت أساسا من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقيا للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنيوية لدى "وولتز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتا.[140]

ظلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تأريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين" Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعاب على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلصق بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.[141] المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مسارا لا تتلقفه النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلانية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضمونا مقيدا ومنهجيا، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استنباط الفرضيات واختبارها وفق منطق جديد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلا عن أنهما يرسمان أهدافا متباينة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.[142]

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جذري بل قد تقود مظاهر الخلل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتنقيحات تصورية عبر تفاعلها مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (للباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.[143] وقد ذهب "نيكولاس ريشر" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية-التنقيح، تؤكد على مواطن

---

[139] Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.
[140] Stephano Guzzini, "The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations", **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004, pp. 538-539.
[141] John Losee, op cit., p. 65.
[142] Ibid., p. 69.
[143] Ibid., p. 82.

القوة المنهجية وتضيف عليها بينما تستبعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.[144]

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدم العلمي باعتباره تقربا مستمرا من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى رده على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر وضوحا، وهي أن التقدم ينصب على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.[145] لكن هذا الطرح متأثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems، وهي سمة بارزة في ظل تشابك المصالح وتعقد المشكلات. ولتفادي الانتقال الكلاني من نموذج لآخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جذري، رغم أن ذلك ليس ضروريا، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكميا في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيتشر" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العملي (تحسن فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسيطية) وأخيرا، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التيبولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عددا من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدم العلمي:[146]

5. **التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي** Inductivism: الذي تنضوي تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛
6. **الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي** Conventionalism **والذرائعي** Instrumenalism: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشييد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتفق مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسيطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحيين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تتسم بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعة التبسيطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضا esthetic، إذن فالمفاضلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "لاكاتوش" وفي مآخذه على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يحققها معيار البساطة.

[144] John Losee, op cit., p. 105.
[145] Ibid., p. 120.
[146] يمنى طريف الخولي، **"فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية"** (الكويت: عالم المعرفة: 2000)، ص ص. 414-415.

7. **القابلية للتكذيب لدى الاتجاه البوبري- Falsifiability**: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدوس الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقدم العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفنيد التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفسح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدوس أكثر جرأة وابتكارية تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتكذيب لدى "بوبر" وثوراته المطردة جاءت بفضل "لاكاتوش".
8. **تنافس البرامج البحثية لدى الاتجاه اللاكاتوشي**: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقبا لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدميا في حين ينتكس البعض الآخر.

وسيتم التفصيل في أهم الطروحات السابقة عبر التركيز على التأريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيرا من منظور "الفوضى المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطروحات التي بثت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بنى "كون" تصوره على أعمال "كارل بوبر" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالا من نموذج قياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.[147] ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسته حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تفادي النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحينها سوف يحدث تاريخ العلم تغييرا جوهريا في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماما سيما إذا تحاشينا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن نتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بنى عليها مفهوم اللامقايسة أو اللاقياسية).[148]

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التأريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعطى الحالي غير مجدية لأن هناك تمايزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات،

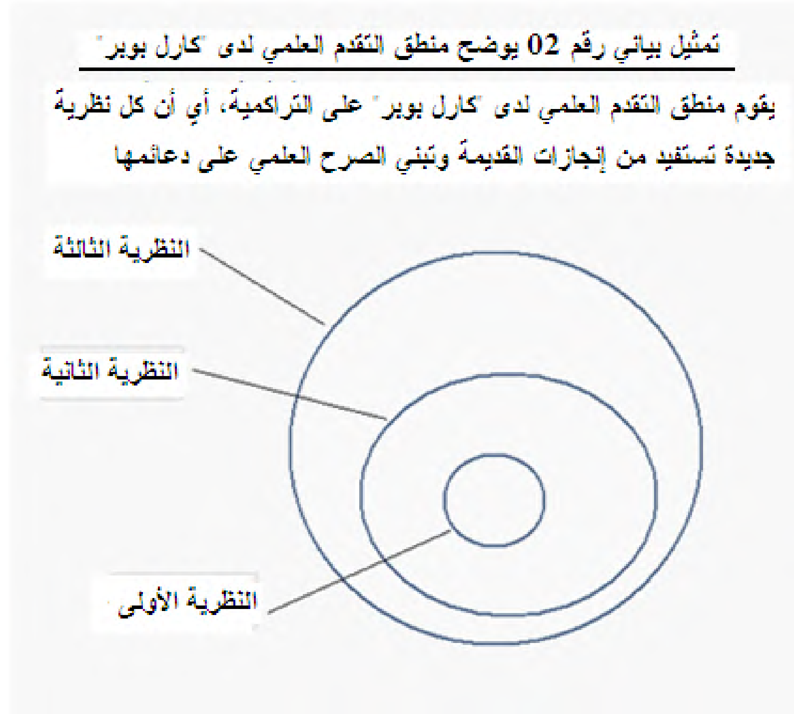
---

[147] "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" (1952-1956)، جامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساتشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم.

[148] Ronald N. Giere, '**Science without laws**' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بديهيا، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.[149]

لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق التقدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطي، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. ويبدو أن "كون" وخلافا لسلفه "كارل بوبر" يتحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطا قاسية لذلك.[150]



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يلتزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

---

[149] Ibid., p. 38.
[150] Ronald N. Giere, op cit., p. 38.

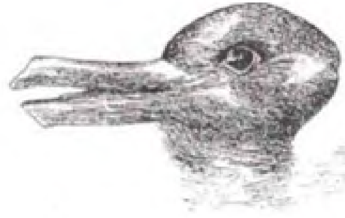
- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التنقيح والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

- ما الذي يجب ملاحظته؛
- ما هي الأسئلة التي يتعين طرحها؛
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؛
- كيف يمكن قراءة وتأويل النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير استطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أدناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأرنب، ويماثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أرنب)



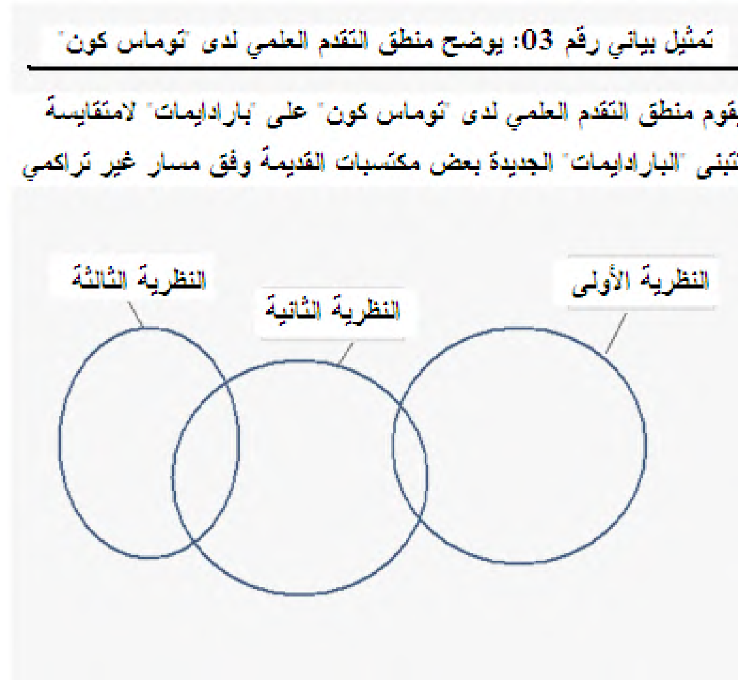
فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متباينة تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "عالم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهتم بدراسة الظاهرة ذاتها.[151]

يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الوهلة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسليم بنموذج قياسي إرشادي يهيئ الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن

---

[151] Stephen Walt, '<u>International Relations : One World, Many Theories</u>', **Foreign Policy** (Spring) 1988, pp. 29-45.

النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوبر" في تصوره: "القابلية للتكذيب" falsifiability، فالعلم ينمو في مراحله العادية من خلال "تفكيك الأحاجي" puzzles التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعا وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على نجاح المشروع العلمي برمته، لكنها تفتقد لأية ابتكارات جوهرية فلدى سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.[152]



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادية normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهيئين للتعامل معها، ذلك أن "البارادايم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكلل بتعديل "البارادايم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادايم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادايم" نفسه يحوي بذور أفوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكرر والمطرد فالمبالغة في ذلك تعني أن "البارديم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويماثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطويرها لحقل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال

---

[152] Patrick James, '**International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered**', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.

النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "وولتز" Waltz و"راقي" Ruggie.[153]

في سياق التنقيح "البارادايمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعى البحثي غير تراكمي، ولتوضيح الأمر نعود إلى التصور "البوبري": القابلية للتكذيب. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضا على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكذيب من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنبا إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه –في حال نجاحه- بـ التحول البارادايمي paradigm shift.[154]

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها الديزل والطائرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسيير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقنص والتفجير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحاليا يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات البارادايمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول البارادايمي قبل الإحالة على المضامين الأكثر تجريدا عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولا في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت تراكمية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.[155] في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلى ذلك في إخفاق "النيوواقعية" و"النيوليبرالية" في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنهما نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

---

[153] Patrick James, op cit., p. 128.

[154] توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، **'بنية الثورات العلمية'** (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.

[155] توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.

لقد أتاح ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تتمتع بصلاحية إمبريقية أكبر، وهذه "البارادايمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبنت نظرة للعالم worldview متوائمة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إذن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلا متميزا، كما أنها تمثل تطورا نوعيا بل وربما قطيعة معرفية بمفهوم "باشلار" Bachelard.[156] إذ أن "البارادايمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطائنا فهوما، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـ silences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكاديمية Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "البارادايمات" على منافساتها فإنها ستهيمن على الحقل في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإخفاق في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويدنا بها، وعندما يصعب التخفيف من حدة هذه الأزمة عبر تنقيح "البارادايم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (بارادايم) جديد، والذي ينطوي أيضا على تغيير في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به البارادايم الجديد والقديم غير متيسر، فكل منهما يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضا، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقايسة Uncommensurability، فعندما نكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علميا، فضلا عن أن النظرية تقاس بالسياق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فلكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدة من "البارادايم" الذي تم تفعليها فيه.[157]

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "بارادايم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "البارادايمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (البارادايم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكاتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكاتوش".

[156] لمزيد من التفصيل في مفهوم القطيعة المعرفية لدى "باشلار" أنظر: محمد عابد الجابري، **'مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي'**، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.
[157] توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

إن اهتمام "إمري لاكاتوش" (1922-1974) بمجال التأريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".[158] وهي المقولة التي صاغها عن طريق تعديل قول "إمانويل كانط" المتواتر: "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء"، وهنا يشبه وقائع تاريخ العلم بأنها محض مدركات عمياء، ونظريات فلسفة العلم محض تصورات عقلية فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدهما من دون الآخر.[159]

تأثر "لاكاتوش" في أعماله بفلسفة العلم سيما نظريته في المنهج (الميثودولوجيا) لكنه منحها فعالية وحركية تاريخية. غير أن أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "ميثودولوجيا برامج الأبحاث العلمية"، فقد جاءت متأثرة بمفهوم "النماذج الإرشادية" لدى "توماس كون" وأيضا "الإستراتيجيات العقلية" عند "ستيفن تولمن".[160]

ويعتبر الحديث عن البرامج البحثية اللاكاتوشية وأهم رؤى "لاكاتوش" في هذا الشأن منقوصا قبل المرور على إحدى المفاهيم الابتكارية التي جاء بها وهي: تكذيب الفروض refutation، حيث يصر "لاكاتوش" على اعتبارها الخاصية المميزة للنظرية العلمية -وخلافا لما ذهب إليه "بوبر"- فإن النظرية العلمية ما يميزها ليس قابلية التكذيب المتضمنة فيها بل الأصح هو عدم إمكانية القيام بذلك.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهيم-كواين" Duhem-Quine Thesis:[161] تنص هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويلها بالنسق العلمي الذي تولدت فيه هذه الفرضيات؛ ثانيهما، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال أثبتت القرائن الإمبريقية خطأ إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطو أية خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهيم-كواين" بدلا من ذلك تصورا آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاكاتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي الافتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكذيبها بواسطة الاستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من الافتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان

---

[158] إمري لاكاتوش Imre Lakatos (1922-1974) من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجري لقبه الأصلي "ليبشوتز"، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

[159] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 409.

[160] المرجع نفسه.

[161] Donald Gillies, ‘Lakatos’ Criticisms of Popper’, in George Kampis et al. (eds.) ‘**Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man** (US: Springer, 2002), p. 15.

لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برامج البحث" يتيح للنظرية التعامل بإيجابية مع عالمها دون الخشية من أن تنهار بفعل اختبارات سلبية.[162]

في حقل العلاقات الدولية تماثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "لاكاتوش" negative heuristic أي أنها محصنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعنيين يعبرون عن انتمائهم لهذا البرنامج البحثي Scientific Research Program، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى برنامج بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدفاعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكاتوشي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديلها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويماثل ذلك الواقعية الدفاعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمن).[163]

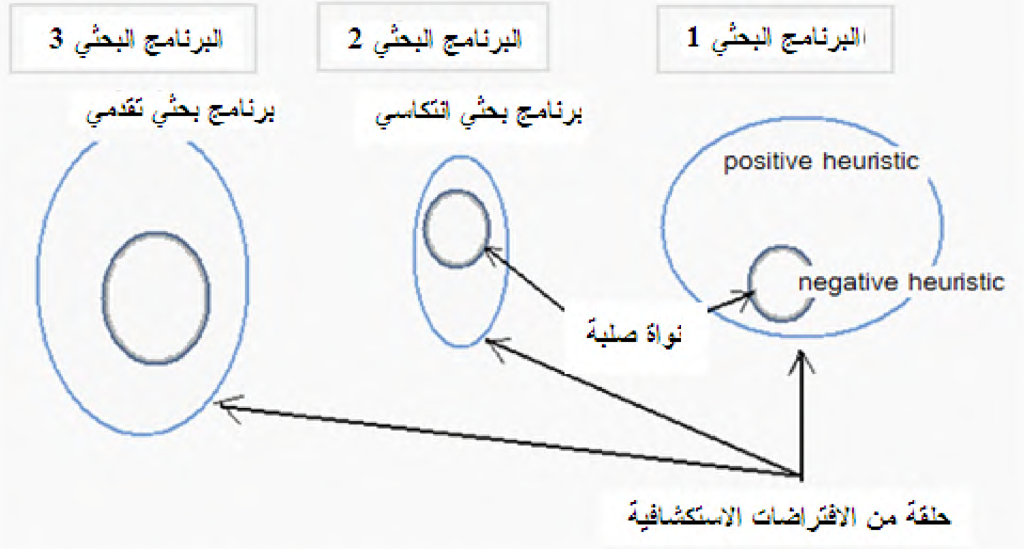
---

[162] Donald Gillies, op cit., p. 16.

[163] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, 'Apprasing Progress in International Relations Theory: An Introduction', in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

تمثيل بياني رقم 04: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "إمري لاكاتوش"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "لاكاتوش" على افتراض مفاده أن البحث العلمي مهيكل في إطار برامج بحثية تتكون من نواة صلبة محصنة ضد التكذيب وحلقة من الافتراضات الاستكشافية الخاضعة لمقياس الاختبار



البرنامج البحثي الذي تتوسع حلقة افتراضاته الاستكشافية يصبح تقدميا (الواقعية مثلا)

أما البرنامج البحثي الذي تضيق فيه هذه الحلقات فيصبح انتكاسي (النيوماركسية مثلا)

إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدفاعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدفاعي Defensive Realism /"الهجومي" Offensive Realism لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكاتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتمين لهذا البرنامج ليسوا مضطرين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "البارادايم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكاتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift، وهي الطريقة الوحيدة لحماية، ليس النظريات فحسب من الصعود والسقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية.

وهنا يوضح "لاكاتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].[164]

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنتكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحزام الدفاعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبات باتجاه تحصيل المزيد ميدانيا، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراوحة مكانها فإما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهار النظرية لأنه يفترض بهذا الحيز أن يكون بمنأى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.[165]

إذن، فـ "لاكاتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متوالية من برنامج بحث أصبح منتكسا، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الواعدة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقييم مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرقا لحل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثودولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإبستمولوجي الذي هو تطور عقلاني خالص".[166]

لقد حقق تصور "برامج البحث" لدى "لاكاتوش" نجاحا باهرا في الأوساط الأكاديمية، سيما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظرا للصعوبات التي اكتنفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجندر، البنائية،...). التعايش، إن صح التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "البارادايم" المنتكس أو المتقهقر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جدا، فإما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقا بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" و"قاليليو" إلى "النيويتينية" وصولا إلى "النسبية" وأخيرا "ثورة الكوانتوم" وهي المحطات التي بنى على ضوئها "كون" نظريته).[167]

---

[164] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

[165] Ibid.

[166] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 414.

[167] John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003)**,** pp. 420-422.

غير أن ذلك لم يكن حائلا دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلا حديث "لاكاتوش" عن البرامج البحثية الواعدة التقدمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتجد نفسها في موقع دفاعي، كان معيارا تصنيفيا جيدا، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكاتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن نبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على ضوئها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكاتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متتالية يعد كافيا للحكم عليه بالتقدمية.[168] غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكاتوشي للتحولات المعرفية تتمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلانية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا تربطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكاتوش" على حد سواء.

المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فايرآبنت".

تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فايرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة".[169]

---

[168] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

[169] لفهم أعمق لمطارحات فايرآبنت، أنظر بالأخص: باول فايرآبنت. ترجمة: محمد أحمد السيد. **"ثلاث محاورات في المعرفة"** (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).

تمثيل بياني رقم 05: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "باول فايرآبنت"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "باول فايرآبنت" على افتراض مفاده ألا ضرورة لوجود مكونات قديمة في النظرية الجديدة، التقدم وفق مسار "لا خطي".



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مسعى فوضوي" Anarchic Enterprise، إذ لا يجدي نفعا تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية.[170]

وكانت أسانيد "فايرآبنت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره القائلة بأن الصرامة المنهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيدا في رؤى "فايرآبنت" لا نجدها داعية إلى الفوضى المنهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحاته، بل هو مناصري "التعددية المنهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تفتي بما يجوز من دونه منهجيا لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القداسة بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآبنت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تنطوي على نظرة ديناميكية للقيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريا للحكم بالتقدمية أو الانتكاس مثلا، لكن من منظور "فايرآبنت" سيتعين أولا مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

[170] Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, **'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox'**, (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانتكاسة، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.[171]

لقد ذهب "فايرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماما مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعددية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فايرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضا بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعليا عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تنميط المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يكمن في علمنة للعلم تماما مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنساق عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرتها التحليلية، فضلا عن أنها ليست خاطئة قياسا بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فايرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنساق العقلانية المختلفة لامتقايسة incommensurable. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحتكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فايرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيتقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "العبة اللغة" language game، ما يميز شكلا عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تنبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيتقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة والعلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

[171] Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسية والتفسير "الكوني"-"اللاكاتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لتخصص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات البارادايمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لنقاشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتميزة.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تأريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هايسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد التالية:[172]

- محاولة شرعنة البارادايم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحى آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعاقبة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كتخصص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بسعي إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:[173] مرحلة سيادة "النزعة الدولاتية" State-centred (التمحور حول الدولة وجعلها مرجعية للتحليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بواكير سعيه لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعة التعددية" Pluralism: وقد برز هذا التوجه

---

[172] Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimation, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

[173] John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبا باهتمام التحاليل السياسية بفواعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعة السلوكية" Bahavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية الستينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثا بـ "بريسترويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعددية" و"السلوكية" استطاعتا إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "الاكاتوش". ويحاجج "دريزك" بأن سر نجاحهما هو عدم تعرضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.[174]

إن الهدف المتوخى من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندة جديدة للبحث على أنقاض الأجندة التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ "دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكاتوشية" مثل "الوظيفية البنيوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" و"سكوكبول" Pierson وSkocpol مع وجهة النظر هذه ويرتأيان أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة بارادايمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" و"العقلانية" و"المؤسساتية".[175] لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقا ضمنيا بين الطرحين، فـ "دريزك" يتحدث عن نجاح مسعيين لإحداث تحول "بارادايمي" في الحقل وهما: الدولاتية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندة الحقل بشكل كلي. والتوافق الضمني هنا يكمن في أن المؤسساتية امتداد للنزعة الدولاتية بينما تنطوي الاثنتين على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات البارادايمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولاتية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداء من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولمبيا الأمريكية عام 1857، وصولا إلى "وودرو ويلسن" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، وخلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" و"مواطنة فاضلة".[176] وقد تبنى

---

[174] Ibid.

[175] David D. Laitin, '<u>The Political Science Discipline</u>', in '**The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics**' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.

[176] John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكاديمية تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "وولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"وودورو ويلسن" في الولايات المتحدة.[177]

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلح على تسميته بالنقاشات الدستورية بين "الفدراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسن" لم يكن وحيدا في تصوره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لناخبين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتعكف على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة دأبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبية والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مُؤلف "ويلسن" نفسه المعنون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.[178]

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة –فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمتع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناو" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحيانا تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدولاتية إلى محاصرتها، تماما مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".[179] يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوستن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندة البحث وأجندة الباحثين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.[180]

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدولاتية [الدستورية] كانت لديهم مآخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ "التعدديين" pluralists [المنادين بتعدد الفواعل المشاركين في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة]، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ"التعددية" pluralism الذين طالما وصف أتباعها بـ"الهواة" في

---

[177] David Boston, 'The Political Science in the United States: Past and Present', in David Easton et al. (eds.), '**The Development of Political Science: A Comparative Survey'** (UK: Routledge, 1991), p. 276.
[178] John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[179] Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[180] David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولاتيين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحقل، لم يكونوا بأسوأ حالا في هذا الجانب من "الدولاتيين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعا لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقفي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تنطوي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحتة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعدية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولاتي" State-based.[181]

لقد اتسمت المنهجية في هذه الفترة –فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دايفيد بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالا غير رسمي، وهو نوع من التناقض فـ"الدولاتية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن المنهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولاتيين الكلاسيكيين "المحترفين" أو للتعديين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحا للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسنى لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدما وفي وقت مبكر.[182]

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان البحاثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائما حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولاتيين يتمثل في النزعة التعددية.[183]

المطلب الثالث: أول تحدي بارادايمي في حقل علم السياسة-البارادايم التعددي.

خلافا لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاوتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادايم بل من داخله، فـ "بيقهوت" و"ويلسن" كانا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطا معتبرا على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلا على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجوعات الضغط الناشئة.[184]

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولاتيين" يقرون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتعين حلها لا وضعية ينبغي تثمينها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

---

[181] Ibid.
[182] David Boston, op cit., p. 276.
[183] Ibid., p. 277.
[184] Ibid.

بنتلي" Arthur Bently المعنون: "عملية الحكم" The Process of Government والذي يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقا بعنوان: "صانوا القرار، المعنيون بالقرار والمتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبَر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "تشارلز ميريام" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينيات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز التحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.[185]

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنزيف مع فقدانه للتحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقديس الدولة استمر خلال العشرينيات لأنها كانت تلبي تطلعات معيارية،[186] منها صعود التيارات القومية في أوربا.

غير أن التعددية المعيارية أضحت تحتل حيزا متزايدا مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفة "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقا حصريا لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرقا عدة يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشفاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من للقاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العكسي من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولاتيين" في تقديسهم لدور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالا مهما للدولاتيين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولاتيين قدموا إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالته".[187]

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولاتيين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقيا، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجيا بالأساس، وإلا لكانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظرا لثوريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتجاذبة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجاذب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغوط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.[188]

لقد حاول "دريزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينيات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقية الوحيدة التي

---

[185] John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[186] Ibid.

[187] التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعديين) ليس التعددية الحزبية التي تعتبر ركيزة الديقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الاكتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدي تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، أنظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[188] David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعة لتعددية" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (ووسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعددي ينطوي على بعض الصحة.[189]

لكن، وحسب "دريزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشفاف وجود تقارب كبيرا بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ"الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعددية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدديين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحهم هذا لم يحض بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبناة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.[190]

المطلب الرابع: التحول البارادايمي الأول في علم السياسة–السلوكية-

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "البارادايم الدولاتي"، ومع إخفاق "البارادايم التعددي" في تحويل أجندة البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "البارادايم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "البارادايمات" السابقة. وهكذا فقد تبنى "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعددية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقبع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية الستينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكية، وأعطى ذلك انطباعا بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجندة البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورقنتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكوا الأوساط الأكاديمية بانتقاداتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبهم للتأصيل النظري والتوجيه المنهجي.[191]

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكية ثورة معرفية، فضد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطاب الثوريين يتحدث عن توجيه ثورتهم المعرفية ضد "علم السياسة التقليدي" الذي يعتمد المنهج التاريخي والمغالي في واقعيته حسب "دايفيد إستون" David Easton؛ لكن من هم الباحثون الذين وسمت أعمالهم بـ"التقليدية"؟ ذلك سؤال لم يجب عنه السلوكيون الذين ظلوا صامتين

---

[189] John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[190] Ibid.

[191] Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), '**Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880**' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلوا من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية.[192] وهو وضع يختلف كثيرا عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذا في الأوساط الأكاديمية وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.[193]

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعددية كمنطلق أنطولوجي والتخلي عن الأحادية الدولاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنيتهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.[194]

يعتبر "دايفيد إيستون" من خلال كتابه المعنون: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكي، ويمكن استشفاف نقمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائيي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالا فكريا كبيرا، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمغالاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسقة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسقة.[195]

تأكيدا لتمسكه بموقفه أصدر "إيستون سنة 1984 مؤلفا آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكيد على مزاعمه أشار إلى "بنتلي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلا حقيقة أن "بنتلي" اختفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتلي" نفسه تحول إلى واحد من المتحمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكي في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

---

[192] John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[193] للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية أنظر:

Friedrich Kratochwil, '<u>History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory</u>', **European Journal of International Relations** 12 (01) 2006. pp. 5-29.

[194] Robert Adcock, op cit., p 189.

[195] تعتبر مسألة غياب خصوم للثورات المعرفية التي نجحت في تحويل أجندة الحقل أهم نقطة ركز عليها "دريزيك" في مقاله ولتأكيد وجهة نظره هذه فهو يشير إلى أن "إيستون" في الفصل الثالث من كتابه: "النظام السياسي" حاول تقديم نموذج عن خصومه فأشار إلى "جيمس برايس" James Bryce رغم أن كتابات هذا الأخير تعود إلى نصف قرن مضى، أما في الفصل العاشر، فقد انتقد "إيستون" لجوء منظري علم السياسة إلى تاريخ الفكر السياسي لكنه لم يجد من يدينه بذلك سوى George Sabine. أنظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصيا، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسساتيا.[196]

لقد خلص "دريزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقيضا آخر لـ "النزعة العلمية" التي يدعي "السلوكيون" الدفاع عنها أو أية مقاربة أخرى. فميدانيا وعلى صفحات الدوريات لم يكن هناك باحث واحد في معسكر "المناوئين للنزعة العلمية"، حيث أن مثل هذا التوجه كان على الدوام توجها هامشيا في الحقل المعرفي لعلم السياسة، وهو ما تأكد قبل نصف قرن من ظهور السلوكية نفسها، أي لدى تأسيس APSA عام 1903، حيث أشار مؤسسوها إلى أن أحد أهداف APSA هو: "تشجيع الدراسة العلمية للسياسة". وطالما أن السلوك، والعلم، والتعددية والنظام هي أهم سمات "السلوكية"، فإنه لا مبرر لاعتراض التقليديين عليها، ذلك أن بحوثهم لطالما تناولت السلوك على المستوى الفردي سيما خلال الثلاثينيات والأربعينيات. وحتى الباحثين الذين لم يدرسوا "السلوك" لم يبدوا اعتراضا على القيام بذلك. لقد كانت "النزعة العلمية" قائمة حتى قبل مجيء "السلوكيين"، إذن ما الجديد الذي جاءت به السلوكية؟ فحتى تصور النظام السياسي الذي جاء به "إيستن" قدم مصطلحات جديدة (المدخلات inputs، المخرجات ouputs، والارتداد الارتجاعي feedback)، ولكنه لم يزودنا بنظرية جديدة شاملة لعلم السياسة. إن الجديد الذي جاءت به السلوكية ويجعل منها ثورة معرفية غير مسبوقة إحداثها تغييرات جذرية في توجهات قائمة سلفا في علم السياسة، هذه المجالات المنتقاة هي السلوك، العلمية، التعددية، الوصف مقابل التفسير في الجوانب النظرية. بدء بالسلوك، حيث اعتمد السلوكيون على الدراسات المسحية التي تستند إلى مجتمع إحصائي أوسع، كما عمد إلى زيادة وتيرة الدراسات الكمية التي تصدرت صفحات الدوريات العلمية الرئيسة في التخصص.[197]

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"البارادايم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في غمرة الفوضى التي تخبط فيها نهاية الستينيات، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فييتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أفريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوئ لليبرالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فوقلين" "هانا

---

[196] في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مآخذه على التقليديين مثيرا خلطهم للحقائق والقيم، وإطنابهم في وصف الظواهر السياسية دون تقديم تفسيرات وافية، يضاف لذلك كله إسهامهم بالقليل من النظريات الفضفاضة، وانتهى "إيستون" إلى اعتبار كتاب "القوى المتوازية" لـ "ميرل فينسود" Merle Fainsod بمثابة النظرية غير المعلنة لـ "التقليديين". ومعروف أن فينسود في كتابه هذا حاول تفسير عملية صنع السياسة بالقول أنها محصلة تفاعل قوى تدفع في اتجاهات مختلفة. وإذا كان هذا هو جوهر علم السياسة التقليدي في هذه الفترة، فلا يبدو هناك أي مبرر إذن ليدخلوا في سجال مع السلوكيين، وأكثر من ذلك فإن صاحب هذا المؤلف (فينسود) أصبح لاحقا رئيسا لـ APSA في ذروة هيمنة السلوكيين، بل وساهم هو نفسه عام 1968 في الحفاظ على انتصار "البارادايم" السلوكي بصفته رئيسا لـ "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA عبر تضييق الخناق (بطريقة ذكية ودفاعية) على "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" Caucus for a New Political Science من خلال وضع شروط معينة للمشاركة في المؤتمر السنوي لـ APSA تستبعد المنخرطين في مسعى تجديد علم السياسة، أنظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[197] John S. Dryzek, op cit., p. 490.

أرنت" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محايدة قيميا كما تدعي بل إنها جعلت من علم السياسة أداة للحفاظ على الوضع القائم status quo.[198]

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجيا على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حدتها مطلع الستينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئين لهم والذين كانوا مهمشين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاههم تنامى، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التقليديين ذوي النزعة التاريخية"، بل من باحثين يطالبون بدور إيجابي لعلم السياسة، من خلال إعطائه لمسة نقدية وتوجيه اهتمامات الباحثين نحو قضايا المجتمع.

المطلب الخامس: التحدي البارادايمي الأول للسلوكية-"المؤتمر من أجل علم سياسة جديد".

مع تصاعد حدة الانتقادات التي طالت السلوكية فقد جاء المؤتمر السنوي لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" سنة 1967 فرصة لمأسسة الاتجاه الذي أصبح يعرف لاحقا من طرف رواد السلوكية وعلى رأسهم "دايفيد إيستن" بـ "ما بعد السلوكية" post-behavioralists، غير أن المنتسبين إلى هذا الاتجاه النظري الصاعد يفضلون نعت أنفسهم بـ المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" CNPS. بداية التصادم بينهم وبين المدافعين عن التقليد البحثي المهيمن آنذاك (السلوكيين) كان بسبب استحضار السلوكيين الذين ظلوا مسيطرين على أهم المناصب في APSA طيلة الستينيات، للمادة الثانية من دستور APSA،[199] لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة من زاوية اتخاذ مواقف بشأنها سيما حركة الحقوق المدنية للسود وحرب فيتنام. ورغم أن هذه المادة لا تنص على منع أعضاء APSA من مناقشة القضايا العامة إلا أن تكييفها كذلك من طرف السلوكيين الذين هيمنوا على المناصب الإدارية للجمعية، أقنع مناهضيها بضرورة إيجاد إطار تنظيمي يحمي وجهات نظرهم من "التسلط السلوكي". وفعلا، فإنه وبالموازاة مع مؤتمر APSA عقد هؤلاء مؤتمرهم بحضور 225 حيث انتخبوا "تشارلز ماكوي" رئيسا لـ CNPS.[200]

وقد قدم المؤتمر مرشحا لرئاسة APSA وضم في صفوفه قائمة من أبرز باحثي علم السياسة آنذاك ولفترة طويلة مثل "سيمور مارتن ليبست" Seymour Martin Lipset، "بيتر باكراتش" Peter Bachrach، "كريستيان بي" Christian Bay، "تيودور لوي" Theodore Lowi، "مايكل برينت" Michael Brent، ، "شيلدون ولين" Sheldon Wolin، كما تضمنت القائمة أيضا وجها بارزا في تخصص العلاقات الدولية: "هانتس مورقنتهاو" Hanz

---

[198] NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science', **New Political Science** 29 (04) 2007, pp. 501-502.

[199] تشير المادة الثانية من دستور APSA إلى أن الجمعية: لا تلزم أعضائها باتخاذ مواقف إزاء قضايا السياسة العامة إذا كانت هذه القضايا لا تمس بشكل مباشر المقاصد التي وجدت الجمعية من أجلها. هذه المادة تم تكييفها بطريقة غريبة من طرف مسيري APSA لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة في مؤتمراتهم السنوية.

[200] NPS Caucus, op cit., p. 502.

Morgenthau والذي كان من بين المعارضين للحرب في فيتنام، فضلا عن "إدوارد سعيد" Edward Said و"نعوم تشومسكي" Noam Chomsky.[201]

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكاديمية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكي". ولتسويق طرحهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تغطية ما يرونه جوانب قصور في "الاتجاه السلوكي": حيث توجهوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمات السياسية لتلك الفترة، كما طالبوا بعلم سياسة يتخذ موقفا جماعيا موحدا من القضايا السياسية المثيرة للجدل مثل: حرب فيتنام، التمييز العنصري، والفقر، إضافة إلى قضايا البيئة والمرأة. ولاحقا تمكن هؤلاء من الحصول على تمويل يسمح بإجراء بحوث حول قضايا ملحة أخرى مثل: الإيدز العلاقة بين حقوق الإنسان، والديمقراطية والرأسمالية، الحرب على العراق الجوانب العرقية والجندرية والطبقية للسياسة العامة.[202]

لم يبد هذا "البارادايم" الصاعد حنقا تجاه "العلمية"، حيث أنه ركز توصياته على ضرورة إعادة ترتيب الأولويات لتكون "العلمية" في المرتبة الثانية بعد الالتزام بقضايا المجتمع من جهة ومدى الصلاحية الإمبريقية للأبحاث التي تجرى باسم علم السياسة. وبرروا موقفهم هذا بكون مسألة تفسير السلوك السياسي لا تشكل حقيقة مركز الثقل المعرفي في علم السياسة. ولأجل ذلك سخر أعضاء المؤتمر أكثر جهودهم لمسعى إصلاح APSA، وقدموا مرشحين لمنصب الرئيس ولعضوية مجلس الجمعية، لكنهم أخفقوا في الحصول على الرئاسة رغم نجاحهم في الاستحواذ على بعض المقاعد في المجلس. وتجدر الإشارة إلى أن بعض رواد "المؤتمر" من أمثال "تيودور لوي" Theodore Lowi، و"أيرا كاتزنيلسن" Ira katznelson، تمكنوا من الحصول في فترات لاحقة على منصب الرئاسة باعتبارهم مرشحين رسميين.[203]

استطاع السلوكيين إلى حد ما احتواء نقمة التيار "ما بعد السلوكي" خاصة في النقطة المتعلقة بعدم ميل "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" للتهجم على النزعة العلمية، حيث عمل "دافيد إيستون" على التخفيف من حدة التوتر بين "السلوكيين" و"المؤتمريين" من هذه الزاوية، إذ خلال مداخلته له أمام APSA عام 1969 بصفته رئيسا للجمعية تحدث عن "ثورة جديدة في علم السياسة"، بإمكانها أن تجعل التقنيات التي طورها "السلوكيون" و"نظريته للنظم" على حد سواء في خدمة المشكلات الاجتماعية. لم ينجح "إيستون" في ردم الهوة بين المعسكرين، إلا أنه نجح في إرساء تخصص ثانوي في علم السياسة وهو السياسات العامة. وهكذا ظل السلوكيون في إطار APSA متشبثين بمقاومتهم للتغيير الذي بشر به "المؤتمر من أجل علم سياسة جديدة"، إلا أن ثقتهم في النفس قد تزعزعت كثيرا، وهم الذين استماتوا في مقاومة تسييس "حقل علم السياسة"، وهي

---

[201] Ibid.
[202] NPS Caucus, op cit., p. 503.
[203] John S. Dryzek, op cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".[204]

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجندة البحث في علم السياسة، والتالي مدى نجاحه كثورة معرفية، فلدى التمعن في محتويات الدوريات الأكاديمية الرئيسية يمكن لأي باحث أن يستشف تراجعا نسبيا لكنه ثابت للأعمال العلمية التي تعتمد معايير المدرسية السلوكية سيما توظيف الأدوات الكمية. لكن وبالمقابل فإن "دريزيك" يرى بأن "المؤتمر" وبدل أن يتوجه نحو تشييد روابط مع التيارات الاجتماعية والسياسية والتي تحمل ثقافة مناوئة له، فقد كرس جهوده على الصعيد المهني، مما دعا باحثا آخر هو "لوي" Lowi إلى تسميته بـ "المؤتمر من أجل جمعية جديدة لعلم السياسة"، ومع إخفاقه في الحصول على رئاسة الجمعية فقد تراجع طموح أعضاء "المؤتمر" وأصبح تنظيمهم مجرد قسم عادي ضمن أقسام APSA يعمل على تمويل لجان عمله بشكل ذاتيا، أما المجلة العلمية التي قام "المؤتمر" برعايتها (علم السياسة الجديد) New Political Science فقد ظل انتشارها محدود، ولم يظهر اسمها ضمن ترتيب أبرز 115 دورية علمية في التخصص. وقد جاء تيار "بريسترويكا علم السياسة" لأعطاء دفعة جديدة للجهود من أجل إرساء تحول "بارادايمي" عميق يغطي نقائص "بارادايم الخيار العقلاني" الذي تمثله السلوكية.

المطلب السادس: استعصاء التحول "البارادايمي" -مستقبل برويسترويكا علم السياسة-

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقا كليا بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحهم لا يعني بالمقابل نجاح "السلوكية" فهذه الأخيرة وإن استمرت إلا أنها استمرت وهي فاقدة لهويتها التي انطلقت بها وخاصة في الشق المتعلق بزعمها إمكان إرساء أسس علم محايد أو علم مجرد من القيم. فقد قدم هذا التيار تنازلات متتابعة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" التي تعتبر محرك التغيير "البارادايمي" الذي لا يمكن تجاهله.

تجسدت هذه التنازلات بتبني دورية أكاديمية جديدة بعد ثورة "المؤتمريين" عام 1967 سميت السياسة وعلم السياسة PS: Political Science and Politics وذلك اعتبر ضربة لـ American Review of Political Science التي احتكرت المجال الأكاديمي لفترة طويلة نظرا لصلاتها بـ APSA، هذه الدورية الجديدة أتاحت الفرصة لنشر أعمال علمية تتوجه أساسا نحو معالجة مشكلات المجتمع والقضايا الملحة في السياسة العامة للدولة الداخلية والخارجية.[205] ولاشك أن هذه الخطوة تعتبر ميزة أمريكية تستحق التنويه، حيث أن قوة المنظومة الأمريكية عموما هي في قدرتها على احتواء ديناميكيات المجتمع عبر تعديلات بنيوية جزئية تمنع تقويض النظام ككل في

---

[204] John S. Dryzek, op cit., p. 491.
[205] NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكدت قوة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأمريكيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمى نفسه "السيد برويسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان انفتاح الحقل على التعددية المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكمّيون" عليه.[206]

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البرويسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "باراديم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بـ تيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل برويسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه 'المؤتمر' Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكاديمية حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتركان في مسالة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".[207]

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكاديمية أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحدثوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندة الحقل.[208] لكن هل بقي هناك "أجندة بحث" في "علم السياسة" ليمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرة خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندة، فإما أننا إزاء برامج بحثية لاكاتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية انتكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستخفت أعمالها العلمية.

بالنسبة لـ قابرييل ألموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة اللانقاش، وبعبارته الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلا بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.[209]

---

[206] سيتم التفصيل في أبعاد "حركة البرويسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن معضلات النقاش الرابع.

[207] Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

[208] Ibid.

[209] Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', **PS** 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" (يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)	
38. الفدرالية والعلاقات بين الحكوماتية	58. الاتصال السياسي
39. القانون والقضاء	59. السياسة والتاريخ
40. الدراسات التشريعية	60. الاقتصاد السياسي
41. السياسة العامة	61. علم السياسة الجديد
42. التنظيم السياسي والأحزاب	62. علم النفس السياسي
43. الإدارة العامة	63. تدريس علم السياسة
44. ديناميكيات النزاع	64. السياسة والأدب والسينما
45. النظم التمثيلية والانتخابية	65. السياسة الخارجية
46. البحوث حول مؤسسة الرئاسة	66. الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي
47. المنهجية السياسية	67. السياسة والدراسات العرقية والإثنية
48. السياسة والدين	68. السياسة والتاريخ العالمي
49. السياسات العمرانية	69. الدمقرطة من منظور مقارن
50. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية	70. حقوق الإنسان
51. المرأة والبحوث السياسية	71. البحوث الكيفية والمتعددة المناهج
52. أسس النظرية السياسية	72. السياسة والقضايا الجنسية
53. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال	73. السياسة الصحية
54. الأمن الدولي ونزع السلاح	74. السياسة الكندية
55. السياسات المقارنة	
56. السياسة والمجتمع في أوربا	
57. سياسة الدولة والسياسة العامة	

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 2009/01/15.
<http://www.apsanet.org/content_4596.cfm>

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلما يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تخلف عما عرفه علم السياسة عموما الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهور التحدي النقدي المعياري. لكن مع بادية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضا في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحيص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادايم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركية التحولات البارادايمية إن وجدت في ما اصطلح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرست لبارادايم عقلاني لاحقا. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماسك إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشا بينيا مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أنطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، سيما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقية للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوهر ما ستنصب عليه تحليلاتنا. وحول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين برز فيه "إدوراد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 'The Twenty Years Crisis 1919-1939'، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوربية بشكل عام، وفي الأسس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنشور عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأديولوجية قد تجاوزها الزمن، فالافتراض الفلسفي المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالية تعوزها الحقائق التي تدعمها، ومعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.[210]

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التلقائي" و"التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضا أن حركة التنوير كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" و"مثالية" "كانط" يرمزان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعا لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بواكير الفكر السياسي الأوربي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيللي" و"هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.[211]

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التنويري، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوربيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" و"الواقعيين"، أو بين "الثوريين" و"المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البنى الاجتماعية والسياسية والتي ورثها من ماض غامض.[212] إذن، فإن على المرء، من وجهة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجهة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.[213]

هذا الخلاف بين "المثاليين" و"الواقعيين" يمكن تأصيله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقوا سقراط، فـ "بياس برين" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيراقليطس" يؤمن بالتغير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطباع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضا، نجد "كزينوفون"

---

[210] Charles A. Jones, '**E.H. Carr and international relations: a duty to lie**' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.
[211] Charles A. Jones, op cit., p. 7.
[212] Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', **Review of International Studies** 27 (04) 2001, p. 612.
[213] Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبنى "أفلاطون"، و"أبيقور" و"ديوجين" من جهتهم النظرة المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستعاود الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدامى" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوربي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكويني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميول الشريرة للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوربيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيللي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية.[214]

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر تنويريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التمييزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهماك المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتثاث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد البحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد.[215]

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبيريسفيث" Aberyswyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

[214] Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
[215] Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.[216]

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أسس الافتراضات الأيديولوجية "للتنوير" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقده هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريدريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيننا، أما "ستانلي هوفمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "برايان شميت" Brian Schmidt.[217] ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المآخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مآخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافا لما تصوره الأدبيات المهتمة بتأريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلة من الليبراليين عموما صاغوا ردودا ممنهجة استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell "ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940 The War for Peace] "ريتشارد كوفينتري" Richard Coventry و"ألفيرد تسيمرن" Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدبيات أيضا حقيقة أن "كار" تأثر كثيرا بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدبيات الوظيفية التي تبلورت لاحقا على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.[218]

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "آنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللافعل وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

---

[216] Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), '**International Relations Theories: Discipline and Diversity**' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.
[217] Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
[218] Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', **International Relations** 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لكبحها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.[219]

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تتهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "ليونارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تتجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكرا لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضا لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.[220]

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوما عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. ولتوضيح ذلك يضرب "آنجل" مثلا بالعبيد، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعيا أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تسند التوظيف العدائي للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.[221]

أما بالنسبة لمآخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوورث" Lucian Ashworth،[222] "جويل كويرك" Joel Quirk و"دارشان فيقنيسفاران" Darshan Vigneswaran"،[223] "بيتر ويلسون" Peter Wilson،[224] وهؤلاء يجمعون في مآخذهم بين الغموض الذي كان يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعليا أم أن "كار" اصطنع سجالا خياليا لبناء الحقل المعرفي لعلم

---

[219] Ibid.
[220] Lucian M. Ashworth, op cit., p .40.
[221] Ibid., p .41.
[222] Ibid.
[223] Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', **Review of International Studies** (31) 2005, pp. 89-107.
[224] Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', **Review of International Studies** (24) 1998, pp. 10–12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش محتدم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصومه المزعومين بـ"الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصومه في حواشي كتبه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميولهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورقينتو" تم تصوريها على أنها تتقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد البحثي الليبرالي.[225]

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ"الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهؤلاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأدل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعفاء، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تفسير آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapolitik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ"نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم ويساهم في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقبع في التخلف والظلام، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.[226]

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقولة الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشوورث" هي بالنفي فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.[227]

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" و"الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفي أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقراط إلى أيامنا هذه. إذن فمنظرو العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذا معنى.

---

[225] Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.
[226] Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p .37.
[227] Lucian M. Ashworth, op cit., p .38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفي، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عدة للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالممارسة السياسية،[228] إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adoloescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحى يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخانيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزيج من الأدبيات غير المتسقة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعة السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظمية ولإيصال هذه التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إيذان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.[229]

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني"- نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرة غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرة المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

---

[228] Peter Wilson, op cit., p. 12.

[229] Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), **'Handbook of International Relations'** (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاما سياسيا لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".[230]

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة -في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلفيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـ اللاعدل والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، ولأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاذه، لم يعتقد "أرسطو" أبدا في إمكان أن يقودنا العقل لـ "الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تنبع منه فالممارسات والقوانين تتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدها الملاحظات تتسم بالخصوصية.[231]

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكال" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدد البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطارحات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلاني (يكفي أن تفكر جيدا لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجدر البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلا من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلهم المحض والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتأى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلهم المحض، كما أن الفكر الاستنباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعاليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدرا للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركهايمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعي قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".[232]

---

[230] Michael Oakeshott, ‘**On Human Conduct**’ (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

[231] لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءا على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل العصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسا جديدا بدخول مفهوم الوحي (المستلهم من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شترواس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توفيقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ "الأكويني" و"أوغسطين"، و"ميمونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, ‘**Rationality**’ (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

[232] Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكال" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكال إلا أن رفض ديكارت الاحتكام إلى" الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفي إلى وجود الله) لقد أحس "باسكال" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيدا في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنتهي"، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكال" المنظور العقلاني لديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسامح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجا إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكال أن الإنسان المثقف قد يكون منقسما بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.[233]

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل المحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلا أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل المحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذرا في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانط بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحديا جديا للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل المحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانط" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادرا على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل المحض يمتلك هذه القدرة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجبر الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".[234]

وهكذا يتبين أن الفلاسفة الأوربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلا النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي عما إذا كان الإنسان يستقي معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكارتيزيين (أتباع

---

[233] Harold I. Brown, op cit., p. 48.
[234] Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحية بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعة الإمبريقية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعي بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.[235]

هذا الطرح الفلسفي تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، فـ "روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتوافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، فبالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجا للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخفون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحض" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جذري بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريقي ليشمل مجال الفكر السياسي متمحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسبقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجا للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكفاحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفسير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فورييه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستنباط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقا للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكيته العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعني الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعني من جهتها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.[236]

---

[235] Ibid.

[236] Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضا ممن لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعيين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علما، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المسعى "الباراديمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مسعاهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يبطنها "البارادايم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علما.[237]

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية مغمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلى النقاش بين المقاربات المنتمية للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباينة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. فبينما كان "كابلان" واثقا من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقرا والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلا عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكا وتواضعا تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريدية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيا، وقبل أن يتوصلوا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلجؤوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأمريكيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوما بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علما، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضا في أن يكون هذا العلم "نافعا"، لكن نتيجة كلا المسعيين مخيبة للآمال.[238]

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

---

[237] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.
[238] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهمي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن اقتفاء آثارها لدى أشهر أعلام الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيغل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علميا، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضا كان اشتراكيا يؤمن بالتسيير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثنى على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفييتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذه لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بتخطيط اقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيغل" و"ماركس" بتبنيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفا، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهائية من التاريخ الأوربي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية.[239]

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفييتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بمُثُلٍ كانت حتى عهد قريب مُثلاً عالمية مقبولة وتتمثل في المبدأ الرأسمالي "دعه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفييتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبرى في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشتراكية القومية الألمانية سوى مقته للتقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوربية على طريقة هتلر".[240]

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية للقوى الكبرى، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات القائمة والتي لا يمكن أن تحيد عنها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكيف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تنبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسة من منظور عقلاني، رغم تسليمنا بأن الواقعية عموما تميل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلا، فإن جوانب القوة للقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، فما الذي تعبر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحض المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرة محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبز" لحياة الإنسان باعتبارها

---

[239] Ibid.

[240] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تتسم بالوحدة، والفقر، والدناءة، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلا أنه ليس علينا أن نتقبل هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحض". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، فبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظورا سياسيا محافظا، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.[241]

لم يكتف "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسد في تهجمه الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجرأ خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المثقفين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوربا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في انجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايرا ومناوئا للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هايديقر". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعا نموذجيا بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المتفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تنبع من التطلعات العقلانية الهادفة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.[242]

وحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. ويضيف "بوبر" أنه عندما يدعي الفلاسفة العقلانيون (مثل أفلاطون وهيقل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعا لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

---

[241] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.
[242] Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.[243]

لقد كان رفض "بوبر" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جدا إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبر" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبر" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكذيب على أسس عقلانية وهو ما يمكن التأكد منه لدى فحص الافتراضات الست التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورقينتو" Hans Morgenthau، المعنون بـ: "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948):[244]

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبعه، حسب مورقينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بمؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدفا في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتأثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوما موضوعيا يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مضامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعاقبة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالي بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضا بالتوتر الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمضامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبدلا من ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

---

[243] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

[244] Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصرامة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:[245]

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحه النظري يحتمل مضامين عدة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلح على تسميته بالنسخة البنيوية للواقعية لدى "وولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنته الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيادة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمقراطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف دوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تماثل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموع الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحيح أن الواقعية والليبرالية انحنت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافتت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "بارادايم" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحيح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيما في إطار النقاش نيو-نيو، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما مما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذا لدخول النقديين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادايمات الثلاث.

---

[245] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية الستينيات، ظهرت بوادر التحدي البارادايمي "البنيوي" و"النقدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية الستينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتملت في البداية على "بارادايمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "البارادايمي" interparadigm debate اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكل بانكز" Michael Banks.[246]

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالا للفعل وتداول الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية الستينيات كما أنها لم تعد تجد دعما كافيا في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايد وسلبي إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فيتنام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقا إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعنى بالمفاضلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمفاضلة بين "البارادايمات" التي ترعاها.[247]

يصف "بانكز" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل منطلقات مختلفة منذ البداية، فبالنسبة للنزعة الواحدية،[248] لدى الواقعيين، يعتبر المجتمع الدولي نظاما تتفاعل فيه الدول وفق منطق "كرة البيليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوة). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثيرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تنطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيرا، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنيوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"،[249] هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بـ"أخطبوط متعدد

---

[246] إن استخدام مصطلح "البارادايم" آنذاك كان شائعا بفعل الوقع الذي أحدثه عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقا أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك إحجام عن إطلاق وصف النقاش بين البارادايمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقا بارادايما واحدا في مواجهة البارادايم التأملي والبارادايم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف البارادايمات المتعارضة إذا ما اعتمدنا تعريفا مرنا للبارادايم، لفهم أفضل لبوادر النقاش الثالث، أنظر:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), '**International Relations. A Handbook of current theory**' (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

[247] Mark A. Neufeld, '**Restructuring of International Relations Theory**'(UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

[248] أي أنها تحاجج بكون الدولة فاعلا موحدا ووحيدا في العلاقات الدولية، منطق الواحدية mono مقابل التعددية pluri في رصد التفاعلات التي تشكل السياسة الدولية حسب النظرة الأولى والسياسة العالمية حسب النظرة الثانية.

[249] تختلف آراء الباحثين بهذا الصدد فمنهم من يرى أن النقاش يتضمن بالإضافة إلى الواقعية والليبرالية عددا من المقاربات يجمع بينها راديكاليتها ورفضها للعالم كما هو، ليدرج كلا من النقدية لـ "كوكس" والتبعية لـ"كاردوسو" و"سمير أمين". أما البعض الآخر مثل "مارك

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيفة [بلدان الجنوب].[250]

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متسقة داخليا، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كليا عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيرا حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية اللامقايسة مستساغا بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواقعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تنحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء.[251]

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنبا إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنيوية فإن مجال البحث يصبح شاسعا وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحليلا عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنتاج الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل للتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيرا الاستغلال والتبعية لدى البنيويين.[252]

بالنسبة لـ"نيكولاس جـ. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهدارا للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحض الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "البارادايمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثية أيديولوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من الغموض على مفهوم "البارادايم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تنحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقليد البحثي الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسية".
حول هذه النقطة أنظر:

Mark Hoffman, '<u>Critical Theory and the Inter-Paradigm debate</u>', **Mellennium: Journal of International Studies** 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti '**The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory**' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

[250] Michael Banks, op cit., p. 30.

[251] Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

[252] Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية.[253] بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقييم المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تتفيه banalisation مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في واقع الأمر.[254]

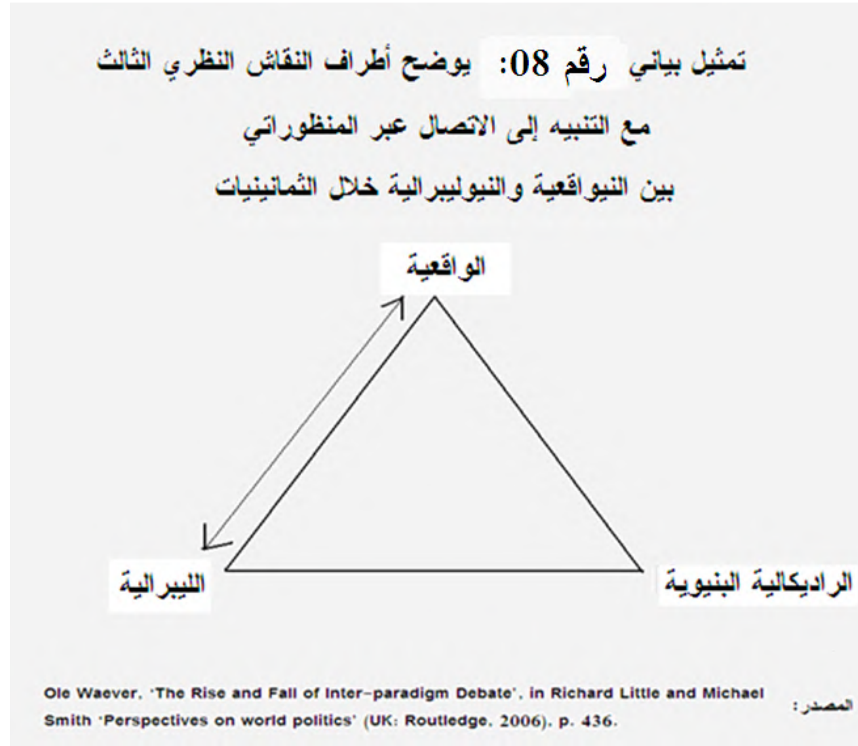
لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الوهلة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تتمثل في وجود طروحات متباينة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجدية عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. فخلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيدا للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كادت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منطلقاتها تتمثل في فك الارتباط بالواقع فكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعايش بين برامج بحثية/أو بارادايمات مختلفة كل منها تتلقف جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظريا بشكل ملفت لأنها طورت منطقا داخليا وبناء تصوريا يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجيا وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.[255]

المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيو-نيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتفسيرات لا يمكن دحضها إمبريقيا، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيبا بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

[253] Nicholas J. Rengger, '**International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory'** (UK: Routledge, 2000), p. 30.
[254] Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.
[255] Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith '**Perspectives on world politics**' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي بارادايمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"البارادايم الوضعي" عموما في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "بارادايمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكاديمية للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "بارادايم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسليم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجها كل "بارادايم" على حده.[256]



لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تحاورية، فكل من المقاربات السابقة التي وصفت بـالبارادايمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقا خاصا بها لإنتاج الحقيقة **truth**، ونظرا لتباين الأنساق المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن ابستيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنساق الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "البارادايمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة self-referent.[257] هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيبرنيطيقا

---

[256] Ole Waever, op cit., p. 236.
[257] Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى به عندما تكون لدينا مقاربات عدة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكد بما لا يدع مجالا للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول البارادايمي الأساسي الذي أرسيت أسسه هو التخلي عن المنطق الثوري وعن منطق التحولات البارادايمية نفسه لصالح الفهم اللاكاتوشي أي برامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهقري regressive.[258]

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظللا، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسوارا معرفية حصنت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعنة التقليد البحثي المبني على برامج بحثية مجبرة على تكييف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضا محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني للملاحظة وشرعنته فعليا قبل أن يتم التنظير له تصوريا باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.[259]

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن البارادايم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيو-نيو ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه التركيبي نيو-نيو كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليين) في معظمهم نيوليبراليين مؤسساتيين مع حدوث التحول نيو-نيو، وكانوا بذلك قد اقتربوا من النيواقعيين، فكلاهما يسلم بالفوضى مع فارق أن النيوواقعيين يعتقدون بإمكان مساهمة المؤسسات الدولية في التخفيف من جدة الفوضى، كما أن كلاهما يسلم بوجود ظاهرة الركبة المجانية free-riding pattern والتي تتلخص في وجود دول تستفيد من مزايا التعاون دون المساهمة في تكاليف إرسائه.[260]

ويرى "جوزيف قريكو Joseph Grieco" أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوواقعية والنيوليبرالية هو في نظرتهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

[258] Ibid., p. 237.
[259] Ole Waever, op cit., p. 236.
[260] كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، **"فهم العلاقات الدولية"** (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،[261] وبتعبير أكثر تبسيطا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التنافسي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما من منظور النيوواقعية فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافى مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونا التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحقل عبر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنيوية (الينوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني rationalist الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي reflectivist والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنيوي poststructuralism الفرنسي، و"الهيرمونيطيقا" hermeneutics و"الفيتقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.[262]

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد البحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدي البارادايمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأملية التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد البحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحقل عبر تقديمه كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتنبى بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.[263]

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدي البارادايمي المتأتي من "التأملية" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "البارادايم البنائي" بداية التسعينيات مستفيدا من ثلاثة عوامل أساسية:[264] أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركية السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتلقفان هذه الحركية بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأملية وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظريا أو ممارساتيا؛ ثاني العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

---

[261] كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

[262] Ole Waever, op cit., p. 240.

[263] Ole Waever, op cit., p. 439.

[264] لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية أنظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, '**International Relations: Critical Concepts in Political Science**' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة اللامقايسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. فبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة باراديمات [بكل ما تحمله كلمة "باراديم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلا في العقلانية والتأملية.

الفصل الثالث:

معضلات النقاش الرابع:

التحول عن حل المشكلات إلى تفكيك الأحاجي.

الفصل الأول: التحولات "البارادايمية" في العلاقات الدولية-مدخل ابستيمولوجي تأريخي.

إن دراسة النقاش النظري الرابع، يحيلنا مباشرة إلى تقفي المسار الذي سلكه الحقل المعرفي للعلاقات الدولية قبل الوصول إلى هذه المرحلة، فوجود ثلاث نقاشات سابقة يطرح سؤالا جوهريا، ما الذي يحرك التقدم المعرفي أساسا، وكيف يمكن فهم ديناميكية الانتقال من نقاش إلى آخر في ظل وجود منظورات متعددة يرفض بعضها وصف النقاشات المتتابعة بالتقدم المعرفي. يتناول هذا الفصل الجوانب المتعلقة بالتحولات البارادايمية في شقها الابستيمولوجي، بدء بالتفسيرات التي قدمتها الدراسات التأريخية للعلم بخصوص العوامل التي تحرك التقدم المعرفي، ليتم التركيز بعدها على أهم ثلاث تصورات استطاعت رصد حركية العلم بطريقة مثيرة للاهتمام أي "الثورات المعرفية" لدى "كون"، و"البرامج البحثية" لدى "لاكاتوش" و"الفوضى المنهجية" لدى "فايرآبنت".

في المبحث التالي من هذا الفصل سيتم معالجة التحولات البارادايمية في علم السياسة باعتباره الوعاء المعرفي لتخصص العلاقات الدولية، ويهدف ذلك إلى وضع الموضوع في إطاره الأوسع، وبعد تناول التحولات البارادايمية الثلاث الأولى في العلاقات الدولية سيتبين ما إذا كانت هناك تماثلات يمكن تسجيلها بين هذين الميدانين المعرفيين، كما سيساعد ذلك على فحص التفسيرات المختلفة لحركية العلم (تطور/تقهقر/قطيعة/ثورة) سيما الثورات الكونية وبرامج البحث اللاكاتوشية.

المبحث الأول: الإطار الابستيمولوجي لدراسة التحولات المعرفية.

إن المقاربة للتحولات المعرفية يحتاج إلى تصورات تساعد على استيعاب جوانبها المتعددة، وهذا المبحث يستعرض أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي في إطارها الطبيعي: فلسفة المعرفة أو الابستيمولوجيا، مع التركيز على مفاهيم: "الثورات المعرفية"، "البرامج البحثية" و"الفوضى المنهجية". وقبل التطرق إلى هذه المحاور من المهم وضع هذه النظريات أيضا في إطارها العام historiography of science عبر تصنيفين أساسيين يردان في الأدبيات أحدهما يسوقه الباحث "جون لوزي" John Losee، ترتكز تيبولوجيا "لوزي" على ثلاث فئات تندرج ضمنها النظريات المفسرة للتقدم العلمي هي:

- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يسير وفق منطق احتواء النظريات الجديدة للنظريات القديمة، وهي بذلك تسلم بمبدأ التراكمية؛
- النظريات التي ترى بأن التقدم العلمي يحكمه منطق الثورة بحيث تأخذ النظريات الجديدة بعضا من مكونات النظريات القديمة لكنها تنتفض ضد مسلماتها الأساسية وترسي أسسا جديدة للعلم؛
- وأخير النظريات التي تعتقد بأن نماء العلم يخضع لمنطق النماء العضوي "اللاخطي"، أي المتأرجح بين طرق عدة للتقدم.

دراسة أخرى لـ "جيمس باتريك" James Patrick تقترح تيبولوجيا لا تختلف كثيرا عن تيبولوجيا "جون لوزي"، وهي ترى أن النظريات المفسرة للتقدم العلمي إما أنها تخضع للمنطق "البراغماتي"، أو "الثوري" أو "التطوري". وعموما، ستساعد هذه التيبولوجيات، على الرغم من غموضها أحيانا، في استيعاب أفضل لتطور الأفكار بهذا الشأن.

المطلب الأول: أهم النظريات المفسرة للتقدم العلمي.

يعتبر "ويويل" Whewell أول باحث يقوم برصد مسار تطور العلم، حيث نشر أعماله في هذا الخصوص بين عامي 1837 و1857، لكن تأثره بالنزعة الوضعية التي كانت في أوجها خلال

القرن التاسع عشر جعلته يؤمن بأن العلم يرتقي بثبات نحو تحقيق مزيد من النجاحات، ففي كتابه: "تاريخ العلم الاستقرائي" يصر على الطابع الخطي للتقدم العلمي.[265] وقد تعرضت وجهة نظره هذه لانتقادات لاذعة من طرف معاصره "بروستر" Brewster، إذ يشير هذا الأخير إلى نقطة مهمة وهي تجاهل النموذج الذي يطرحه "ويويل" لكل مظاهر التقدم العلمي التي يعجز عن تكييفها مع مسلماته الاستقرائية.[266] لم يتوقف سيل الانتقادات التي واجهها "ويويل" عند هذا الحد، بل أن "جون ستيوارت ميل" نفسه توقف عند التناقض الموجود في تفسيرات "ويويل" للتقدم العلمي، ومن ذلك تمسكه بالاستقراء وبالنزعة الإمبريقية من جهة، ومن جهة أخرى، لجوءه إلى الملكات الحدسية في تفسير الاكتشافات العلمية رغم أنها تنم عن التعالي العقلي.[267]

رغم سلسلة الانتقادات التي طالت أعمال "ويويل" الرائدة في مجال التأريخ للعلم وتفسير التغيرات التي طرأت على مساره، إلا أنها لم تنقص من قيمة ما سعى لفهمه هذا العالم، وهو البحث في القانون الذي يحكم هذه التحولات والذي أصبح موضوعا مهما جدا من مواضيع فلسفة العلم الحالية وميدانا من ميادينها في إطار "تأريخ العلم" historiography of science. وقد تطلب الأمر قرنا كاملا لتقديم طروحات أخرى في هذا الميدان، لكن أولاها لم تكن لتخرج عن المسار الذي رسمه "ويويل" وقبله "ديكارت" Descartes وهو مبدأ التراكمية في العلم، والاعتقاد بأن النظريات الجديدة تتولد عن القديمة وتكملها، وفي هذا الصدد جاءت نظرية "ارنست نيجل" Ernest Nagel في كتابة: "بنية العلم" (1961) لتؤكد على أن التقدم العلمي ليس سوى احتواء للمنظومة المعرفية القديمة في المنظومة الناشئة الأكثر دقة.[268] وهو الطرح الذي أيده لاحقا "كارل بوبر" الذي اعتبر التقدم بمثابة إطاحة بالمنظومة القديمة ودمجها في الجديدة، وبناء صرح علمي متعالي، قوامه قابلية النظريات للتكذيب وقدرة الباحثين على الاستمرار في كشف مواطن الكذب في النظريات القديمة لتعزيز فهمنا بالعالم.[269]

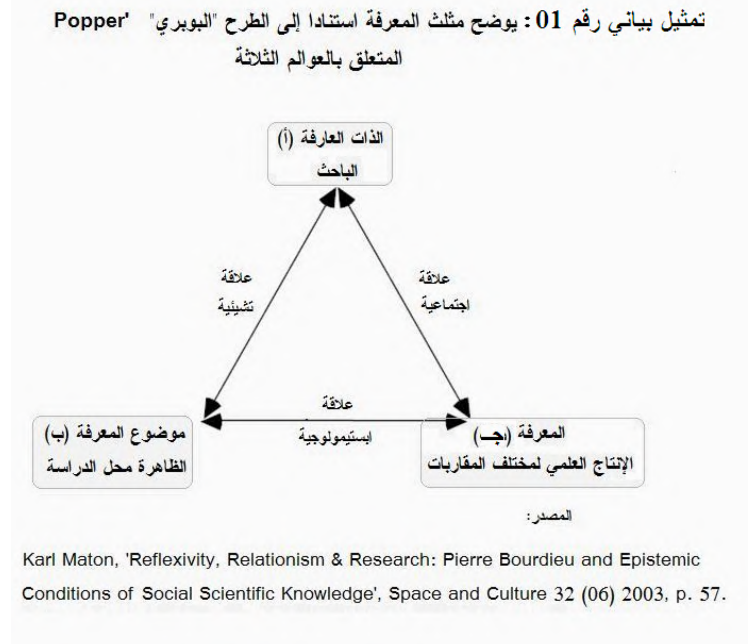
يستند الطرح "البوبري" في ذلك إلى نظرية العوالم الثلاث والتي تتفاعل بين بعضها البعض:[270]

- **العالم الأول**: ويحوي الأشياء المادية والكائنات البيولوجية كما يتضمن أيضا الأحداث الاجتماعية المختلفة. إذن فهذا العالم يشتمل أساسا على مواضيع المعرفة أو الظواهر محل الدراسة؛
- **العالم الثاني**: ويشتمل على العمليات الإدراكية التي يقوم بها الدماغ وكل ما له صلة بالذات العارفة؛
- **العالم الثالث**: ويشتمل على كل ما أنتجته الذات العارفة أو الدماغ البشري من معارف لدى سعيه لفهم العالم الأول، وبذلك فإن هذا العالم يتضمن، حسب "بوبر" كل النظريات العلمية

[265] John Losee, '**Theories of Scientific Progress: An Introduction**' (Routledge, Taylor and Francis Group, 2004), p. 7.
[266] Ibid., p. 17.
[267] Ibid., p. 19.
[268] Ernest Nagel, "**The Structure of Science**" (New York: Harcourt, Brace & World), pp. 15-18.
[269] كارل بوبر، ترجمة: أحمد مستجير، "**بحثا عن عالم أفضل**" (مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001)، ص. 15.
[270] Margaret Scotford Archer, '**Structure, agency and the internal conversation**' (UK: Cambridge University Press, 2003), p. 36.

والروايات والأساطير والأعمال الفنية والمؤسسات الاجتماعية وغيرها مما أنتجه العالم الثاني لدى تفاعله مع العالم الأول. وهكذا، فإن الموضوعية العلمية لدى "بوبر" ليست متيسرة إلا إذا سلمنا بوجود العالم الثالث في معادلة عوالم المعرفة، هذا العالم حيث يصب إنتاج العالم الثاني ويخضع للتمحيص والنقد، وربما التكذيب، وهو العامل الأكثر فاعلية في تقدم المعرفة ونمائها.

تمثيل بياني رقم **01** : يوضح مثلث المعرفة استنادا إلى الطرح "البوبري" 'Popper' المتعلق بالعوالم الثلاثة



المصدر:

Karl Maton, 'Reflexivity, Relationism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowledge', Space and Culture 32 (06) 2003, p. 57.

لكن هذا الطرح ووجه لاحقا بحجج مختلفة أهمها "اللامقايسة" في عديد الحالات بين البنية النظرية العتيقة والناشئة، بسبب استخدام تصورات بمضامين مختلفة وأدوات قياس متباينة. لذا فإن أكثر النظريات "الاحتوائية" incorporatist دقة في تفسير التقدم المعرفي، هي تلك المتعلقة ببرامج البحث اللاكاتوشية والتي عمد من خلالها الباحث المجري "إمري لاكاتوش" Imre Lakatos إلى تفسير التقدم في إطار برنامج بحث واحد عبر توسع مجال النظرية لتضمين متغيرات جديدة، بحيث تصبح النظرية القديمة بمثابة نواة صلبة للنظرية الجديدة وهكذا دواليك، بما يكفل تحسين القوة التفسيرية للنظرية ولبرنامج البحث research program ككل.[271] وفي حقل العلاقات الدولية يمكن إسقاط ذلك على النواة الصلبة للنظريات الواقعية التي أتت تباعا، وهي التي تشكلت أساسا من الافتراضات التي استطاعت الصمود إمبريقيا للنظريات التي سبقتها. على سبيل المثال، تم التحول في النظرية البنيوية لدى "وولتز" عن الأنطولوجيا التي تعتمد على عدائية الفرد إلى عدائية الدول التي يفرضها "غياب التراتبية" anarchy في النظام الدولي، لكن جوهر الافتراض أي "العدائية" ظل ثابتا.[272]

---

[271] Imre Lakatos and A. Musgrave (eds.) **Criticism and the Growth of Knowledge** (Cambridge: Cambridge University Press, 1970), p. 115.

[272] Stephano Guzzini, "The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations", **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004, pp. 538-539.

ظلت التفسيرات الإحتوائية سائدة في ميدان تأريخ العلم إلى أن جاء "جوناثان كوهين"Jonathan L. Cohen (1973) بمفهوم الثورة المعرفية، لكن ما يعاب على الطريقة التي طرح بها "الثورة" هو العمومية التي اتسم بها المفهوم لديه، حيث أصبح يلصق بأي فكرة جديدة حتى ولو لم تتمكن هذه الفكرة من تقويض أركان النظرية السائدة في مجال معين.[273] المشكلة ذاتها وقع فيها "ستيفن تولمين" Stephen Toulmin عندما تحدث عن استبدال نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا أخفقت في مطابقة تصوراتها مع المسار الطبيعي للأحداث في العالم من حولنا، عندما تأخذ الأحداث مسارا لا تتلقفه النظرية السائدة وجب تعويضها. إذن، ومثل "كوهين" فقد أخفقت نظرية "تولمين" في وصف فترات التحول بدقة أو الدور الذي تلعبه النظريات الكلانية holistic قبل وخلال التحول.

بمجيء "توماس كون" أصبح لمفهوم الثورة مضمونا مقيدا ومنهجيا، حيث الوثبات المعرفية التي تنفذ تستطيع تقديم بدائل قياسية مختلفة، تساعد على استنباط الفرضيات واختبارها وفق منطق جديد، فقط هذا النوع من الوثبات المعرفية يستحق وصف الثورة. يضيف "كون" أنه لدى الانتقال من نموذج قياسي إرشادي لآخر فإنه لا يمكن المقارنة بين الجديد والقديم لأنهما يستندان إلى جوهر مختلف ويوظفان أدوات مختلفة، فضلا عن أنهما يرسمان أهدافا متباينة. وقد حدد كون مراحل الثورة في: مرحلة العلم العادي؛ مرحلة الأزمة بكثرة مواطن الشذوذ في النموذج السائد، ثم بعدها مرحلة الثورة لإرساء علم عادي قياسي جديد.[274]

ومع أهمية الطرح الذي ساقه "كون" إلا أنه تعرض لانتقادات عدة، أهمها أن الثورة ذاتها مفهوم نسبي، والتحول قد لا يحدث بشكل جذري بل قد تقود مظاهر الخلل في أداء النظرية السائدة، حسب "لاري لاودان" Larry Laudan، إلى القيام بتنقيحات تصورية عبر تفاعلها مع مكونين آخرين هما الأهداف الإدراكية (للباحث) والمبادئ المنهجية الشائعة وقد أسمى "لاودان" نموذجه بنموذج reticulational model.[275] وقد ذهب "نيكولاس ريشر" Nicholas Rescher في الاتجاه ذاته، عبر أطروحته حول العلم باعتباره عملية إدراكية ذاتية-التنقيح، تؤكد على مواطن القوة المنهجية وتضيف عليها بينما تستبعد الأخطاء ومواطن الضعف، وقد أهلت هذه الأطروحة للحصول على وصف المنهجية البراغماتية.[276]

لقد ساد هذا المنطق التفسيري للتقدم العلمي دون الإقرار بذلك صراحة، وهو المنطق الذي تعبر عنه جملة "لاودان" بطريقة بارعة: "التقدم العلمي باعتباره تقربا مستمرا من الحقيقة". وكان "لاودان" قد أطلق هذه العبارة لدى رده على منتقديه، إذ عبر عن وجهة نظره بطريقة أكثر وضوحا، وهي أن التقدم ينصب على تحسين فعاليتنا في التعاطي مع المشكلات.[277] لكن هذا الطرح متأثر بالوضعية إلى حد بعيد، فالبيئة التي يتعاطى معها العلم تطرح أحاجي لا مشكلات puzzles rather than problems، وهي سمة بارزة في ظل تشابك المصالح وتعقد المشكلات. ولتفادي

---

[273] John Losee, op cit., p. 65.
[274] Ibid., p. 69.
[275] Ibid., p. 82.
[276] John Losee, op cit., p. 105.
[277] Ibid., p. 120.

الانتقال الكلاني من نموذج لآخر عقب تحسن فعالية حل المشكلات وربط ذلك بتحول علمي جذري، رغم أن ذلك ليس ضروريا، ففي حالة العلم القياسي حسب الفهم "الكوني" فإن ذلك يتم تراكميا في هذه المرحلة، وطالما أن ذلك يبدو غير ضروري [التحول الكلاني] فقد اقترح "كيتشر" Kitcher ثلاثة مستويات متمايزة للتحول المعرفي: المستوى العملي (تحسن فعالية حل المشكلات المرتبطة بالعالم المادي)؛ المستوى التصوري (تحسين قدرتنا على تطوير تصورات متماسكة وذات قدرة تبسيطية) وأخيرا، مستوى التفسير (زيادة الفعالية التفسيرية للنظريات المستخدمة). ومع الغموض الذي قد يثيره الاستعراض السابق، فإن التيبولوجيا التالية توضح لنا باختصار وفي سياق مقارن عددا من التوجهات الرئيسية في مجال تفسير التقدم العلمي:[278]

9. **التراكمية لدى الاتجاه الاستقرائي** Inductivism: الذي تنضوي تحت لوائه التجريبية المتطرفة والوضعية المنطقية، حيث يتحول التاريخ الداخلي للعلم إلى وقائع تجريبية صلبة تعقبها تعميمات استقرائية، لينمو العلم بذلك وفق منحى تراكمي؛
10. **الجمالية والتبسيط لدى الاتجاه الاصطلاحي** Conventionalism **والذرائعي** Instrumenalism: حيث يتحول تاريخ العلم إلى تشييد لأنساق مفتوحة، بما يكفل سيادة نظرية جديدة محل نظرية أخرى إذا استطاعت تقديم أبسط تفسير يتفق مع الملاحظات المتعلقة بالموضوع، فهذا النوع من التفسيرات هو الصحيح على الأرجح، وهو المفضل عن سواه. لقد كان معيار القدرة التبسيطية parsimony pattern من مسلمات التفكير العلمي وفلسفة العلم بصفة عامة، إلا أنها تكتسب أهمية خاصة عند الاصطلاحيين والذرائعيين، حيث تعني القدرة على تبسيط الظواهر التي تتسم بالتعقيد. وبالنسبة لهذين الاتجاهين فإنه وزيادة على المزايا الأخرى لهذه النزعة التبسيطية، فإن للتبسيط مغزى جمالي أيضا esthetic، إذن فالمفاضلة بين النظريات لديهم يتوقف على تلبية مطلبين: المنطقية والجمالية. لذلك فإن "لاكاتوش" وفي مآخذه على هذا الاتجاه يقول أن تاريخ العلم معهم سوف يصبح تاريخ الانتصارات التي يحققها معيار البساطة.
11. **القابلية للتكذيب لدى الاتجاه البوبري**- Falsifiability: حيث يصبح التاريخ الداخلي العقلاني للعلم عملية تقوم برصد الحدوس الابتكارية التي تكتسب مضامين أكثر ثراء بفضل خاصية التقويم الذاتي، والتقدم العلمي الذي يعتمد على ثورات مطردة عبر قابلية التفنيد التي تتمتع بها النظريات العلمية، لتفسح المجال لظهور نظريات أخرى بفضل حدوس أكثر جرأة وابتكارية تسمح بتحصيل معرفي أغزر. وهو ما تعرض للنقد لدى "كون" الذي قام بعقلنة الثورات، بحيث لم يعد معه كل إنتاج جديد بمثابة ثورة. لكن التحول الأهم عن القابلية للتكذيب لدى "بوبر" وثوراته المطردة جاءت بفضل "لاكاتوش".
12. **تنافس البرامج البحثية لدى الاتجاه اللاكاتوشي**: وهو اتجاه يرى أن تاريخ العلم ليس تعاقبا لثورات متتالية بقدر ما هو رصد للبرامج المتنافسة، يأخذ بعضها منحى تقدميا في حين ينتكس البعض الآخر.

---

[278] يمنى طريف الخولي، "**فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية**" (الكويت: عالم المعرفة: 2000)، ص ص. 414-415.

وسيتم التفصيل في أهم الطروحات السابقة عبر التركيز على التأريخ للعلم من منظور "الثورة"، ومن منظور "البرامج البحثية" وأخيرا من منظور "الفوضى المنهجية الخلاقة".

المطلب الثاني: منطق الثورة العلمية لدى "توماس كون".

يعد إصرار "توماس كون" (1922-1996) على مفهوم "الثورة المعرفية" من أهم الطروحات التي بثت حيوية غير معهودة في فلسفة العلم في القرن العشرين. بنى "كون" تصوره على أعمال "كارل بوبر" (1902-1994)، ويمكن تلخيص فهمه للثورة العلمية في كتاب: "بنية الثورات العلمية" باعتبارها انتقالا من نموذج قياسي إرشادي Paradigm إلى آخر.[279] ويعتبر "توماس كون" أحد أبرز المساهمين في استحضار الوعي بتاريخ العلم في صلب فلسفة العلم. بدأها بدراسته حول "دور التاريخ"، التي جعلها مقدمة لكتابه المرجعي "بنية الثورات العلمية"، يركز فيها على قضية مهمة وهي ضرورة تفادي النظر للتاريخ باعتباره مجرد سرد لأحداث متعاقبة، وحينها سوف يحدث تاريخ العلم تغييرا جوهريا في التصور السائد حول المسار الذي قطعه تطور العلم، لنحصل على صورة مختلفة تماما سيما إذا تحاشينا تقييم الماضي بمقاييس اليوم، أو أن نتوقع من تاريخ العلم الإجابة عن أسئلة تخص الماضي بمعايير الحاضر (وهي الملاحظة الذكية التي بنى عليها مفهوم اللامقايسة أو اللاقياسية).[280]

إن فلسفات العلم التي انفصلت عن النزعة التأريخية، بحسب "كون"، وتعاملت فقط مع المعطى الحالي غير مجدية لأن هناك تمايزات كبيرة بين القواعد، والمبادئ، والتصورات، والمفاهيم والأولويات التي توجه بحوث العلماء في كل مرحلة، وما يسلم به جيل من العلماء باعتباره بديهيا، قد ينظر إليه جيل آخر على أنه أسطورة أو قضية لا تستحق الاهتمام من الأساس.[281]

لقد دعا هذا الفيلسوف إلى ضرورة التسلح بالوعي التاريخي على أساس التمييز بين مرحلة العلم العادي normal science ومرحلتين مفصليتين هما مرحلة الأزمة ومرحلة الثورة. بالطبع "توماس كون" يسلم بكون العلم ماض في طريق التقدم المستمر، لكنه يتحدث عن خطأ الاعتقاد السائد بأن هذا التقدم يأخذ منحى تراكمي في مسار خطي، فهذا المسار يسير بمنطق الدورة. ويبدو أن "كون" وخلافا لسلفه "كارل بوبر" يتحفظ على وسم كل تطور بالثورة فهو يضع شروطا قاسية لذلك.[282]

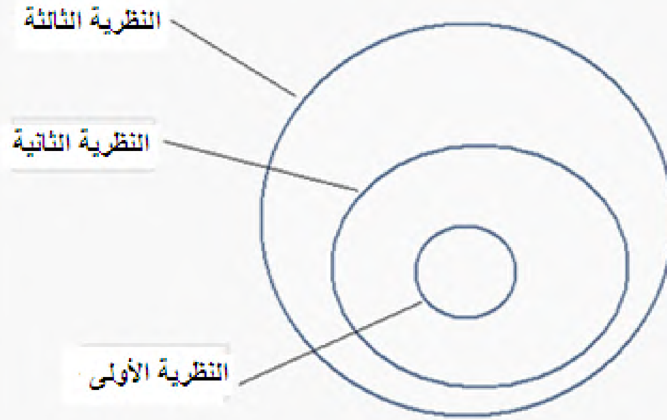
---

[279] "توماس كون" Thomas Kuhn (1922-1996) عالم فيزياء نظرية ومؤرخ للعلم، قام بتدريس تاريخ العلم في: "جامعة هارفارد" (1952-1956)، جامعة "بيركلي" بكاليفورنيا، والمعهد التكنولوجي في "ماساتشوستس". أهم إسهام لهذا العالم هو إحداث التحول في اتجاه الوعي التاريخي بتطور العلم.

[280] Ronald N. Giere, '**Science without laws**' (USA: University of Chicago Press, 1999), p. 36.

[281] Ibid., p. 38.

[282] Ronald N. Giere, op cit., p. 38.



إذن تقوم فلسفة "توماس كون" على ضرورة التمييز في مسار العلم أو تقدمه بين مراحل العلم العادي الذي يسير في إطار النموذج القياسي الإرشادي السائد (البارادايم paradigm) وبين المراحل الانتقالية في إطار تقدم العلم من نموذج إرشادي إلى آخر: الثورة. يعتبر النموذج القياسي الإرشادي بمثابة النظرية العامة التي يلتزم بها المجتمع العلمي في مرحلة معينة، أما بلوغ هذه النظرية العامة منزلة "النموذج الإرشادي" أو "البارادايم" فيعني أنها أفضل من كل منافساتها، أي أنها الأقدر على الصمود لذا توجب التسليم بها، مع ما يتبع ذلك من التسليم بكل مسلماتها ومناهجها ومفاهيمها العلمية وأبعادها الماورائية Metatheory. المضامين التي ينطوي عليها ذلك على صعيد المجتمع العلمي تتمثل في أن النموذج القياسي المهيمن يؤثر في:

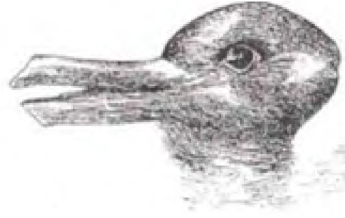
- تحديد المشكلات التي يجب دراستها وأنماط الحلول المطلوبة؛
- تحديد معايير الاختبار والتقييم وشروط التنقيح والتعديل إن لزم الأمر.

التأثيرات العلمية التفصيلية الناجمة عن تبني "بارادايم" معين تتجلى في الخطوات التالية، فـ"البارادايم" يحدد:

- ما الذي يجب ملاحظته؛
- ما هي الأسئلة التي يتعين طرحها؛
- كيف سيتم البحث في هذه التساؤلات، أي ما هي الأدوات التحليلية التي يجب الاعتماد عليها؛
- كيف يمكن قراءة وتأويل النتائج المتحصل عليها من خلال البحث.

ولعل أفضل تبرير استطاع من خلاله "كون" تسويق فكرة "البارادايم" هو الصورة أذناه، فهي تقرأ بكيفيتين: البعض قد يصر على أنها نوع من البط بينما قد يتمسك آخرون بأنها صورة لأرنب، ويماثل ذلك حالة المعطيات الإمبريقية المتاحة في العلم وفي العلاقات الدولية بشكل جلي.

الصورة رقم 01: تظهر صعوبة إعطاء قراءة موحدة لمعطى واحد ما يوضح فكرة "البارادايم" (الصورة يمكن اعتبارها بط أو أرنب)



فالباحثون يعتمدون على المعطيات ذاتها بينما يقدمون لنا قراءات interpretations متبانية تعتبر صحيحة إذا ما قيست بمعايير المدرسة الفكرية التي أنتجتها أو الزاوية التي تنظر بها للأمور. ولذا نجد بعض الباحثين يوسمون مقالاتهم بـ: "عالم واحد: مدارس متعددة" (ستيفن وولت)، بحيث يوضح فيه كيف أن القراءات المختلفة للأحداث والتنوع النظري قائم رغم أن جل هذه النظريات تزعم أنها تهتم بدراسة الظاهرة ذاتها.[283]

يسلم "كون" بأن بعض الحقول المعرفية مثل الرياضيات والفيزياء تمكنت من صقل نموذج إرشادي وهي بذلك تعتبر مجتمعا علميا ناضجا. وميزة هذه المجتمعات العلمية "المستقرة" هو أنها تكف عن طرح إشكاليات كبرى (تلك التي تساهم في صقل "البارادايم" في الوهلة الأولى) لتدخل مرحلة العلم العادي الذي يشكل وعاء لطرح أسئلة عادية ومسائل تقنية. إن التسليم بنموذج قياسي إرشادي يهيئ الباحثين لاختيار مشكلات يمكن الوصول إلى حل لها طالما استمر في البحث ضمن النموذج الإرشادي ذاته. إذن، لا يقوم الباحث خلال مرحلة العلم العادي باختبار النموذج الإرشادي الذي ينتمي إليه أو يحاول تكذيبه بحسب مفهوم "بوبر" في تصوره: "القابلية للتكذيب" falsifiability، فالعلم ينمو في مراحله العادية من خلال "تفكيك الأحاجي" puzzles التي يثيرها النموذج الإرشادي المسلم به، والمعرفة هنا تزداد دقة واتساعا وتستمر في تحقيق نجاحات تدل على نجاح المشروع العلمي برمته، لكنها تفتقد لأية ابتكارات جوهرية فلدى سيادة نموذج قياسي إرشادي فإن العلم يخضع للمنطق التراكمي.[284]

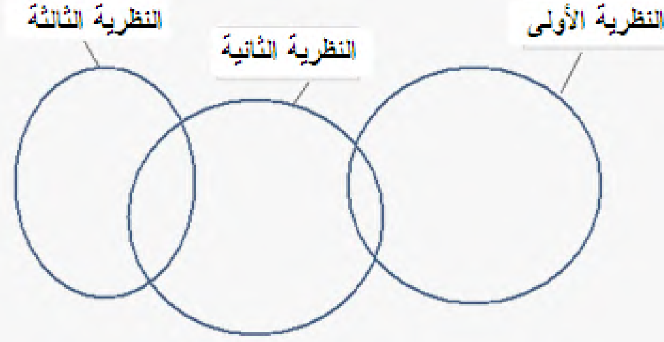
---

[283] Stephen Walt, 'International Relations : One World, Many Theories', **Foreign Policy** (Spring) 1988, pp. 29-45.

[284] Patrick James, '**International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered**', (USA: Ohio State University Press, 2002), p. 81.

تمثيل بياني رقم 03: يوضح منطق التقدم العلمي لدى "توماس كون"

يقوم منطق التقدم العلمي لدى "توماس كون" على "بارادايمات" لامتقايسة تتبنى "البارادايمات" الجديدة بعض مكتسبات القديمة وفق مسار غير تراكمي



يستمر المنحى التراكمي للعلم في مرحلته العادية normal science إلى أن يظهر الشذوذ، أي أن تطفو إلى السطح ظاهرة لم تكن متوقعة في ظل النموذج الإرشادي السائد، لذا فإن الباحثين غير مهيئين للتعامل معها، ذلك أن "البارادايم" الذي ينتمون إليه لا يتيح لهم الأدوات الكفيلة بذلك، وهنا يشرع أعضاء المجتمع العلمي في البحث عن مخارج. هذه المخارج إما أن تكلل بتعديل "البارادايم" وتنقيحه أو البحث عن "بارادابم" جديد. وبالنسبة لـ"كون" فإن "البارادايم" نفسه يحوي بذور أفوله، إذا لم يستطع وضع آلية "التصويب الذاتي"، والتي تمنحه القدرة على الصمود أمام الهزات الإمبريقية. لكن "كون" لا يؤيد فكرة التعديل المتكرر والمطرد فالمبالغة في ذلك تعني أن "الباردايم" يعيش أزمة بمعنى أنه غير مجهز بشكل ملائم للتعاطي مع الظواهر المستجدة. ويماثل هذا الوضع ما وقعت فيه الواقعية خلال مسار تطورها وتطويرها لحقل العلاقات الدولية، من التركيز على الطبيعة الإنسانية لدى الواقعيين الكلاسيكيين خلال النقاشين النظريين الأول والثاني، إلى التركيز على بنية النظام الدولي في سياق النيوواقعية (البنيوية والنيوكلاسيكية) خلال النقاشين النظريين الثالث والرابع. ومن الاكتفاء بالمتغير العسكري إلى تضمين المتغير الاقتصادي في التحليل خلال الوثبة التي ساهم فيها بالأساس "وولتز" Waltz و"راقي" Ruggie.[285]

في سياق التنقيح "البارادايمي" فإن التعديلات المستمرة تدفع أعضاء المجتمع العلمي للجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية، مما يجعل المسعى البحثي غير تراكمي، ولتوضيح الأمر نعود إلى التصور "البوبري": القابلية للتكذيب. قوة النظرية تكمن في وجود آليات تسمح باختبارها، وعندما يتم اللجوء إلى أدوات تحليلية ابتكارية (نظريات، ومقاربات ونماذج) فإن الطابع الابتكاري ينسحب أيضا على آليات الاختبار والتقييم وبالتالي التكذيب من عدمه، وفي هذه الحالة فإن هذه الأدوات التحليلية الجديدة لا يمكن وضعها في سلة واحدة جنبا إلى جنب مع القديمة. بمفهوم "كون"، فإن

[285] Patrick James, op cit., p. 128.

المجتمع العلمي في هذه الحالة، على وشك تحقيق وثبة نحو نموذج قياسي إرشادي جديد وهو ما يسميه –في حال نجاحه- بـ التحول البارادايمي paradigm shift.[286]

إمبريقيا يمكن محاكاة هذا المفهوم بعدد من التطورات أو بالأحرى الوثبات التي عرفتها الإنسانية، بعد تحقيق عدد من الإبداعات التقنية مثل:

- تحول واقع نقل المسافرين والبضائع بعد اختراع العجلة، ثم بعد اختراع المحرك البخاري الذي يعمل على الفحم، وبعدها الديزل والطائرة، والآن يتم العمل على المحرك النووي بهدف توظيفه في تسيير رحلات مأهولة إلى الفضاء ولمسافات طويلة.
- تحول واقع الحرب بعد تسخير البارود كسلاح للقنص والتفجير، وبعدها التحول الثوري الآخر الأكثر أهمية على الإطلاق أي عقب الحصول على السلاح النووي وقبل ذلك سلاح الطيران.
- العلاج الطبي بعد اختراع اللقاحات (الطب الوقائي) والليزر (عمليات جراحية دون شق الجسد) وحاليا يتم العمل على تكنولوجيا "النانو" لتطوير أجسام "روبو" مجهرية يكفل لها محاربة الأورام.

تبين لنا هذه الأمثلة بعض جوانب التحولات البارادايمية وأثرها في الحياة الإنسانية، وقد استهل بها شرح مفهوم التحول البارادايمي قبل الإحالة على المضامين الأكثر تجريدا عندما يتعلق الأمر بالثورة المعرفية، حيث يقول "كون" أن الخروج من سياق "العلم العادي" وتعديل النموذج سيحدث تحولا في طبيعة المعرفة ذاتها لتصبح ثورية بعد أن كانت تراكمية، بمعنى التحول من المسار الخطي linear للتطور إلى مسار غير خطي non-linear.[287] في حقل "العلاقات الدولية"، يتجلى ذلك في إخفاق "النيوواقعية" و"النيوليبرالية" في التنبؤ بنهاية الحرب الباردة أو حتى تفسيرها وذلك رغم أنهما نسخ منقحة عدة مرات عن التقليد البحثي "الوضعي"/"العقلاني" في هذا التخصص.

لقد أتاح ذلك الفرصة، ومنح الشرعية، لدخول نظريات جديدة خط المنافسة من أجل تقديم فهوم تتمتع بصلاحية إمبريقية أكبر، وهذه "البارادايمات" الجديدة بالأساس التأملية والبنائية لم تستق أدواتها التحليلية من التقليد الوضعي السائد، ولا هي تبنت نظرة للعالم worldview متوائمة مع تلك التي دأب التقليد البحثي السائد على تبنيها. إذن، فهي ستطرح أحاجي علمية مختلفة، وبالتالي فهي تقدم بديلا متميزا، كما أنها تمثل تطورا نوعيا بل وربما قطيعة معرفية بمفهوم "باشلار" Bachelard.[288] إذ أن "البارادیمات" البديلة أثبتت بعض التفوق في إعطائنا فهوما، وذلك حيث التزم "التقليد البحثي المهيمن" "الصمت" أو ما دأب "ستيف سميث" Steve Smith على تسميته بـ silences، فإن نصوصها اكتسبت شرعية كافية لملأ أجزاء هامة من صفحات الكتب الأكاديمية

---

[286] توماس كون، ترجمة: شوقي جلال، '**بنية الثورات العلمية**' (الكويت: عالم المعرفة، 1992)، ص. 103.
[287] توماس كون، المرجع السابق، ص. 177.
[288] لمريد من التفصيل في مفهوم القطيعة المعرفية لدى "باشلار" أنظر: محمد عابد الجابري، '**مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي**'، ط. 6 (لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006)، ص. 463.

Textbooks. وإذا تغلبت إحدى هذه "البارادیامات" على منافساتها فإنها ستهيمن على الحقل في إطار ثورة معرفية مظفرة لصالحها.

عندما تحدث الأزمة المعرفية بظهور أعراض الإخفاق في الحصول على فهوم متبصرة للواقع باستعمال أدوات دأب التقليد البحثي المهيمن على تزويدنا بها، وعندما يصعب التخفيف من حدة هذه الأزمة عبر تنقيح "البارادايم" المهيمن، تحدث الثورة المعرفية ومفادها الانتقال إلى "نموذج قياسي إرشادي" (بارادايم) جديد، والذي ينطوي أيضا على تغيير في النظرة إلى العالم worldview. مما يجعل الحديث عن إمكانية مقارنة ما يزودنا به البارادايم الجديد والقديم غير متيسر، فكل منهما يستعمل لغة مختلفة، أدوات تحليلية متمايزة ويطرح أحاجي علمية متميزة أيضا، وهذه الوضعية يطلق عليها "كون" اللامقايسة Uncommensurability، فعندما نكون إزاء "نموذجين قياسيين إرشاديين" متعاقبين فإن النقاش غير ممكن لأنه لا جدوى من ذلك علميا، فضلا عن أن النظرية تقاس بالسياق الذي ظهرت فيه والظروف العلمية التي أنتجتها، فلكل نظرية مقاييسها الخاصة المستمدة من "البارادايم" الذي تم تفعيلها فيه.[289]

لكن ما يصعب تفسيره هو طول مدة الفترة الانتقالية من "بارادايم" لآخر فهل يعني ذلك تعايش "البارادیمات"؟ أم أن هذه المنظورات perspectives (باستعمال مفهوم فضفاض) ليست مؤهلة لتحمل وصف "النموذج القياسي الإرشادي" (البارادايم) وبالتالي فهي ربما أقرب إلى برامج بحث لاكاتوشية؟

المطلب الثالث: البرامج البحثية لدى "إمري لاكاتوش".

إن اهتمام "إمري لاكاتوش" (1922-1974) بمجال التأريخ للعلم يمكن فهمه باستحضار مقولته الشهيرة: "فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء".[290] وهي المقولة التي صاغها عن طريق تعديل قول "إمانويل كانط" المتواتر: "إن المدركات الحسية من دون تصورات عقلية عماء، والتصورات العقلية من دون مدركات حسية خواء"، وهنا يشبه وقائع تاريخ العلم بأنها محض مدركات عمياء، ونظريات فلسفة العلم محض تصورات عقلية فارغة، فلا معنى ولا جدوى ولا قيمة لأحدهما من دون الآخر.[291]

تأثر "لاكاتوش" في أعماله بفلسفة العلم سيما نظريته في المنهج (الميثودولوجيا) لكنه منحها فعالية وحركية تاريخية. غير أن أهم إسهاماته والتي تجسدت في مؤلفه: "ميثودولوجيا برامج

---

[289] توماس كون، المرجع السابق، ص. 221.

[290] إمري لاكاتوش Imre Lakatos (1922-1974) من بين أهم فلاسفة العلم في القرن العشرين، وهو يهودي مجري لقبه الأصلي "ليبشوتز"، تحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة كامبريدج.

[291] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 409.

الأبحاث العلمية"، فقد جاءت متأثرة بمفهوم "النماذج الإرشادية" لدى "توماس كون" وأيضا "الإستراتيجيات العقلية" عند "ستيفن تولمن".[292]

ويعتبر الحديث عن البرامج البحثية اللاكاتوشية وأهم رؤى "لاكاتوش" في هذا الشأن منقوصا قبل المرور على إحدى المفاهيم الابتكارية التي جاء بها وهي: تكذيب الفروض refutation، حيث يصر "لاكاتوش" على اعتبارها الخاصية المميزة للنظرية العلمية -وخلافا لما ذهب إليه "بوبر"- فإن النظرية العلمية ما يميزها ليس قابلية التكذيب المتضمنة فيها بل الأصح هو عدم إمكانية القيام بذلك.

ولفهم ذلك لا بد من العودة إلى أطروحة "دوهيم-كواين" Duhem-Quine Thesis:[293] تنص هذه الأطروحة على نقطتين أساسيتين: أولاهما أنه ولدى اختبار الفرضيات يجب الاستعانة عند تأويلها بالنسق العلمي الذي تولدت فيه هذه الفرضيات؛ ثانيهما، وهي النقطة الأهم، عدم تقويض أسس نظرية معينة في حال أثبتت القرائن الإمبريقية خطأ إحدى فرضياتها hypotheses، فالعلم لن يتمكن من خطو أية خطوة إلى الأمام إذا ما اعتمد هذه الطريقة في التقييم والتقويم، ويقترح "دوهيم-كواين" بدلا من ذلك تصورا آخر مفاده أن اختبار الفرضيات يجب ألا يتم بمعزل عن بعضها البعض، بل يجب وضعها في سلة من الفرضيات، وإذا ما تناقضت مع توقعات الباحث فيجب البحث عن الفرضية غير المتسقة مع البنية العامة للنظرية. المشكلة مع هذا الطرح هو السيناريو الذي يدحض فيه الاختبار مجمل الفرضيات، وهنا يتدخل "لاكاتوش" لتقديم الحل: حيث يقول أن البحث العلمي يجب أن يتم في إطار نسق معين يسميه "برنامج البحث" research program. يتشكل هذا البرنامج من نواة صلبة hard core يحتوي الافتراضات الكلية التي تستند عليها النظرية assumptions، وهذه النواة لا يمكن تكذيبها بواسطة الاستراتيجيات المنهجية السائدة؛ يضاف إلى هذه الحلقة حلقة من الافتراضات الأخرى التي تستخدمها النظرية لاستكشاف المزيد من الحقائق، تحسين قدرتها التحليلية، وتوسيع مجالها، وتكون هذه الحلقة بمثابة صمام أمان لحماية النواة الصلبة، وبالتالي، فإن دحضها بواسطة الشواهد الإمبريقية لا يمس النظرية. وفي الوقت ذاته، فإن تصور "برامج البحث" يتيح للنظرية التعامل بإيجابية مع عالمها دون الخشية من أن تنهار بفعل اختبارات سلبية.[294]

في حقل العلاقات الدولية تماثل النواة الصلبة الافتراض الواقعي بأن: الدولة هي الفاعل الأساسي في العلاقات الدولية وليس الفواعل فوق supra أو تحت sub الدولة، هذه النواة الصلبة محمية بما يسميه "لاكاتوش" negative heuristic أي أنها محصنة ضد محاولات استكشاف أو اختبار كل ما يتعلق بها طالما أن الباحثين المعنيين يعبرون عن انتمائهم لهذا البرنامج البحثي Scientific Research Program، فذلك ما يمنح هذا البرنامج SRP هويته، إن هو غيرها، بفعل هشاشة النواة الصلبة أمام الاختبارات الإمبريقية، فإن جل الباحثين سيتعين عليهم الهجرة إلى

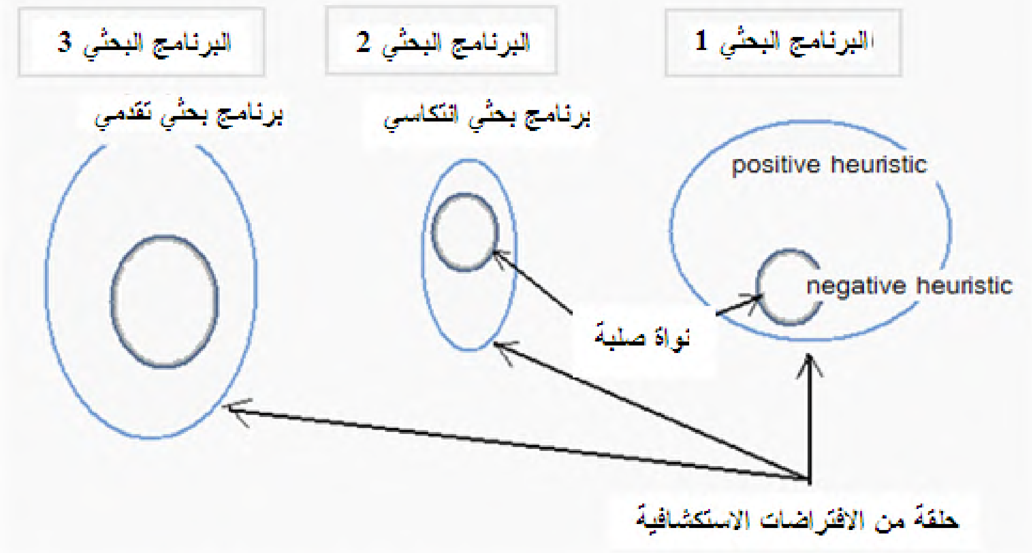
---

[292] المرجع نفسه.

[293] Donald Gillies, 'Lakatos' Criticisms of Popper', in George Kampis et al. (eds.) '**Appraising Lakatos: Mathematics, Methodology, and the Man** (US: Springer, 2002), p. 15.

[294] Donald Gillies, op cit., p. 16.

برنامج بحثي جديد New SRP. أما الحلقة الدفاعية المنهجية للنظرية الواقعية، حسب المفهوم "اللاكاتوشي"، أي صمام الأمان، فهو ينطوي على عدد من الافتراضات التي يمكن تعديلها وتكييفها حسب المعطيات الإمبريقية، كما أنها تلعب دور الأداة لتوسيع نطاق النظرية واستكشاف مجالات جديدة دون أن يعرض ذلك النواة الصلبة للخطر، ويماثل ذلك الواقعية الدفاعية (حيث الدولة تسعى لتعظيم القوة) والهجومية (حيث الدولة تسعى لتعظيم الأمن).[295]



إذا أخفقت الفرضيات المنتمية إلى الحزام الدفاعي الملحق auxiliary belt، وهو ما لم يحدث بعد في حالة الحزام الدفاعي Defensive Realism/ "الهجومي" Offensive Realism لدى الواقعيين، فإن النتيجة التي يفسر من خلالها "لاكاتوش" بقاء البرنامج البحثي حيا هي تحول

---

[295] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, 'Apprasing Progress in International Relations Theory: An Introduction', in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), p. 19.

في المشكلات التي يعالجها البرنامج، حيث أن الباحثين المنتمين لهذا البرنامج ليسوا مضطرين إلى تغيير النظرية أو ربما تغيير "الباردايم" ككل كما يطرحه "كون". ويطلق "لاكاتوش" على هذا التحول مصطلح "التحول نحو معالجة مشكلات أخرى" ضمن برنامج البحث ذاته intra-program problemshift، وهي الطريقة الوحيدة لحماية، ليس النظريات فحسب من الصعود والسقوط بشكل مزمن، بل لحماية البحث العلمي نفسه وضمان الحد الأدنى من التراكمية والتقدمية. وهنا يوضح "لاكاتوش" أن برامج البحث إما أنها تسير بمنطق تقدمي progressive [الواقعية] أو انتكاسي degenerative [الماركسية].[296]

الفارق بين المنطق التقدمي والانتكاسي هو أن البرامج البحثية الانتكاسية أو المنتكسة تصبح عاجزة عن تفعيل الفرضيات المنتمية للحزام الدفاعي الملحق، وذلك للحصول على اكتشافات جديدة أي تحقيق وثبات باتجاه تحصيل المزيد ميدانيا، فالبرامج البحثية لا يعترف لها بخاصية الثبات ومراوحة مكانها فإما أنها تتقدم أو تنتكس، ويحدث ذلك عندما تخفت منهجيتها الاستكشافية الإيجابية إزاء محيطها positive heuristic بما يجعل النواة الصلبة عرضة لتوظيف أدوات منهجية لتقويضها، وفي هذه الحالة تنهار النظرية لأنه يفترض بهذا الحيز أن يكون بمنأى عن عملية الاستكشاف والفحص المنهجيين negative heuristic.[297]

إذن، فـ "لاكاتوش" يصور التقدم العلمي بمثابة انتقالات متوالية من برنامج بحث أصبح منتكسا، إلى آخر يمتلك السمة التقدمية الواعدة، فالتأريخ للعلم توصل إلى أن فلسفة العلم ذاتها باعتبارها المرجعية الوحيدة لتقييم مسار التقدم: "لم تعد قواعد وطرقا لحل المشاكل العلمية كما كان يأمل فلاسفة القرن التاسع عشر، ولم تعد مجرد تبرير للمعرفة العلمية، إنما هي نظريات في العقلانية العلمية ومعايير لتمييز العلم وتعريفه، ومحكات لقبول ورفض النظريات العلمية تحاول أن تعطي صياغة لنمو المعرفة العلمية الموضوعية، أي للتطور العقلي الخالص، لذلك كانت فلسفة العلم أو ميثودولوجياته صياغة لعقلانية التقدم العلمي، أي نموه الإبستمولوجي الذي هو تطور عقلاني خالص".[298]

لقد حقق تصور "برامج البحث" لدى "لاكاتوش" نجاحا باهرا في الأوساط الأكاديمية، سيما الباحثين في مجال التأريخ للعلم historiography، حيث أصبحت المعالجات المختلفة لمسألة التقدم العلمي وتقديم تفسيرات مناسبة تعتمد على البرامج البحثية بشكل كبير نظرا للصعوبات التي اكتنفت محاولات وسمها بالثورات المعرفية "الكونية" Kuhnian، فذلك يفسر إلى حد بعيد وجود عدد معتبر من النظريات المتنافسة في العلاقات الدولية (النيوواقعية، النيوليبرالية، النيوماركسية، النيوكولونيالية، الجندر، البنائية،...). التعايش، إن صح التعبير، بين هذه المقاربات يؤكد أن الفترة الانتقالية التي تحدث عنها "كون" والتي تفصل بين "البارادايم" المنتكس أو المتقهقر، وظهور أعراض إخفاق عدة مسلمات فيه وبين تعويضه بـ"بارادايم" آخر كانت طويلة جدا، فإما أن منطق الثورة لدى "توماس كون" ليس دقيقا بما يكفي لوصف التقدم العلمي في العلوم الاجتماعية، طالما

---

[296] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.
[297] Ibid.
[298] يمنى طريف الخولي، المرجع السابق، ص. 414.

أنه صيغ بالأساس لتفسير وفهم مسار التطور المعرفي في الفيزياء (من "كوبرنيكوس" و"قاليليو" إلى "النيويتينية" وصولا إلى "النسبية" وأخيرا "ثورة الكوانتوم" وهي المحطات التي بنى على ضوئها "كون" نظريته).[299]

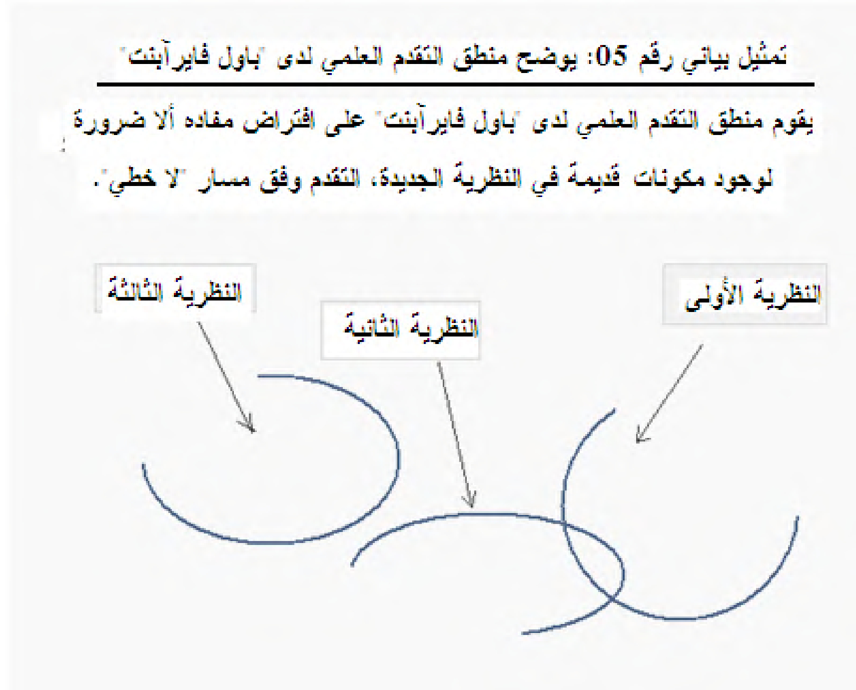
غير أن ذلك لم يكن حائلا دون تعرضه لانتقادات تخص الاتساق والدقة المنهجيتين. فمثلا حديث "لاكاتوش" عن البرامج البحثية الواعدة التقدمية التي تكتشف الجديد، مقابل البرامج البحثية الانتكاسية التي تراوح مكانها بل وتجد نفسها في موقع دفاعي، كان معيارا تصنيفيا جيدا، إلا أن النقطة التي أخفق "لاكاتوش" في شرحها هي: ما هو المعيار الذي يمكن أن نبني على أساسه الجدة، أي ما هي الأدوات الاتفاقية التي يمكن أن نحكم على ضوئها بجدة طروحات نظرية لبرنامج بحثي معين. الإجابة عن هذا السؤال ليست متيسرة لدى "لاكاتوش"، لكن يبدو أن صمود المقاربة النظرية أمام هزات إمبريقية متتالية يعد كافيا للحكم عليه بالتقدمية.[300] غير أن المشكلة التي تظل مطروحة في المنظور اللاكاتوشي للتحولات المعرفية تتمثل في عجزه عن تقديم تفسيرات للتحولات الكلانية باتجاه مسلمات جديدة ونماذج قياسية ابتكارية لا تربطها علاقة بالنموذج السائد، النقطة التي أخفق أمامها "كون" و"لاكاتوش" على حد سواء.

المطلب الرابع: "الفوضى المنهجية الخلاقة" لدى "باول فايرآبنت".

تعتمد بعض تفسيرات التحولات المعرفية على التراكمية كلية كانت أم جزئية، لكن مشكلة كبيرة تواجه هذه التفسيرات عندما يتعلق الأمر بثورة جذرية على المسلمات الشائعة، وهذه هي حالة النماذج التفسيرية التي طورت قبل ظهور فيلسوف العلم النمساوي "باول فايرآبنت" Paul Feyerabend (1924-1994)، هذا الأخير أدخل "نزعته النسبية" في المقاربة للمسألة سنة 1975 لدى إصداره كتابه المثير للجدل: "ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة".[301]

[299] John Vasquez, Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory, in Colin Elman and Miriam Fendius Elman (eds.), **Progrees in International Relations Theory** (UK: Mit Press, 2003), pp. 420-422.
[300] Colin Elman and Miriam Fendius Elman, op cit., p. 20.

[301] لفهم أعمق لمطارحات فايرآبنت، أنظر بالأخص: باول فايرآبنت. ترجمة: محمد أحمد السيد. **"ثلاث محاورات في المعرفة"** (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997).



لقد تضمن الكتاب قضايا مثيرة للجدل، من بينها أن التقيد بالمنهج لا ينطبق على الوضع التي كان/ويوجد/وسيظل عليها العلم، فالعلم بالأساس يعتبر "مسعى فوضوي" Anarchic Enterprise، إذ لا يجدي نفعا تقييده بسلطة منهجية لأن ذلك قد يحرمه من الابتكارية.[302]

وكانت أسانيد "فايرآبنت" الأساسية تعتمد على فحص عدد من التحولات المعرفية الكبرى في تاريخ العلم، حيث حاول من خلالها أن يؤكد وجهة نظره القائلة بأن الصرامة المنهجية لم تقف وراء هذه الوثبات لأن ذلك يحول دون الإبداع. وإذا تمعنا جيدا في رؤى "فايرآبنت" لا نجدها داعية إلى الفوضى المنهجية المطلقة كما يحاول بعض خصومه تصوير أطروحاته، بل هو مناصري "التعددية المنهجية" methodological pluralism، لذا توسم فلسفته للعلم بالعقلانية الفوضوية بما يفيد رفضه تنصيب سلطة على المعرفة تفتي بما يجوز من دونه منهجيا لدى مباشرة مسعى بحثي. فلا يجب أن نظفي على النسق المعرفي هالة من القداسة بحيث يمارس البحث العلمي وفق طقوس دوغمائية. لكن ورغم بساطة منطلقات "فايرآبنت" على ظاهرها إلا أنها حملت الكثير للمعرفة، فهي تنطوي على نظرة ديناميكية للقيمة value، فلم يعد مضمونها بذلك ليقارب له كمعطى لا يمكن مناقشته، فالقيمة يعتبر اتخاذ موقف منها ضروريا للحكم بالتقدمية أو الانتكاس مثلا، لكن من منظور "فايرآبنت" سيتعين أولا مراجعة المسلمات التقليدية وما نطلق عليه لفظة

[302] Donald J. Pushala, 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution', in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox, **'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox'**, (USA: University of South Carolina Press, 1992), pp. 44-47.

التقدم أو الانتكاسة، المعايير الاستاتيكية ذاتها مبنية على القيمة (البعد الأكسيولوجي للمدخل الفلسفي) وبذلك فإن مدلولاتها تخضع بدورها للمراجعة.[303]

لقد ذهب "فايرآبنت" إلى أبعد من ذلك من خلال الدعوة إلى حماية المجتمع من العلم (أي العلم كما يسوقه الوضعيون)، تماما مثلما نسهر على حمايته من هيمنة أيديولوجية واحدة ونصون التعددية السياسية، فإنه يجب الحيلولة على أن يخضع العلم لوصاية نهج فكري معين، وقد انتقد "فايرآبنت" بشدة استمرار الوصاية التي تفرضها الدولة على العلم عبر التمويل، حيث شدد على ضرورة محاكاة عملية فصل الدين عن الدولة وذلك بفصل العلم عن الدولة أيضا بالطريقة ذاتها. ذلك أن وصاية الدولة على العلم متجسد فعليا عبر رعايتها لغالبية المؤسسات التعليمية مقابل تنميط المناهج، المناهج العلمية بالأساس مما قد يضيق مجال الإبداع. ومن هنا فإن الحل يكمن في علمنة للعلم تماما مثل علمنة السياسة. إن الادعاء بأن المنظور العلمي وحده لديه شرعية امتلاك الحقيقة بدعوى أنها أفضل من يمثل العقلانية، متناسية أنها مجرد نسخة واحدة للعقلانية، وهناك أنساق عدة للعقلانية لا يمكن الاستهانة بقدرتها التحليلية، فضلا عن أنها ليست خاطئة قياسا بمعايير تحديد الصحة والصلاحية الخاصة بها، ذلك أن "فايرآبنت" مثله مثل "كون" يؤمن بأن العقلانيات المختلفة أو الأنساق العقلانية المختلفة لامتقايسة incommensurable. ولهذا السبب، فإن عديد العقلانيات الموجودة في المشهد المعرفي لا يمكن المقارنة بينها ولا جمعها في توليفة تحليلية واحدة، فهي توظف تصورات متميزة في لعبة لغوية تحتكم لقواعد متميزة. وهنا نجد "فايرآبنت" يستعين بفيلسوف نمساوي آخر هو "لودفيغ فيتقنشتاين" Ludwig Wittgenstein (1889-1951) والذي اعتبر أشكال الحياة بناء تسهم فيه "العبة اللغة" language game، ما يميز شكلا عن الآخر أو ما يميز لعبة عن الأخرى هو قدرة المفاهيم التي تنبني عليها هذه اللغة على التعبير، وكما يقول "فيتقنشتاين" فإننا عندما نعجز عن التعبير فإننا نلتزم الصمت، ولكن التزام الصمت إزاء قضايا عدة هو ما يمنح اللغة هوية معينة.

وبعد استعراض أهم ثلاثة طروحات تحاول تفسير التقدم العلمي، فإن المباحث التالية تهدف إلى رصد التحولات المعرفية في حقل علم السياسة والعلاقات الدولية من منظور الثورات والبرامج والثبات المعرفية التي تم التفصيل فيها.

---

[303] Ibid., pp. 51-52.

المبحث الثاني: مسار تطور علم السياسية والتفسير "الكوني"-"اللاكاتوشي".

يعتبر الحقل المعرفي لعلم السياسة الحاضن لتخصص العلاقات الدولية، فأغلب الجامعات تقترح هذا التخصص عقب استيفاء الطالب لعام كامل أو عامين من دراسة أساسيات علم السياسة. ولذا كان من الضروري وضع التحولات البارادايمية في حقل العلاقات الدولية في سياقها المعرفي الأوسع، والنظر فيما إذا كان النقاشات النظرية في العلاقات الدولية مجرد انعكاس لنقاشات تمحورت حول المسائل ذاتها في علم السياسة، أم أن تطور حقل العلاقات الدولية كانت له هوية مستقلة ومتميزة.

لكن من المهم الإشارة إلى محاذير معينة لدى تأريخ علم السياسة، ذلك أن أغلب الباحثين الذين تناولوا الموضوع، حسب "إيلكا هايسكانن" Ilkka Heiskanen لم يخرجوا عن المقاصد التالية:[304]

- محاولة شرعنة البارادايم المهيمن على الحقل المعرفي؛
- السعي لإقناع المانحين بأهمية ودور علم السياسة؛
- التعرض لتاريخ تطور الحقل لدى تأليف كتاب دراسي موجه لطلبة علم السياسة؛
- دراسة نقدية تهدف إلى إعادة توجيه علم السياسة في منحى آخر؛
- إعطاء تأويلات جديدة لتاريخ الفكر السياسي؛
- عالم اجتماع يسعى لصياغة نظرية حول السياسة من خلال إعادة بناء أنماط التفكير المتأصلة في المجتمع في فترات تاريخية متعاقبة.

وفي سياق هذه المحاذير يحاول هذا المبحث الاستعانة برؤى مختلفة من أجل ترجمة التحولات الأساسية في علم السياسة.

المطلب الأول: إرساء علم السياسة وأهم محطات تطوره.

يعود الفصل في إرساء أسس علم السياسة كتخصص أكاديمي يحظى بالاهتمام إلى 1903 عندما تم تأسيس "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" حيث ساهم ذلك في إعطاء هوية للحقل، ومنذ ذلك الوقت فقد مر مسار تطور هذا التخصص عبر خمس مراحل، تميزت كل واحدة منها بسعي إحدى التوجهات المعرفية للهيمنة عليه:[305] مرحلة سيادة "النزعة الدولاتية" State-centred (التمحور حول الدولة وجعلها مرجعية للتحليل)، وهي النزعة التي رافقت مسيرة هذا الحقل خلال بواكير سعيه لاكتساب المهنية؛ مرحلة سيادة "النزعة التعددية" Pluralism: وقد برز هذا التوجه

---

[304] Ilkka Heiskanen, 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimation, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation,' in Dag Anckar and Erkki Berndtson (eds.), **Political Science Between the Past and the Future** (Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988). pp. 119-120.

[305] John S. Dryzek, 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science', **American Political Science Review** 100 (04) 2006, p. 487.

مع نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين مطالبا باهتمام التحاليل السياسية بفواعل آخرين غير الدولة؛ مرحلة سيادة "النزعة السلوكية" Bahavioralism (ظهرت منتصف القرن العشرين)؛ الاتجاه نحو إرساء "علم سياسة جديد" New Political Science (وذلك خلال نهاية الستينيات وبداية التسعينيات)؛ التيار المعروف حديثا بـ "بريسترويكا علم السياسة" (تزامن ظهوره مع بدايات القرن الحادي والعشرين).

بالنسبة لـ"جون س. دريزك" John S. Dryzek فإنه ومن بين التوجهات المعرفية الخمس، وحدهما "التعددية" و"السلوكية" استطاعتا إحداث تحول معرفي بالمفهوم "الكوني" Kuhnian ما يعني أن الاتجاهات الأخرى تمثل مجرد برامج بحثية بمفهوم "الاكاتوش". ويحاجج "دريزك" بأن سر نجاهما هو عدم تعرضهما لأية مقاومة داخل الأوساط الأكاديمية، على أنها تعرضت لاحقا لانتقادات ومقاومة من قبل تيارات نظرية أخرى، لكن بعد أن كللت ثورتها المعرفية بالنجاح.[306]

إن الهدف المتوخى من تأسيس مدرسة فكرية جديدة هو الهيمنة على المشهد العام للتخصص من خلال الادعاء بامتلاك فهوم متكاملة حول موضوع الدراسة والبحث لهذا التخصص، وذلك عبر صياغة أجندة جديدة للبحث على أنقاض الأجندة التي اعتمدها الحقل المعرفي عندما كانت مدرسة معرفية أخرى تهيمن عليه. وبالنسبة لـ "دريزك" فإن إطلاق الوصف المناسب على هذه المساعي مسألة مهمة، فبعضها كان بمثابة "ثورات معرفية كونية" استطاعت إحداث قطيعة مع واقع التخصص في السابق، أما البعض الآخر فقد كان مجرد "برامج بحثية لاكاتوشية" مثل "الوظيفية البنيوية" structural functionalism أو البيوسياسة bio-politics. يختلف "بيرسن" و"سكوكبول" Pierson وSkocpol مع وجهة النظر هذه ويرتأيان أن تطور الحقل عرف ظهور ثلاثة بارادايمات كبرى لا أكثر وهي: "السلوكية" و"العقلانية" و"المؤسساتية".[307] لكن من حيث المبدأ يبدو أن هناك اتفاقا ضمنيا بين الطرحين، فـ "دريزك" يتحدث عن نجاح مسعيين لإحداث تحول "بارادايمي" في الحقل وهما: الدولاتية والسلوكية بمعنى أنهم يستبعدون نجاح المساعي من "أجل علم سياسة جديد" في تغيير أجندة الحقل بشكل كلي. والتوافق الضمني هنا يكمن في أن المؤسساتية امتداد للنزعة الدولاتية بينما تنطوي الاثنتين على العقلانية. والجدول التالي يوضح بدقة أهم تطور علم السياسة من منظور "الثورات البارادايمية".

المطلب الثاني: دور الثورة المعرفية دولاتية-التوجه في إرساء تخصص العلوم السياسية.

تمحور الخطاب العلمي لهذا الحقل المعرفي على الدولة ابتداء من "فرانسيس ليبر" Francis Lieber، والذي عين كأول أستاذ لعلم السياسة بجامعة كولمبيا الأمريكية عام 1857، وصولا إلى "وودرو ويلسن" Woodrow Wilson وغيرهما من الباحثين، وخلال هذه الفترة كانت المهمة الرئيسية لعلم السياسة إرساء "دولة قومية موحدة" و"مواطنة فاضلة".[308] وقد تبنى

---

[306] Ibid.

[307] David D. Laitin, 'The Political Science Discipline', in '**The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics**' (USA: Ohio State University Press, 2003), p. 16.

[308] John S. Dryzek, op cit., 487.

هذا الخطاب غاية معرفية مهمة هي البحث عن القوانين التي تحكم توزيع السلطة بين مؤسسات النظام السياسي للدولة، وبذلك فقد انصب البحث على النصوص الدستورية وما تقوله بشأن التزامات الأفراد الذين يعينون في مراكز سلطوية وحدود صلاحياتهم. وهكذا هيمن تصور الدولة على أجندة علم السياسة في الولايات المتحدة مع نهاية القرن التاسع عشر، حيث ساهم في منح هذا الوزن للدولة وجوه أكاديمية تحولت إلى رموز لعلم السياسة الناشئ، بالأخص "وولتر باقو" Walter Baghot في بريطانيا و"وودورو ويلسن" في الولايات المتحدة.[309]

إن اعتماد تصور الدولة وجعله محورا للنقاش في علم السياسة ليس بالشيء الجديد كليا، حيث سبق لما اصطلح على تسميته بالنقاشات الدستورية بين "الفدراليين" في الولايات المتحدة أن أولت عناية كبيرة بهذا الموضوع. كما أن "ويلسن" لم يكن وحيدا في تصوره لنظام سياسي تؤطره أحزاب سياسية منضبطة تقترح سياسات عقلانية معدة بعناية، لناخبين واعين بخياراتهم، وعلى ضوء نتائج الانتخابات، يقوم الكونغرس بإقرار السياسات التي تمت تزكيتها، لتعكف على تنفيذها بيروقراطية تتمتع بالخبرة وتطبق أفضل ما جاد به علم الإدارة. لقد صاحبت هذه الدعوة للفضيلة دراسات إمبريقية عدة دأبت على تحليل المؤسسات الأمريكية وكشف مختلف مظاهر الشرخ، والجهوية، والمحسوبية والفساد. هذا النوع من الأبحاث جسده مُؤلف "ويلسن" نفسه المعنون: "الحكومة البرلمانية" والذي صدر في 1885 أي في غمرة تأسيس الحقل.[310]

إن تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة في هذه الفترة –فترة التأسيس- انطوت على أهداف معيارية وبالذات السعي من أجل إقامة دولة قومية موحدة وأمة تمتع بالإرادة والقدرة لتحقيق هذا الهدف. وفي هذا الاتجاه أشار "فرانك قودناو" Frank Goodnow في معرض حديثه أمام "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA، حول دور علم السياسة في تحقيق "إرادة الدولة": "أحيانا تنشأ التحالفات السياسية لهذا الغرض (تحقيق إرادة الدولة)، خاصة الحركة التقدمية، لكن الهدف الذي وجد من أجله هذا المشروع يتمثل بالأساس في مكافحة الفساد، الزبونية، الماكنة الحزبية، المحاباة، والجهوية، وهي المظاهر التي سعت النزعة الدولاتية إلى محاصرتها، تماما مثلما عملت على إصلاح النظام الذي أرسى أسسه "توماس ماديسون"، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، هذا النظام أصبح غير ملائم للتحولات الاجتماعية الناجمة عن الثورة الصناعية".[311] يدعم ذلك وجهة نظر "دايفيد بوستن" David Boston القائلة بأنه خلال هذه الفترة من تطور علم السياسة انتفت الخطوط الفاصلة بين أجندة البحث وأجندة الباحثين ويعود ذلك في جزء كبير منه إلى الفوضى التي كانت مستشرية على الصعيد المنهجي.[312]

على الرغم من أن أصحاب النزعة الدولاتية [الدستورية] كانت لديهم مآخذ على الجانب المنهجي لأعمال من يصفونهم بـ "التعدديين" pluralists [المنادين بتعدد الفواعل المشاركين في صناعة القرار السياسي وعدم حصر الفعل السياسي في المؤسسات السياسية الدستورية للدولة]، فإن طلائع الثورة الموسومة بـ"التعددية" pluralism الذين طالما وصف أتباعها بـ"الهواة" في

---

[309] David Boston, 'The Political Science in the United States: Past and Present', in David Easton et al. (eds.), '**The Development of Political Science: A Comparative Survey'** (UK: Routledge, 1991), p. 276.
[310] John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[311] Frank Goodnow as quoted in John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[312] David Boston, op cit., p. 276.

مقابل "الدولاتيين" الذين أضفوا الطابع الانضباطي على الحقل، لم يكونوا بأسوأ حالا في هذا الجانب من "الدولاتيين المحترفين". منهجية البحث لدى هؤلاء جميعا لم تكن تخضع لقواعد يمكن تقفي أثرها أو مراجعتها لأنها كانت تنطوي ببساطة على عملية تجميع فوضوي للمعطيات وتقديمها بطريقة وصفية بحتة، وربما كان الوضع أفضل بقليل لدى ذوي النزعة التعدية، حيث أنهم استطاعوا الذهاب إلى ما هو أبعد من الوصف، بل وتمكنوا بفضل ذلك، من فهم بعض ديناميكيات الفعل السياسي بطريقة تفوق الفهم "الدولاتي" State-based.[313]

لقد اتسمت المنهجية في هذه الفترة –فترة التأسيس- التي يطلق عليها الباحث "دايفيد بوستن" وصف الفترة الكلاسيكية بأنها كانت مجالا غير رسمي، وهو نوع من التناقض فـ"الدولاتية" ركزت أجندتها البحثية على الدولة والمؤسسات الرسمية لكنها اعتمدت في ذلك على أدوات لم تكن تكتسي الطابع الرسمي في العلوم الاجتماعية نهاية القرن التاسع عشر. ذلك أن المنهجية لم تكن تطرح أية مشكلة بالنسبة للدولاتيين الكلاسيكيين "المحترفين" أو للتعديين الثوريين "الهواة"، لأن مجال البحث والتحليل للظواهر السياسية كان مفتوحا للجميع سيما القادمين من حقول معرفية مجاورة لعلم السياسة. وقد ساهم ذلك في إبطاء تطور هذا الحقل المعرفي، لأنه وفي غياب منهجية واضحة لم يكن يتسنى لأي كان تقييم الدراسات السابقة وبالتالي تقويم وتحسين الأدوات المنهجية، أهم عامل كان سيساهم في دفع هذا التخصص قدما وفي وقت مبكر.[314]

المشكلة الأخرى التي طرحت في هذه المرحلة وهي بطريقة ما تعتبر نتيجة منطقية للمشكلة الأولى (أي غياب منهجية واضحة)، تتمثل في اختراق القيم لأجندة البحث فالحقائق والقيم لم يكن من السهل التمييز بينهما في النصوص "العلمية" التي صدرت خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما لم يكن من السهل فهم ما إذا كان البحاثة يتحدثون عن خياراتهم الشخصية أم عن أولويات البحث أم حقيقة عمل المؤسسات الدستورية التي يزعمون دراستها، وهو مشكل ظل قائما حتى مع ظهور تحدي "أنطولوجي" للدولاتيين يتمثل في النزعة التعددية.[315]

المطلب الثالث: أول تحدي بارادايمي في حقل علم السياسة-البارادايم التعددي.

خلافا لما قد يعتقد البعض، فإن ازدياد قوة التحدي المعرفي الذي واجهته النزعة الدلاوتية لم يكن مصدره باحثون من خارج هذا البارادايم بل من داخله، فـ "بيقهوت" و"ويلسن" كانا أول من انتبه إلى أنه وخلف المؤسسات الرسمية للدولة كان هناك مؤسسات غير رسمية فاعلة وتمارس ضغطا معتبرا على عملية صناعة القرار. ويضربون مثلا على ذلك اللجان غير الرسمية في المؤسسة التشريعية وفي الأحزاب وعدد من مجوعات الضغط الناشئة.[316]

وربما كانت طبيعة النظام السياسي الأمريكي هي ما ساهم في نمو التحاليل التي تأخذ بعين الاعتبار خاصية تعدد الفواعل، هذه الخاصية التي ورغم أن "الدولاتيين" يقرون بها إلا أنهم يعتبرونها مشكلة يتعين حلها لا وضعية ينبغي تثمينها، هذه هي الحقيقة التي يشير إليها مؤلف "آرثر

---

[313] Ibid.
[314] David Boston, op cit., p. 276.
[315] Ibid., p. 277.
[316] Ibid.

بنتلي" Arthur Bently المعنون: "عملية الحكم" The Process of Government والذي يعتبره السلوكيون أحد رواد السلوكية التعددية. وفي كتاب آخر أصدره لاحقا بعنوان: "صانوا القرار، المعنيون بالقرار والمتحكمون في اللعبة السياسية" Makers, Users and Masters عبَر "بنتلي" عن إدانته لهيمنة مجموعات المصالح على السياسة الأمريكية، وهو ما يتفق مع أحد أسلاف السلوكية "تشارلز ميريام" Charles Merriam والذي دعا في مؤلف نشره خلال العشرينيات من القرن العشرين إلى تقوية الديمقراطية وتعزيز التحكم في العملية السياسية والرعاية الاجتماعية.[317]

لكن ومع أن نظام الدولة المركزية قد تعرض للنزيف مع فقدانه للتحكم في العديد من الأجهزة، إلا أن تقديس الدولة استمر خلال العشرينيات لأنها كانت تلبي تطلعات معيارية،[318] منها صعود التيارات القومية في أوربا.

غير أن التعددية المعيارية أضحت تحتل حيزا متزايدا مع ظهور مؤلفات "هارولد لاسكي" Harold Laski (1917) و"ماري بيركيت فوليت" Mary Parket Follet (1918). كان كل من "لاسكي" و"فوليت" متأثرين بفلسفة "وليم جيمس" التي شددت على نبذ تحكم الدولة ومنحها حقا حصريا لإدارة شؤون الفرد، فهذا الأخير يمتلك طرقا عدة يمكن له من خلالها إدارة شؤونه. ومن هنا يمكن استشفاف حقيقة أن مفهوم التعدد لدى ذوي النزعة التعددية لا يرتكز على تعدد المصالح بل على تعدد الوسائل. أما "فوليت" فقد كانت من دعاة تنظيم المجتمع في جماعات من للقاعدة باتجاه القمة، معارضة بذلك الهندسة الاجتماعية التي كانت تعتمد على الاتجاه العكسي من القمة باتجاه القاعدة. وهي بذلك تختلف مع "الدولاتيين" في تقديسهم لدور الوصاية التي تمارسها الدولة. لقد طرحت "فوليت" سؤالا مهما للدولاتيين: ما الذي يمكن عمله بالتعدد؟ لكن الدولاتيين قدموا إجابة بسيطة: "كل ما يجب فعله بالتعدد هو إزالته".[319]

هذه النظرة الاستعلائية لـ"الدولاتيين" لم يكن لها ما يبررها إمبريقيا، لكن إخفاق "ذوي النزعة التعددية" كان منهجيا بالأساس، وإلا لكانت دراسات من قبيل تلك التي قام بها "ميرل فينسود" Merle Fainsod عام 1940 ستحظى بالنجاح نظرا لثوريتها سيما تصوره المتعلق بالقوى المتجاذبة parallelogram of forces، وفيه يتحدث عن القوى التي تتجاذب القرار قبل استصداره على مستوى الهيئات التشريعية أو الإدارية، حيث تخضع العملية برمتها لضغوط من المجموعات المجتمعية ومجموعات الضغط والرأي العام، ويتم ذلك باستخدام مساومات وصناعة توافقات إلى أن يتم تحصيل التوازن المطلوب لاستصدار القرار، مثل هذه التحاليل يبدو أنها تجاوزت السياق الزمني الذي كتبت فيه بعقود.[320]

لقد حاول "دريزيك" فحص مدى ثورية الطرح التعددي فوجد أنه بالنسبة لبعض الباحثين، يعتبر صعود هذه "النزعة التعددية" في العشرينيات بمثابة الثورة المعرفية الحقيقية الوحيدة التي

---

[317] John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[318] Ibid.

[319] التعدد المقصود هنا (لدى رواد الاتجاه التعديين) ليس التعددية الحزبية التي تعتبر ركيزة الديقراطية الغربية بل التعدد في الآليات التي يمكن من خلالها حكم المجتمع بمعنى عدم الاكتفاء بالمؤسسات الحكومية طالما أن المجتمع الأمريكي ذي الخلفيات الإثنية والاجتماعية المتباينة لدي تجارب يكون قد استقدمها من مواطن أخرى، أنظر: John S. Dryzek, op cit., p. 488.

[320] David Boston, op cit., p. 276.

شهدها علم السياسة في الولايات المتحدة، فـ "جورج كاتلين" George Catlin، أحد المدافعين عن "النزعة لتعددية" كان يرى أن التعدد يعود على اختلاف مصالح المجموعات المشكلة للنسيج الوطني، لا على تعدد تجارب هذه المجموعات (ووسائلها)، وهو ما يتفق مع الافتراضات السلوكية، مما يؤكد على القول بأن التيار السلوكي لم يكن ثوريا بل مجرد استمرار لتحول النموذج الإرشادي الذي قاده "كاتلين" التعددي ينطوي على بعض الصحة.[321]

لكن، وحسب "دريزيك"، فإن التمعن في أعمال "كاتلين" يساعدنا على استشفاف وجود تقارب كبيرا بينه وبين "الاتجاه الدولاتي" الذي كان بمثابة التقليد البحثي السائد خلال تلك الفترة، فـ"الدولاتيون" أنفسهم كانوا يعترفون بوجود التعددية باستثناء أنهم كانوا يرون فيها مشكلة يتعين حلها. ومن هنا يتضح أن الشيء الثوري الوحيد لدى التعدديين هو الشق المعياري لطرحهم. طرحهم هذا لم يحض بالقبول في علم السياسة إلا في خمسينيات القرن العشرين. وحينها فإن الصيغة المتبناة للتعدد هي تلك التي ترتكز على تعدد المصالح لا على تعدد القيم.[322]

المطلب الرابع: التحول البارادايمي الأول في علم السياسة–السلوكية-

بعد قرابة نصف قرن من سيطرة "البارادايم الدولاتي"، ومع إخفاق "البارادايم التعددي" في تحويل أجندة البحث في علم السياسة عن اهتماماتها الأنطولوجية، فإن ظهور "البارادايم السلوكي" استطاع إحداث تحول جدي لكن على المستوى المنهجي، التي كانت بمثابة نقطة الضعف الرئيسية في "البارادايمات" السابقة. وهكذا فقد تبنى "الاتجاه السلوكي" نزعة علمية متطرفة موضوعها التعددية في شقها المتعلق بالمصالح لا القيم، أي ذلك التعدد الذي يقبع تحت مظلة التوافق حول المنطلقات والأسس بين جل المصالح الاقتصادية المتعارضة. ولم يمر وقت طويل، أي مع نهاية الستينيات فقط، ظهرت كتابات عديدة تشيد بانتصار السلوكية، وأعطى ذلك انطباعا بأن "السلوكية" ثورة تحصلت على رضا الأكاديميين بفضل نجاحها في إعادة صياغة أجندة البحث، كنتيجة لإسهامات المؤيدين والخصوم على حد سواء، وأبرزهم على الإطلاق العلماء الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل "هانتس مورقنتهاو" Hanz Monrgenthau و"ليو شتراوس" Leo Strauss الذين أربكوا الأوساط الأكاديمية بانتقاداتهم اللاذعة لواقع التحليل السياسي في علم السياسة والذي يفتقد حسبهم للتأصيل النظري والتوجيه المنهجي.[323]

لكن مع ذلك يحق لنا التساؤل: إذا كانت السلوكية ثورة معرفية، فضد من أعلنت هذه الثورة؟ كان خطاب الثوريين يتحدث عن توجيه ثورتهم المعرفية ضد "علم السياسة التقليدي" الذي يعتمد المنهج التاريخي والمغالي في واقعيته حسب "دايفيد إستون" David Easton؛ لكن من هم الباحثون الذين وسمت أعمالهم بـ"التقليدية"؟ ذلك سؤال لم يجب عنه السلوكيون الذين ظلوا صامتين

[321] John S. Dryzek, op cit., p. 488.
[322] Ibid.
[323] Robert Adcock, 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al. (eds.), '**Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880**' (USA: Princeton University Press, 2007), p. 189.

إزاء هوية خصومهم، أو الأعمال والمؤلفات التي تمثل هذا "الاتجاه التقليدي" في علم السياسة، فكتاب Garceau (1953) الذي يتضمن مراجعة استعراضية يخلوا من أية إشارة سلبية كانت أم إيجابية لهوية خصوم السلوكية.[324] وهو وضع يختلف كثيرا عن واقع الحال في العلاقات الدولية إبان ما اصطلح على تسميته بـ"النقاش النظري الثاني" second great debate، حيث كان خصوم النزعة العلمية السلوكية (الواقعيين الذين تمسكوا بنزعته المنهجية التاريخية) معروفين بل وأكثر نفوذا في الأوساط الأكاديمية وفي أوساط صناعة القرار على حد سواء.[325]

بدأت ملامح الثورة السلوكية تتضح أكثر عبر صفحات المنشورات التي ظهرت بين عامي 1951-1952، حيث أكدت نقطتين أساسيتين: تبني التعددية كمنطلق أنطولوجي والتخلي عن الأحادية الدولاتية، لكن مع تحول مهم وهو الاهتمام بسلوك الفواعل لا ببنيتهم المؤسساتية؛ إعطاء أهمية أكبر لطريقة دراسة السلوك السياسي دون المجادلة بشأن من يستحق أن يكون بمثابة مرجعية للتحليل، وينطوي ذلك كله على البحث عن الأنماط النظمية systemic التي يمكن أن نخلص إليها عبر الدراسة المنهجية للسلوك السياسي.[326]

يعتبر "دايفيد إيستون" من خلال كتابه المعنون: "النظام السياسي" والذي صدر في 1953، من أبرز منظري الاتجاه السلوكي، ويمكن استشفاف نقمته على الوضع القائم في الفصل الثاني من كتابه، والذي يتحدث فيه عن حالة عدم الرضا بين أخصائيي علم السياسة، وقد أثار محتوى هذا الجزء من الكتاب سجالا فكريا كبيرا، لكن المثير في الأمر هو أن حواشي الفصل التي يبلغ عددها 28 لا تشير إلى أي عالم سياسة أمريكي يمكن إدانته بالمغالاة في الاهتمام بالحقائق الإمبريقية Hyperfactualism على حساب الدراسة العلمية المتسقة وما نجم عنه من إخفاق في صياغة نظريات متسقة.[327]

تأكيدا لتمسكه بموقفه أصدر "إيستون سنة 1984 مؤلفا آخر يقول فيه أن علم السياسة التقليدي ظهر خلال عشرينيات القرن العشرين، حيث تضمن في أجندته البحثية الاهتمام بالأحزاب ومجموعات الضغط على حساب الدولة، وكنموذج للتأكيد على مزاعمه أشار إلى "بنتلي" و"بندلتون هيرينغ" مغفلا حقيقة أن "بنتلي" اختفى من المشهد الأكاديمي في 1953، وقبل حدوث ذلك فإن "بنتلي" نفسه تحول إلى واحد من المتحمسين للسلوكية. أما "هيرينغ" ورغم أنه عاش حتى فترة صعود الاتجاه السلوكي في الخمسينيات، إلا أنه لم يعارض "السلوكيين" بل ساهم بشكل فاعل عام 1949 في تأسيس "لجنة السلوك السياسي" تحت مظلة "مجلس البحث في العلوم الاجتماعية"،

---

[324] John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[325] للحصول على مراجعة معاصرة للنقاش النظري الثاني وأهميته في العلاقات الدولية أنظر:
Friedrich Kratochwil, 'History, Action and Identity: Revisiting the Second' Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory', **European Journal of International Relations** 12 (01) 2006. pp. 5-29.

[326] Robert Adcock, op cit., p 189.

[327] تعتبر مسألة غياب خصوم للثورات المعرفية التي نجحت في تحويل أجندة الحقل أهم نقطة ركز عليها "دريزيك" في مقاله ولتأكيد وجهة نظره هذه فهو يشير إلى أن "إيستون" في الفصل الثالث من كتابه: "النظام السياسي" حاول تقديم نموذج عن خصومه فأشار إلى "جيمس برايس" James Bryce رغم أن كتابات هذا الأخير تعود إلى نصف قرن مضى، أما في الفصل العاشر، فقد انتقد "إيستون" لجوء منظري علم السياسة إلى تاريخ الفكر السياسي لكنه لم يجد من يدينه بذلك سوى George Sabine. أنظر:
John S. Dryzek, op cit., p. 489.

والتي ترأسها هو شخصيا، وقد كانت هذه اللجنة المدخل الذي نفذ من خلاله "السلوكيون" إلى APSA، كما كان لها دور حيوي في تمويل الثورة السلوكية ورعايتها مؤسساتيا.[328]

لقد خلص "دريزيك" في دراسته المتميزة إلى أنه لم يستطع إيجاد أي مصدر للخصومة بين "السلوكية" وأي خصم مفترض سواء المقاربة المؤسساتية القانونية باعتبارها نقيضا آخر لـ "النزعة العلمية" التي يدعي "السلوكيون" الدفاع عنها أو أية مقاربة أخرى. فميدانيا وعلى صفحات الدوريات لم يكن هناك باحث واحد في معسكر "المناوئين للنزعة العلمية"، حيث أن مثل هذا التوجه كان على الدوام توجها هامشيا في الحقل المعرفي لعلم السياسة، وهو ما تأكد قبل نصف قرن من ظهور السلوكية نفسها، أي لدى تأسيس APSA عام 1903، حيث أشار مؤسسوها إلى أن أحد أهداف APSA هو: "تشجيع الدراسة العلمية للسياسة". وطالما أن السلوك، والعلم، والتعددية والنظام هي أهم سمات "السلوكية"، فإنه لا مبرر لاعتراض التقليديين عليها، ذلك أن بحوثهم لطالما تناولت السلوك على المستوى الفردي سيما خلال الثلاثينيات والأربعينيات. وحتى الباحثين الذين لم يدرسوا "السلوك" لم يبدوا اعتراضا على القيام بذلك. لقد كانت "النزعة العلمية" قائمة حتى قبل مجيء "السلوكيين"، إذن ما الجديد الذي جاءت به السلوكية؟ فحتى تصور النظام السياسي الذي جاء به "إيستن" قدم مصطلحات جديدة (المدخلات inputs، المخرجات ouputs، والارتداد الارتجاعي feedback)، ولكنه لم يزودنا بنظرية جديدة شاملة لعلم السياسة. إن الجديد الذي جاءت به السلوكية ويجعل منها ثورة معرفية غير مسبوقة إحداثها تغييرات جذرية في توجهات قائمة سلفا في علم السياسة، هذه المجالات المنتقاة هي السلوك، العلمية، التعددية، الوصف مقابل التفسير في الجوانب النظرية. بدء بالسلوك، حيث اعتمد السلوكيون على الدراسات المسحية التي تستند إلى مجتمع إحصائي أوسع، كما عمد إلى زيادة وتيرة الدراسات الكمية التي تصدرت صفحات الدوريات العلمية الرئيسة في التخصص.[329]

زيادة على التفوق المنهجي الذي أبداه السلوكيون، فإن عوامل أخرى موضوعية تكون قد ساهمت في إنجاح الثورة المعرفية لـ"البارادايم السلوكي" ومنها تبنيهم لـ"أسطورة" علم سياسة يتبنى الحياد إزاء القضايا السياسية، لكنهم بسيطرتهم على APSA فإن السلوكيين قدموا خدمة جليلة للنظام السياسي الأمريكي في غمرة الفوضى التي تخبط فيها نهاية الستينيات، بسبب إخفاق التدخل العسكري في فيتنام، والتداعيات الداخلية لاغتيال "كينيدي" [22 نوفمبر 1963] و"مارتن لوثر كينغ" [04 أفريل 1968] وتصاعد حدة المطالبات النسوية، وفي غضون ذلك استفحال الخطاب المناوئ لليبرالية لعدد من العلماء الألمان الذين هاجروا إلى أمريكا مثل "إيريك فوقلين" "هانا

---

[328] في مؤلفه هذا جدد "إيستون" مآخذه على التقليديين مثيرا خلطهم للحقائق والقيم، وإطنابهم في وصف الظواهر السياسية دون تقديم تفسيرات وافية، يضاف لذلك كله إسهامهم بالقليل من النظريات الفضفاضة، وانتهى "إيستون" إلى اعتبار كتاب "القوى المتوازية" لـ "ميرل فينسود" Merle Fainsod بمثابة النظرية غير المعلنة لـ "التقليديين". ومعروف أن فينسود في كتابه هذا حاول تفسير عملية صنع السياسة بالقول أنها محصلة تفاعل قوى تدفع في اتجاهات مختلفة. وإذا كان هذا هو جوهر علم السياسة التقليدي في هذه الفترة، فلا يبدو هناك أي مبرر إذن ليدخلوا في سجال مع السلوكيين، وأكثر من ذلك فإن صاحب هذا المؤلف (فينسود) أصبح لاحقا رئيسا لـ APSA في ذروة هيمنة السلوكيين، بل وساهم هو نفسه عام 1968 في الحفاظ على انتصار "البارادايم" السلوكي بصفته رئيسا لـ "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" APSA عبر تضييق الخناق (بطريقة ذكية ودفاعية) على "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" Caucus for a New Political Science من خلال وضع شروط معينة للمشاركة في المؤتمر السنوي لـ APSA تستبعد المنخرطين في مسعى تجديد علم السياسة، أنظر:

John S. Dryzek, op cit., p. 489.

[329] John S. Dryzek, op cit., p. 490.

أرنت" و"ليو شتراوس" وغيرهم. فإذا كانت APSA ترفض حشر علم السياسة في القضايا الساخنة لعصرها فإنها بذلك ليست محايدة قيميا كما تدعي بل إنها جعلت من علم السياسة أداة للحفاظ على الوضع القائم status quo.[330]

لقد هيمنت "السلوكية" تدريجيا على التخصص، لكن ذلك لم يجعلها بمنأى عن الانتقادات التي تصاعدت حدتها مطلع الستينيات. هذه الانتقادات لم يكن لها من دور سوى تأكيد هيمنة "السلوكيين" ونجاحهم في إعادة صياغة أجندة البحث في علم السياسة، وهو ما أقر به حتى المناوئين لهم والذين كانوا مهمشين في هذا الحقل المعرفي. غير أن النقد تجاههم تنامى، لكن هذه المرة فإن مصدر النقد لم يكن من "التقليديين ذوي النزعة التاريخية"، بل من باحثين يطالبون بدور إيجابي لعلم السياسة، من خلال إعطائه لمسة نقدية وتوجيه اهتمامات الباحثين نحو قضايا المجتمع.

المطلب الخامس: التحدي البارادايمي الأول للسلوكية-"المؤتمر من أجل علم سياسة جديد".

مع تصاعد حدة الانتقادات التي طالت السلوكية فقد جاء المؤتمر السنوي لـ"الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" سنة 1967 فرصة لمأسسة الاتجاه الذي أصبح يعرف لاحقا من طرف رواد السلوكية وعلى رأسهم "دايفيد إيستن" بـ "ما بعد السلوكية" post-behavioralists، غير أن المنتسبين إلى هذا الاتجاه النظري الصاعد يفضلون نعت أنفسهم بـ المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" CNPS. بداية التصادم بينهم وبين المدافعين عن التقليد البحثي المهيمن آنذاك (السلوكيين) كان بسبب استحضار السلوكيين الذين ظلوا مسيطرين على أهم المناصب في APSA طيلة الستينيات، للمادة الثانية من دستور APSA،[331] لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة من زاوية اتخاذ مواقف بشأنها سيما حركة الحقوق المدنية للسود وحرب فيتنام. ورغم أن هذه المادة لا تنص على منع أعضاء APSA من مناقشة القضايا العامة إلا أن تكييفها كذلك من طرف السلوكيين الذين هيمنوا على المناصب الإدارية للجمعية، أقنع مناهضيها بضرورة إيجاد إطار تنظيمي يحمي وجهات نظرهم من "التسلط السلوكي". وفعلا، فإنه وبالموازاة مع مؤتمر APSA عقد هؤلاء مؤتمرهم بحضور 225 حيث انتخبوا "تشارلز ماكوي" رئيسا لـ CNPS.[332]

وقد قدم المؤتمر مرشحا لرئاسة APSA وضم في صفوفه قائمة من أبرز باحثي علم السياسة آنذاك ولفترة طويلة مثل "سيمور مارتن ليبست" Seymour Martin Lipset، "بيتر باكراتش" Peter Bachrach، "كريستيان بي" Christian Bay، "تيودور لوي" Theodore Lowi، "مايكل برينت" Michael Brent، ، "شيلدون ولين" Sheldon Wolin، كما تضمنت القائمة أيضا وجها بارزا في تخصص العلاقات الدولية: "هانتس مورقنتهاو" Hanz

---

[330] NPS Caucus, 'History of the Caucus for a New Political Science', **New Political Science** 29 (04) 2007, pp. 501-502.

[331] تشير المادة الثانية من دستور APSA إلى أن الجمعية: لا تلزم أعضائها باتخاذ مواقف إزاء قضايا السياسة العامة إذا كانت هذه القضايا لا تمس بشكل مباشر المقاصد التي وجدت الجمعية من أجلها. هذه المادة تم تكييفها بطريقة غريبة من طرف مسيري APSA لمنع مناقشة قضايا السياسة العامة في مؤتمراتهم السنوية.

[332] NPS Caucus, op cit., p. 502.

Morgenthau والذي كان من بين المعارضين للحرب في فيتنام، فضلا عن "إدوارد سعيد" Edward Said و"نعوم تشومسكي" Noam Chomsky.[333]

تقاسم جميع هؤلاء قناعة مفادها أنه يجب جلب النقاشات والانتقادات حول الديمقراطية الليبرالية الأمريكية إلى قلب النقاشات الأكاديمية بعد أن كانت معزولة في محيط تخصص العلوم السياسية. وقد ضمنت آرائهم في كتاب صدر عقب أول مؤتمر لهم في 1967 بعنوان: "السياسة غير مسيسة: نقد الاتجاه السلوكي". ولتسويق طرحهم عمد أعضاء هذا "المؤتمر" إلى تغطية ما يرونه جوانب قصور في "الاتجاه السلوكي": حيث توجهوا نحو الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والأزمات السياسية لتلك الفترة، كما طالبوا بعلم سياسة يتخذ موقفا جماعيا موحدا من القضايا السياسية المثيرة للجدل مثل: حرب فيتنام، التمييز العنصري، والفقر، إضافة إلى قضايا البيئة والمرأة. ولاحقا تمكن هؤلاء من الحصول على تمويل يسمح بإجراء بحوث حول قضايا ملحة أخرى مثل: الإيدز العلاقة بين حقوق الإنسان، والديمقراطية والرأسمالية، الحرب على العراق الجوانب العرقية والجندرية والطبقية للسياسة العامة.[334]

لم يبد هذا "البارادايم" الصاعد حنقا تجاه "العلمية"، حيث أنه ركز توصياته على ضرورة إعادة ترتيب الأولويات لتكون "العلمية" في المرتبة الثانية بعد الالتزام بقضايا المجتمع من جهة ومدى الصلاحية الإمبريقية للأبحاث التي تجرى باسم علم السياسة. وبرروا موقفهم هذا بكون مسألة تفسير السلوك السياسي لا تشكل حقيقة مركز الثقل المعرفي في علم السياسة. ولأجل ذلك سخر أعضاء المؤتمر أكثر جهودهم لمسعى إصلاح APSA، وقدموا مرشحين لمنصب الرئيس ولعضوية مجلس الجمعية، لكنهم أخفقوا في الحصول على الرئاسة رغم نجاحهم في الاستحواذ على بعض المقاعد في المجلس. وتجدر الإشارة إلى أن بعض رواد "المؤتمر" من أمثال "تيودور لوي" Theodore Lowi، و"أيرا كاتزنيلسن" Ira katznelson، تمكنوا من الحصول في فترات لاحقة على منصب الرئاسة باعتبارهم مرشحين رسميين.[335]

استطاع السلوكيين إلى حد ما احتواء نقمة التيار "ما بعد السلوكي" خاصة في النقطة المتعلقة بعدم ميل "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" للتهجم على النزعة العلمية، حيث عمل "دافيد إيستون" على التخفيف من حدة التوتر بين "السلوكيين" و"المؤتمريين" من هذه الزاوية، إذ خلال مداخلته له أمام APSA عام 1969 بصفته رئيسا للجمعية تحدث عن "ثورة جديدة في علم السياسة"، بإمكانها أن تجعل التقنيات التي طورها "السلوكيون" و"نظريته للنظم" على حد سواء في خدمة المشكلات الاجتماعية. لم ينجح "إيستون" في ردم الهوة بين المعسكرين، إلا أنه نجح في إرساء تخصص ثانوي في علم السياسة وهو السياسات العامة. وهكذا ظل السلوكيون في إطار APSA متشبثين بمقاومتهم للتغيير الذي بشر به "المؤتمر من أجل علم سياسة جديدة"، إلا أن ثقتهم في النفس قد تزعزعت كثيرا، وهم الذين استماتوا في مقاومة تسييس "حقل علم السياسة"، وهي

---

[333] Ibid.
[334] NPS Caucus, op cit., p. 503.
[335] John S. Dryzek, op cit., p. 491.

النقطة التي أثارها "أويلاو" Eulau في تقريره كرئيس لـ APSA عام 1972: "إننا لم ننظم أنفسنا في إطار APSA من أجل ممارسة السياسة أو لنشر وجهات نظر سياسة".[336]

تختلف الآراء بشأن مدى نجاح "المؤتمر" في تغيير أجندة البحث في علم السياسة، والتالي مدى نجاحه كثورة معرفية، فلدى التمعن في محتويات الدوريات الأكاديمية الرئيسية يمكن لأي باحث أن يستتشف تراجعا نسبيا لكنه ثابت للأعمال العلمية التي تعتمد معايير المدرسية السلوكية سيما توظيف الأدوات الكمية. لكن وبالمقابل فإن "دريزيك" يرى بأن "المؤتمر" وبدل أن يتوجه نحو تشييد روابط مع التيارات الاجتماعية والسياسية والتي تحمل ثقافة مناوئة له، فقد كرس جهوده على الصعيد المهني، مما دعا باحثا آخر هو "لوي" Lowi إلى تسميته بـ "المؤتمر من أجل جمعية جديدة لعلم السياسة"، ومع إخفاقه في الحصول على رئاسة الجمعية فقد تراجع طموح أعضاء "المؤتمر" وأصبح تنظيمهم مجرد قسم عادي ضمن أقسام APSA يعمل على تمويل لجان عمله بشكل ذاتيا، أما المجلة العلمية التي قام "المؤتمر" برعايتها (علم السياسة الجديد) New Political Science فقد ظل انتشارها محدود، ولم يظهر اسمها ضمن ترتيب أبرز 115 دورية علمية في التخصص. وقد جاء تيار "بريسترويكا علم السياسة" لأعطاء دفعة جديدة للجهود من أجل إرساء تحول "بارادايمي" عميق يغطي نقائص "بارادايم الخيار العقلاني" الذي تمثله السلوكية.

المطلب السادس: استعصاء التحول "البارادايمي" -مستقبل برويسترويكا علم السياسة-

إن إخفاق ثورة "المؤتمر من أجل علم سياسة جديد" لم يكن إخفاقا كليا بل يجب الإقرار بأن عدم نجاحهم لا يعني بالمقابل نجاح "السلوكية" فهذه الأخيرة وإن استمرت إلا أنها استمرت وهي فاقدة لهويتها التي انطلقت بها وخاصة في الشق المتعلق بزعمها إمكان إرساء أسس علم محايد أو علم مجرد من القيم. فقد قدم هذا التيار تنازلات متتابعة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" التي تعتبر محرك التغيير "البارادايمي" الذي لا يمكن تجاهله.

تجسدت هذه التنازلات بتبني دورية أكاديمية جديدة بعد ثورة "المؤتمريين" عام 1967 سميت السياسة وعلم السياسة PS: Political Science and Politics وذلك اعتبر ضربة لـ American Review of Political Science التي احتكرت المجال الأكاديمي لفترة طويلة نظرا لصلاتها بـ APSA، هذه الدورية الجديدة أتاحت الفرصة لنشر أعمال علمية تتوجه أساسا نحو معالجة مشكلات المجتمع والقضايا الملحة في السياسة العامة للدولة الداخلية والخارجية.[337] ولاشك أن هذه الخطوة تعتبر ميزة أمريكية تستحق التنويه، حيث أن قوة المنظومة الأمريكية عموما هي في قدرتها على احتواء ديناميكيات المجتمع عبر تعديلات بنيوية جزئية تمنع تقويض النظام ككل في

[336] John S. Dryzek, op cit., p. 491.
[337] NPS Caucus, op cit., p. 503.

حال إغفالها، لكن ذلك يحول دون استشفاف التغيرات العميقة التي تحدث على المستوى المجتمعي والعلمي على حد سواء حيث تمر تغيرات عميقة بطريقة هادئة، ومن هنا يمكن مراجعة الرأي القائل بأن الثورة المعرفية "المعيارية" أو "النقدية" لـ"المؤتمريين" قد فشلت أو أنها ليست ثورة على الإطلاق.

لقد تأكدت قوة التيارات الداعية إلى إعادة النظر في واقع الحال في الحقل المعرفي لعلم السياسة، عقب قيام مئات علماء السياسة الأمريكيين بتأييد محتوى الرسالة الالكترونية التي صاغها وأرسلها مجهول سمى نفسه "السيد برويسترويكا" يدعو فيها إلى إصلاح البيت الداخلي لعلم السياسة عبر ضمان انفتاح الحقل على التعددية المنهجية ورفع الوصاية التي فرضها "الكمّيون" عليه.[338]

يقول "روجر سميث" Roger Smith بشأن الثورة التي حاول تيار "البرويسترويكا" شنها على التقليد البحثي السائد "بارادايم الخيار العقلاني" rational choice paradigm، وعلاقته بـ تيار "المؤتمريين": "لقد جاءت الحركة من أجل برويسترويكا في علم السياسة في سياق مختلف عن الذي ظهر فيه 'المؤتمر' Caucus حيث اتسم بصراعات داخلية حادة في الأوساط الأكاديمية حول قضايا مهنية لكن كلتا الحركتين تشتركان في مسالة واحدة على الأقل وهي رغبتهما في إحداث تحولات عميقة في علم السياسة من أجل تسخيره لخدمة القضايا السياسية الملحة بدل المغالاة في المراجعات المنهجية التي لا تنتهي".[339]

كعادتها، عملت APSA على احتواء الثورة المنهجية الكيفية qualitative vs quantitative الصاعدة، وذلك بإنشاء أقسام جديدة للبحث [أنظر الجدول في الصفحة التالية]، وكذلك عبر إنشاء دورية أكاديمية أخرى برعايتها هي "منظورات في السياسة" Perspectives on Politics لنشر الأعمال العلمية لهؤلاء الباحثين المنشقين عنها، رغم أن هؤلاء وغيرهم يتطلعون للدورية الأكثر نفوذا ARPS لا إلى إيجاد فضاءات يتم حشرهم فيها حتى لا يحدثوا آثارا كبيرة في الحقل المعرفي وبالأساس لتغيير أجندة الحقل.[340] لكن هل بقي هناك "أجندة بحث" في "علم السياسة" ليمكن إعادة صياغتها والثورة عليها بالمنطق "الكوني"، فنظرة خاطفة إلى الجدول التالي ستؤكد مدى التضارب الذي وصلت إليه هذه الأجندة، فإما أننا إزاء برامج بحثية لاكاتوشية تحوي برامج قوية Strong Programs وأخرى ضعيفة Weak Programs الأولى تقدمية لديها فرصة الاستمرار بينما الثانية انتكاسية ستختفي كقسم من أقسام APSA كما ستخفت أعمالها العلمية.

بالنسبة لـ قابرييل ألموند فإن الأمر قد لا ينطوي على برامج بحثية متنافسة لأن وضعية "علم السياسة" بلغت مرحلة اللانقاش، وبعبارته الشهيرة: "مدارس وطوائف في علم السياسة" يلخص هذا الباحث توصيفه لواقع الحقل المعرفي الذي لم يعد فيه أتباع المدارس المختلفة يهتمون أصلا بما يكتبه ويقوله أتباع المدارس الأخرى.[341]

---

[338] سيتم التفصيل في أبعاد "حركة البرويسترويكا" في علم السياسة لدى الحديث عن معضلات النقاش الرابع.

[339] Roger Smith as quoted in : NPS Caucus, op cit., p. 505.

[340] Ibid.

[341] Gabriel Abraham Almond, 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science', **PS** 21 (04) 1990.

جدول رقم 01: أقسام البحث المعتمدة على مستوى "الجمعية الأمريكية لعلم السياسة" (يساهم اعتماد أي قسم من طرف APSA في إعطاء الشرعية للتخصص فيه وكذلك جلب التمويل للبحث فيه)	
75. الفدرالية والعلاقات بين الحكوماتية	95. الاتصال السياسي
76. القانون والقضاء	96. السياسة والتاريخ
77. الدراسات التشريعية	97. الاقتصاد السياسي
78. السياسة العامة	98. علم السياسة الجديد
79. التنظيم السياسي والأحزاب	99. علم النفس السياسي
80. الإدارة العامة	100.تدريس علم السياسة
81. ديناميكيات النزاع	101.السياسة والأدب والسينما
82. النظم التمثيلية والانتخابية	102.السياسة الخارجية
83. البحوث حول مؤسسة الرئاسة	103.الانتخابات الرأي العام والسلوك الانتخابي
84. المنهجية السياسية	104.السياسة والدراسات العرقية والإثنية
85. السياسة والدين	105.السياسة والتاريخ العالمي
86. السياسات العمرانية	106.الدمقرطة من منظور مقارن
87. العلم، التكنولوجيا والسياسة البيئية	107.حقوق الإنسان
88. المرأة والبحوث السياسية	108.البحوث الكيفية والمتعددة المناهج
89. أسس النظرية السياسية	109.السياسة والقضايا الجنسية
90. السياسة وتكنولوجيا الإعلام والاتصال	110.السياسة الصحية
91. الأمن الدولي ونزع السلاح	111.السياسة الكندية
92. السياسات المقارنة	
93. السياسة والمجتمع في أوربا	
94. سياسة الدولة والسياسة العامة	

المصدر: الموقع الرسمي للجمعية الأمريكية لعلم السياسة، تم دخول الموقع في: 2009/01/15.
<http://www.apsanet.org/content_4596.cfm>

هذا الوضع لا ينطبق على العلاقات الدولية حيث تعتبر النقاشات النظرية سمة أساسية لمسار تطور الحقل، لكن ومثلما يوضحه التمثيل البياني التالي فإن طبيعة النقاشات التي سادت في هذا الحقل المعرفي لا تخلف عما عرفه علم السياسة عموما الذي تعتبر العلاقات الدولية أحد ميادينه، فالبداية كانت عبر الأنطولوجيا كما في علم السياسة ككل، ثم المنهجية وسيادة النزعة السلوكية العلمية لفترة من الزمن، وبعدها ظهور التحدي النقدي المعياري. لكن مع بادية التسعينيات يبدو أن علم العلاقات الدولية قد اكتسبت هوية مستقلة حيث أنه استطاع تطوير نقاشات متعددة المستويات وكان له السبق أيضا في البحث عن مخارج للمعضلة الوضعية/ما بعد الوضعية. لكن يجب التأني قبل التسليم بهذه الأحكام، كونها تحتاج إلى مزيد من التمحيص، وهو ما ستعالجه المباحث والفصول التالية.

المبحث الثالث: النقاشات الثلاثة المؤسسة للبارادايم العقلاني في العلاقات الدولية.

بعد وضع النقاشات النظرية في إطارها الأوسع أي في حقل العلاقات الدولية، فإن هذا المبحث يحاول رصد حركية التحولات البارادايمية إن وجدت في ما اصطلح على تسميتها بالنقاشات النظرية الكبرى الثلاث والتي أرست لبارادايم عقلاني لاحقا. ومن خلال ستة مطالب سيتم المقاربة للنقاش الأول من منظور أنه ينطوي على مقابلة لنظرتين أنطولوجيتين للطبيعة الإنسانية، أما النقاش الثاني فمن منظور أنه ينطوي على مقاربتين منهجيتين لطبيعة المعرفة الإنسانية، في حين يقارب هذا المبحث للنقاش الثالث باعتباره أرسى دعائم التوليفة نيو-نيو التي

أهلت البارادايم العقلاني لتقديم تصور متماسك إزاء العلاقات الدولية أكثر منه نقاشا بينيا مع النيوماركسية الوضعية.

المطلب الأول: "النقاش النظري الأول"-نظرتان أنطولوجيتان للطبيعة الإنسانية.

أهم ميزة للنقاش النظري الأول بين الواقعية والمثالية هو تركيزه على الأنطولوجيا، أي البحث في الوجود، سيما أن الوضع الذي آلت إليه العلاقات الدولية في فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ترك استفهامات عميقة حول كيفية التعامل مع تحديات حقيقية للسلم والأمن الدوليين ومن ذلك الإجابة عن سؤال جوهري: هل تنطوي القومية الصاعدة في ألمانيا وإيطاليا على محصلات عدائية أم أنها ستظل تجليات لثقافة في الحكم لن تتجاوز حدود هاتين الدولتين. إذن فالتحليل على المستوى الأنطولوجي ينصب على البحث في طبيعة الكينونة أي إعطاء مبررات كافية لاختيار وحدة التحليل التي يتم تبنيها، وبالتالي الإجابة عن سؤال ما الذي نريد معرفته؟ ومن ثمة تحديد السمة المميزة لوحدة التحليل هذه عبر الإجابة على السؤال ما طبيعة وجوهر ما ستنصب عليه تحليلاتنا. وحول هذه الأسئلة دار نقاش مهم بين المثاليين الليبراليين والواقعيين برز فيه "إدوراد هيوليت كار" Edward Halett Carr.

أخذ النقاش ملامحه الحقيقة عندما قام المؤرخ البريطاني "إدوارد هـ. كار" بنشر كتابه: "السنوات العشرون للأزمة" 'The Twenty Years Crisis 1919-1939'، أي قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بشهور، وقد كان يود من خلاله أن يبرز جوانب القصور في الليبرالية الأوربية بشكل عام، وفي الأسس الإيديولوجية لمعاهدة فرساي بشكل خاص، حيث أشار "كار" في

كتابه المنشور عام 1943 بعنوان: "شروط السلام" إلى أن الليبرالية كأديولوجية قد تجاوزها الزمن، فالافتراض الفلسفي المتضمن في نظرية "آدم سميث" الاقتصادية يعبر عن مطامح مثالية تعوزها الحقائق التي تدعمها، ومعروف أن هذه النظرية تقوم على افتراض أن الحرية الفردية هي أفضل ضمان للثروة الاقتصادية، وعلى افتراض آخر يقضي بأن اليد الخفية تحافظ على توازن السوق في ظل الاقتصاد الحر.[342]

وفي الاتجاه ذاته، رفض "كار" التصورات الخاصة بـ "التوازن الطبيعي التلقائي" و"التطور التاريخي الإيجابي" والميول الخيرة للإنسان، وأضاف "كار" أيضا أن حركة التنوير كانت ساذجة في نزعتها المتفائلة، وبأن "ليبرالية" "آدم سميث" و"مثالية" "كانط" يرمزان إلى الفترة التي كانت أوربا خلالها تعيش مرحلة الطفولة، ويقترح تبعا لذلك أن تتم العودة إلى الافتراضات الأكثر واقعية والتي برزت في بواكير الفكر السياسي الأوربي الحديث ولاسيما في النظرية السياسية عند "ميكيافيللي" و"هوبز". ولم يتوقف "كار" عند نقد الليبرالية الاقتصادية "المثالية" "الكانطية"، بل كان هدفه النهائي هو إنتاج نظرية عقلانية للعلاقات الدولية مستلهمة من النزعة التاريخية الألمانية.[343]

جسد تمرد "إدوارد هـ. كار" على الافتراضات الفلسفية للفكر التنويري، طموحه لإعادة إحياء نظرة رواد الفكر السياسي الحديث للعالم، ويجسد ذلك كله تأرجح المفكرين الأوربيين بين تصورين اثنين للطبع الإنساني، ويمكن فهم هذا التأرجح كخلاف جوهري حول مسألة إن كان الإنسان يميل بالفطرة إلى الخير أم إلى الشر، وإلى أي مدى يمكن أن تتحسن أحوال البشرية. لقد سبق للفيلسوف والمؤرخ الإيطالي في القرن التاسع عشر، "جيامباتيستا فيكو"، أن وصف النقاش حول الطبيعة البشرية بأنه نقاش بين من ينظرون للإنسان "كما يجب أن يكون" ومن ينظرون إليه "كما هو"، هذا هو الخط الذي رسمه "فيكو" بين "المثاليين" و"الواقعيين"، أو بين "الثوريين" و"المحافظين"، فالإنسان بالنسبة للواقعيين (المحافظين) يميل إلى الشر بالفطرة ومن الصعب، إن لم يكن من المستحيل تغيير طبعه هذا، أما بالنسبة للمثاليين (أو الثوريين)، فيرون أن الميول الفطرية للإنسان إيجابية وأن شقاء البشرية يعود إلى ظلال البنى الاجتماعية والسياسية والتي ورثها من ماض غامض.[344] إذن، فإن على المرء، من وجهة النظر المحافظة، أن يتقبل وأن يتكيف مع البيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها، أما من وجهة النظر الثورية، فإن البيئة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية هي ما يتوجب تكييفه وتحويله وفق إرادة وآمال الإنسان.[345]

هذا الخلاف بين "المثاليين" و"الواقعيين" يمكن تأصيله في الخلاف بين المفكرين الذين سبقوا سقراط، فـ "بياس برين" شدد على أن أغلب الناس أشرار. وفي الاتجاه ذاته، ارتأى "بارمنيدس" أن الطبع الإنساني لا يتغير. بالمقابل، كان "هيراقليطس" يؤمن بالتغير المستمر وبإمكانية إحداث تغيرات في الطباع الإنسانية. وفي العصور القديمة أيضا، نجد "كزينوفون"

---

[342] Charles A. Jones, '**E.H. Carr and international relations: a duty to lie**' (UK: Cambridge University Press, 1998), p. 12.
[343] Charles A. Jones, op cit., p. 7.
[344] Emmanuel Navon, 'The 'Third Debate' Revisited', **Review of International Studies** 27 (04) 2001, p. 612.
[345] Ibid., p. 613.

و"أرسطو" قد تبنيا النظرة الواقعية إزاء الطبع الإنساني. بينما تبنى "أفلاطون"، و"أبيقور" و"ديوجين" من جهتهم النظرة المثالية: والتي تقضي بأن "الجوانب الخيرة" الموجودة في الإنسان ستعاود الظهور بمجرد أن تتخلص البشرية من القواعد والتقاليد التي تكتنفها المراوغة.

هذا النقاش بين المفكرين ما قبل "سقراط" و"المفكرين القدامى" بشكل عام استمر في كل مراحل التاريخ الأوربي، حيث نجد في العصور الوسطى كل من "الأكويني" و"أغسطين" قد ترجموا تعاليم الكنيسة حول الميول الشريرة للإنسان إلى أفكار سياسية، بينما أسس المفكرون "المهرطقون" مثل "بوقوميل" و"توماس مونترز" و"جان بويكلسون" لمذاهب مسيحية تتحدى الافتراضات المتشائمة لتعاليم الكنيسة، أما المفكرون الأوربيون الذين يعودون إلى بواكير العصر الحديث مثل "ميكيافيللي"، و"هوبز"، و"فيكو" فقد تبنوا نظرة واقعية حول الطبع الإنساني، وسار في الاتجاه نفسه، كل من "إيدموند بيرك" و"جوزيف دوميستر"، وذلك عقب الثورة الفرنسية.[346]

وبمقابل هذا التيار الواقعي ظهر تنويريوا القرن 18 واشتراكيو القرن 19 ("فولتير"، "روسو"، "كانط"، "ماركس" وغيرهم) مؤسسين فلسفتهم على إدراكات مثالية حول الإنسان، وعلى الاعتقاد بأن هذا الطبع الإيجابي للبشر جنبا إلى جنب مع إحداث تحسينات في القواعد الاجتماعية والدولية فإنه سينتج عنها الشروط الضرورية لتحقيق ثروة أعظمية وسلام أعظمي، وسعادة أعظمية ومثلما تظهره الأمثلة السابقة فإن الانقسام بين المثالية والواقعية تتوافق مع الخط التمييزي الذي رسمه "فيكو" بين من يرون الإنسان "كما هو" ومن يصورونه على "ما يجب أن يكون عليه".

لقد انتقد الواقعيون بشدة انهماك المثاليين في وضع تصورات لكيفية بناء مؤسسات دولية تعمل على كبح النزعة العدائية لبعض الدول في النظام الدولي، حيث بالغ هؤلاء في وصفهم للتدابير والهيكلة المؤسساتية التي يمكن الاعتماد عليها لاجتثاث أسباب الحروب بين الدول، صحيح أن النتائج المدمرة للحرب العالمية الأولى كانت ماثلة للجميع، لكن بالنسبة لـ "كار"، فإن اقتراحات الليبراليين آنذاك باعتبارهم يمثلون التقليد البحثي المهيمن mainstream كانت طوباوية إلى حد بعيد.[347]

ورغم أن الليبراليين ساهموا مع كل هذه المآخذ في التأسيس لعلم السياسة عبر فتح فرع العلاقات الدولية كتخصص مستقل عن العلوم السياسية في جامعة "أبيريسفيث" Aberyswyth بـ "ويلز" Wales، إلا أنهم وحسب الواقعيين، لم يتمكنوا من إضفاء العلمية على الدراسات في هذا الحقل المعرفي، فكل ما أنتجته المدرسة الليبرالية المثالية هو محض مقاربة مبطنة بالقيم وتعوزها النظمية، بل أن "كار" ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قارن بين الدراسات الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية وقال أنها كالفرق بين الكيمياء الحديثة المبنية على العلمية والكيمياء القديمة التي

346 Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
347 Charles A. Jones, op cit., p. 47.

ترتكز على خرافات من قبيل تحويل المعادن إلى ذهب، إنها خرافة أخرى يروج لها المثاليون وهي تحويل الدوافع الشريرة للناس إلى دوافع خيرة.[348]

لقد حاول "إدوارد كار" أن يساهم في نقد الإدراكات "المثالية" للطبع الإنساني من خلال تقويض أسس الافتراضات الأيديولوجية "للتنوير" و"الليبرالية الاقتصادية"، ومن خلال تأسيس لنظرة جديدة عما يجب أن تكون عليه العلمية لدى دراسة "السياسة الدولية"، إلا أن نقده هذا ووجه من طرف مفكرين أوربيين مرتبطين بالتقليد الليبرالي فقد وصفه "فريدريك فون هايك" بأنه واحد من "الشموليين" المنتشرين بيننا، أما "ستانلي هوفمان" فشدد على أن "وراء الإدعاء بالواقعية، تقبع رجعية طوباوية". وهو رأي يتفق معه إلى حد بعيد أحد أبرز منظري العلاقات الدولية في الوقت الحالي "برايان شميت" Brian Schmidt.[349] ويحاول المطلب التالي أن يقف على أهم المآخذ ضد النظرة الواقعية الكلاسيكية في سياق النقاش النظري الأول.

المطلب الثاني: مآخذ الليبراليين ومؤرخي العلم على النقاش النظري الأول.

خلافا لما تصوره الأدبيات المهتمة بتأريخ الحقل المعرفي للعلاقات الدولية فإن "المثاليين" [حسب الوصف الواقعي] لم يستسلموا للانتقادات الواقعية بل أن ثلة من الليبراليين عموما صاغوا ردودا ممنهجة استهدفت الطرح الواقعي في العمق مثل "نورمان آنجل" Norman Angell "ليونارد وولف" Leonard Woolf [خاصة من خلال كتابه: الحرب من أجل السلام 1940 The War for Peace] "ريتشارد كوفينتري" Richard Coventry و"ألفيرد تسيمرن" Alfred Zimmern، كما تتجاهل هذه الأدبيات أيضا حقيقة أن "كار" تأثر كثيرا بهذه الانتقادات إلى درجة أن طروحاته سيما تلك التي ضمها كتابه: "القومية وما بعدها" Nationalism and After والذي صدر سنة 1945 جاءت أقرب إلى الأدبيات الوظيفية التي تبلورت لاحقا على يد "ميتراني" Mitrany حيث اعتبر هذا النهج بمثابة حل للمشكلات التي يعاني منها العالم.[350]

ومن بين هذه الانتقادات والردود من المهم الإشارة إلى رد "أنجل" على انتقاد "كار" للمثاليين في كتابه المرجعي: "عشرون سنة من الأزمة" والذي يستهجن فيه الاعتماد على العمل الجماعي، حيث قال "آنجل" أن الخيار لم يكن بين العمل الجماعي وأداة أخرى أكثر فعالية بل بين اللافعل وترك الدول الأخرى [في إشارة إلى ألمانيا وإيطاليا] تفعل ما تشاء في حين كان بالإمكان

---

[348] Milja Kurki and Colin Wight, 'International Relations and Social Science', in Timothy Dunne et al. (eds.), '**International Relations Theories: Discipline and Diversity**' (UK: Oxford University Press, 2007), p. 16.
[349] Emmanuel Navon, op cit., p. 613.
[350] Lucian M. Ashworth, 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen? A Revisionist History of International Relations', **International Relations** 16 (01) 2002, p. 38.

توظيف قوة الجماعة لكبحها. وفي واقع الأمر، فإن "كار" وعددا من الواقعيين كانوا في معسكر التهدئة بينما كان عدد كبير من الليبراليين في معسكر "الصقور" حسب السياق الذي كان سائدا آنذاك.[351]

في رده على الافتراضات الواقعية أشار وولف إلى نقطة أساسية من ضمن المسائل التي كانت مطروحة للنقاش آنذاك: وهي كيفية التعاطي مع المخاطر التي تتهدد الأمن الدولي، إذ استعرض "ليونارد وولف" ثلاثة استجابات ممكنة: الأولى تتمثل في ترك الأمور على حالها والسماح للطرف الأقوى بالهيمنة وهذا ما تعبر عنه وجهة النظر الواقعية؛ الطريقة الثانية، وهي تعتمد على عصبة الأمم وتنطوي على تغيير الأوضاع التي قادت إلى الحرب في المقام الأول. أما الطريقة الثالثة فهي تعتمد على تغيير الأوضاع التي تقود عادة إلى ظهور الخلافات واحتدام الصراعات بين الدول، ويعتمد في شرح هذا الخيار الأخير على دعوة الباحثين لتخيل مشهد الأفراد وهم يهمون للالتحاق بمنازلهم عبر "الباص" في وقت الذروة. هذا المشهد يحاكي تنافس الدول على الموارد النادرة، ويمكن حل هذه المعضلة عبر توفير عدد كبير من "الباصات"، لكن هذا خيار مثالي قلما تتجمع الشروط لتحقيقه، ليبقى خيار وحيد يجسد طبيعة الأفراد المتحضرين، وهو الوقوف في طابور تكون الأولوية فيه لمن قدم مبكرا لموقف "الباص". إذا كان الواقعيون يقولون أن الاقتتال ظاهرة إنسانية فإن الطابور ظاهرة إنسانية أيضا لكنه أكثر فعالية في حل المشكلات المتصلة بالندرة.[352]

صحيح أن الواقعيين يبحثون دوما عن واقع توزيع القوة وإعطائه الأولوية في تفسير الأحداث الدولية، لكن النقطة التي أهملوها هي أن الأفكار التي تقف وراء القوة أهم من القوة ذاتها. ولتوضيح ذلك يضرب "آنجل" مثلا بالعبيد، حيث يتساءل إن لم يكن العبيد واقعيا أكثر قوة من سادتهم، لكن الأفكار التي يحملونها هي ما يجعل منهم في وضع الضعف. وبالنسبة للواقع الدولي، فإن ذلك يؤكد على أهمية الاهتمام بمعالجة الأفكار التي تسند التوظيف العدائي للقوة، وسيكون ذلك أكثر فعالية.[353]

أما بالنسبة لمآخذ مؤرخي العلم على النقاش النظري الأول، ومن بينهم "لوتشيان آسوورث" Lucian Ashworth،[354] "جويل كويرك" Joel Quirk و"دارشان فيقنيسفاران" Darshan Vigneswaran"،[355] "بيتر ويلسون" Peter Wilson،[356] وهؤلاء يجمعون في مآخذهم بين الغموض الذي كان يشوب تسمية المثاليين والواقعيين، وبين غياب أية مؤشرات واضحة عن حدوث النقاش فعليا أم أن "كار" اصطنع سجالا خياليا لبناء الحقل المعرفي لعلم

---

[351] Ibid.
[352] Lucian M. Ashworth, op cit., p .40.
[353] Ibid., p .41.
[354] Ibid.
[355] Joel Quirk and Darshan Vigneswaran, 'The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate', **Review of International Studies** (31) 2005, pp. 89-107.
[356] Peter Wilson, 'The Myth of the "First Great Debate"', **Review of International Studies** (24) 1998, pp. 10–12.

السياسة وهو فعليا نجح في الثانية وأخفق في استثارة نقاش محتدم بالشكل الذي تصوره الكتب الأكاديمية حاليا.

بداية بعدم دقة تسمية المثاليين الليبراليين بـ "الطوباويين": كار نفسه لم يطلق لفظة مثالي بل كان يصف خصومه المزعومين بـ"الطوباويين" utopians، لكن إذا راجعنا كتاباته سنجد أنه يكتفي في النهاية بالإشارة إلى خصومه في حواشي كتبه، لكنه يجمع فيها عددا كبيرا من المؤلفين الذين يتقاسمون ميولهم الليبرالية في بوتقة واحدة رغم الاختلاف الواضح بينهم، فالليبرالية التي تحدث عنها "كار" ولاحقا "مورقينتو" تم تصوريها على أنها تتقاسم تقليدا بحثيا واحدا وتصورا متطابقا وهذا ما لا نجده فعليا في التقليد البحثي الليبرالي.[357]

إن تصنيف الافتراضات "المثالية" بـ"الطوباوية" كان هناك الكثير من القرائن التي تدحضه، فهؤلاء ساهموا من خلال العديد من الكتابات في الحفاظ على الوضع القائم في ميزان القوى، ولأدل على ذلك من وصفهم السفن الحربية والغواصات بأسلحة الضعفاء، وذلك ليس له سوى هدف واحد وهو تثبيط عزيمة الدول التي ترغب في تطوير ترسانتها الحربية عبر امتلاك هذه الأسلحة حفاظا على التفوق البريطاني والأمريكي. هذه الوضعية لا تختلف عن وصف الليبراليين في الوقت الحالي لغاز الأعصاب وغيره من الأسلحة الكيماوية والبيولوجية بشتى النعوت السلبية رغم أن الدول الكبرى تمتلك أسلحة أكثر فتكا وهي الأسلحة النووية، وذلك ليس له تفسير آخر غير حرمان الدول الفقيرة من امتلاك رادع أقل ثمنا. بل أن المثاليين في حالات معينة قدموا خدمات أفضل للواقعية السياسية Reapolitik من تلك التي قدمها الواقعيون كاتجاه نظري، فـ"نورمان أنجل" Norman Angell في كتابه "الوهم الكبير" Great Illusion الذي صدر في 1911 كان قد امتدح الاستعمار بطريقة ذكية من خلال القول بأنه ساهم ويساهم في توثيق الروابط بين شعوب العالم، وبأنه عمل على تمدين مناطق من العالم كانت تقبع في التخلف والظلام، ومن خلال قيامها بذلك فإن الدول الغربية الكبرى لا تتدخل في مسار تطور الحضارات الأخرى وإنما تساعدها على اختصار الوقت والحصول على مقومات التحضر.[358]

هل كانت المسألة الأخلاقية مطروحة على الإطلاق في تلك المرحلة كما قد يتبادر إلى الأذهان عند استرجاع المقولة الشائعة: "المثاليون" يهتمون بما يجب أن يكون بينما يصر الواقعيون على النظر إلى ما هو كائن. الإجابة "لوتشيان آشوورث" هي بالنفي فالأدبيات التي تمثل الاتجاهين كانت مولعة بالنظر في أفضل طريقة لتوظيف توازن القوى من أجل الحفاظ على الاستقرار العالمي الهش وليس في أفضل الطرق للعيش على الكوكب.[359]

إن ما يعرف بالنقاش النظري الأول بين "المثاليين" و"الواقعيين" في العلاقات الدولية هو جزء من نقاش فلسفي أوسع وأعمق انقسم حوله المفكرون الغربيون منذ ما قبل سقراط إلى أيامنا هذه. إذن فمنظرو العلاقات الدولية لم يبدؤوا هذا النقاش ولم ينهوه ولم يقدموا إسهاما أو إثراء ذا معنى.

---

[357] Lucian M. Ashworth, op cit., p. 36.
[358] Norman Angell as quoted in Lucian M. Ashworth, op cit., p .37.
[359] Lucian M. Ashworth, op cit., p .38.

ونخلص بذلك إلى أن "النقاش النظري الأول" لم ينته بعد، فهو نقاش فلسفي، بل ويعتبر مصدر الانقسام بين "اليمين" و"اليسار" في الديمقراطيات الحديثة. لكن يجب الإقرار بأن أسطورة النقاش النظري الأول، على حد تعبير "بيتر ويلسون" Peter Wilson هي ما ساهم في إثارة نقاط عدة للجدل الفكري بما ساهم في ربط السياسة الدولية بالممارسة السياسية،[360] إلا أن هذا التخصص الناشئ، ولدى بلوغه "مرحلة المراهقة" adoloescent IR على حد تعبير "كولين وايت" Colin Wight، أضحى يبحث عن هويته الضائعة بين وصاية التاريخانيين والطوباويين، فأغلبية باحثي العلاقات الدولية، بل المؤسسين للحقل أنفسهم قدموا من حقول معرفية مجاورة، بحيث حاولوا إعطائه صبغة معينة، وبحيث بدت التأثيرات الناجمة عن هذه الانتماءات المتعددة في تدريس العلاقات الدولية عبر تقديم مزيج من الأدبيات غير المتسقة، فكان من الطبيعي أن يجلب بعض باحثيه أدوات "النزعة السلوكية" [العلمية] من أجل التمكين لدراسة نظمية ولإيصال هذا التخصص مرحلة النضج. وكان ذلك بمثابة إيذان لدخول "علم العلاقات الدولية" مرحلة النقاش النظري الثاني.[361]

المطلب الثالث: "النقاش النظري الثاني"- نظرتان منهجيتان لطبيعة المعرفة.

يجمع "النقاش النظري الثاني" بين المقاربة "العلمية" للنظرية، من جهة والمقاربة "التاريخية"، من جهة أخرى. يعتقد أصحاب المقاربة "العلمية" في إمكانية اكتشاف القوانين العامة التي يزعمون أنها تحكم سلوك الدول، بينما يرتأى أصحاب المقاربة "التاريخية" أن كل ما يسعون إليه هو البحث عن أنماط أو تماثلات تقريبية في السلوك، والتي تعتمد صدقيتها الإمبريقية على توفر سياق تاريخي معين. وأكثر من ذلك، فبينما تعتبر المقاربة "العلمية" مقاربة استقرائية تعتمد على تراكم المعطيات، فإن المقاربة "التاريخية" في الأغلب مقاربة استنباطية تقوم على البحث "التاريخي".

غير أن النقاش بين العلميين والتاريخيين جزء من طرح أوسع وأقدم، ذلك التنازع بين نظرتين تعكسان "التصور المقيد" و"التصور غير المقيد" للمعرفة. حيث أن لنظرة غير المقيدة تتوافق مع الاعتقاد القائل بأن العقل هو الطريق الوحيد للحقيقة؛ وبخلاف ذلك، فإن النظرة المقيدة ترتبط بالاعتقاد القاضي بأن العقل ليس الطريق الوحيد للحقيقة وبأن المعرفة الإنسانية لا يمكن لها أن تكون مطلقة. وفي هذا الصدد، تمثل العقلانية النظرة غير المقيدة للمعرفة، استخداماتها وتطبيقاتها في المجالين السياسي والاجتماعي، هو ما يدعوه "مايكل أوكشوت" Michael Oakeshott العقلانية السياسية. فالعقلاني، وفق "أوكشوت"، ليس من المناسب أبدا التشكيك في

---

[360] Peter Wilson, op cit., p. 12.

[361] Colin Wight, 'Philosophy of Social Science and International Relations', in Walter Warlsnaes et al. (eds.), **'Handbook of International Relations'** (UK: SAGE Publications, 2002), p. 26.

قوة عقله [عندما يستخدمه بشكل سليم] في "تقدير قيمة الشيء، وصدق الرأي وصواب الفعل"، كما لا يمكنه أن يتصور نظاما سياسيا لا ينطوي على "حل المشكلات"، ولا أن يتصور "مشكلة سياسية" لا تتوفر على أي "حل عقلاني".[362]

إن هذا الانقسام بين العقلانية السياسية وما يمكن تسميته العقلانية المقيدة [أو المحدودة] تعود إلى العصور القديمة، حيث يصف "أفلاطون" المعرفة -في مؤلفه "الجمهورية"- بأنها "المرحلة الكاملة والنهائية، وذلك عندما يقود العقل الفيلسوف من ظلمات الكهف إلى نور المعرفة الخالصة من أية خلفيات أو أفكار مسبقة، وحينها فإن عينا الفيلسوف تتأملان في حقائق ثابتة لا تتغير، إنه حيز [أي حيز المعرفة الخالصة] لا مجال فيه لـ اللاعدل والمعاناة، لأن كل شيء يخضع للعقل والنظام، ولأن العقل يمكنه أن يبلغ المعرفة الكاملة، بحيث يتيح ذلك للفيلسوف تصميم وتنظيم مجتمع كامل يقوم على دعائم عقلانية". وعلى النقيض من أستاذه، لم يعتقد "أرسطو" أبدا في إمكان أن يقودنا العقل لـ "الكمال المعرفي"، كما رفض الفكرة القائلة بأن المجتمع يمكن تنظيمه وفق التصورات المجردة للفيلسوف، ولذا فإن على المجتمع -حسب أرسطو- أن يتبع القواعد التي تنبع منه فالممارسات والقوانين تتنوع بحسب السياقات الاجتماعية والتاريخية، وفي حالة المنظمات السياسية المختلفة، فإنه من المستحيل تدوين كل شيء بدقة، فما يتم تدوينه يجب أن يتسم بالعمومية، غير أن الأفعال التي ترصدها الملاحظات تتسم بالخصوصية.[363]

اكتسب النقاش حول طبيعة وقدرة العقل نفحة جديدة أخرى في القرن 17 مع كتابات "ديكارت"، "باسكال" و"هيوم". إذ اعتقد "ديكارت" أن الحقيقة توجد في ذاته، وبأنه بصدد البحث عن المنهجية الصحيحة لبلوغ المعرفة بكل شيء. مطارحات "ديكارت" الفلسفية قادته إلى نتيجة مفادها أن مصدر الأخلاق هو الفكر العقلاني (يكفي أن تفكر جيدا لفعل ما هو صحيح)، وبأنه يجدر البحث عن الحقيقة في العقل الإنساني وليس عن طريق التجربة ولهذا اختار ديكارت أن يكشف رسالته في المنهج بالفرنسية بدلا من اللاتينية لأنه أراد أن يتوجه إلى الذين يستعملون فقط عقلهم المحض والطبيعي في مقابل أولئك الذين لا يؤمنون سوى بالكتب القديمة.

وبعبارة أخرى، ارتأى "ديكارت" أن الحقيقة توجد في عقول الأفراد الذين يعتمدون على عقلهم المحض، كما أن الفكر الاستنباطي حسب اعتقاده يجب أن يشكل القاعدة للبحث العلمي، أما التعاليم القديمة والتجارب والاستقراء فهي لا تمثل مصدرا للمعرفة الصحيحة، لأنه وحده العقل يستطيع فتح منفذ للمعرفة. ذلك ما لخصه "هوركهايمر" بأن "العقلانية الديكارتية تدعي قدرة العقل على إنتاج المعرفة خارج العقل ذاته".[364]

---

[362] Michael Oakeshott, '**On Human Conduct**' (UK: Oxford University Press, 1990), p. 40.

[363] لقد امتد هذا الخلاف في الرؤى بين أفلاطون وأرسطو حول العلاقة بين "العقل" و"الحقيقة" وحول قدرة الفيلسوف على تنظيم المجتمع بناءا على دعائم عقلانية بحتة، إلى انقسام المفكرين الغربيين خلال كل العصور حول الخط ذاته. كما أخذ الانقسام نفسا جديدا بدخول مفهوم الوحي (المستلهم من الإنجيل) إلى الفكر الغربي مع انتشار المسيحية. يعبر "ليو شترواس" عن ذلك بكون "التاريخ الغربي كله يمكن النظر إليه كمحاولات متكررة لإيجاد صيغة توفيقية أو تركيبية بين الإنجيل والفلسفة الإغريقية". هذه المحاولات التي لا تنتهي تتجسد بوضوح في البحوث الفلسفية لـ "الأكويني" و"أوغسطين"، و"ميمونيدس"، أنظر:

Harold I. Brown, '**Rationality**' (UK: Routledge, 1990), pp. 40-44.

[364] Harold I. Brown, op cit., p. 42.

تحدى "باسكال" و"هيوم" موقف "ديكارت"، وإن اختلفا في الأسباب، حيث أشار باسكال إلا أن رفض ديكارت الاحتكام إلى" الكتب المقدسة" والاعتماد على التفكير العقلاني يقود نحو الإلحاد (وهذا رغم أن ديكارت سبق وأن ادعى استناد نظامه الفلسفي إلى وجود الله) لقد أحس "باسكال" بأن تقدم العلم (وخاصة الفلك) في عصره تركت الإنسان وحيدا في وجه السكون الأبدي للفضاء "اللامنتهي"، بحيث كان الإيمان بمثابة الرهان الممكن عندما يعجز العقل عن الإجابة على الأسئلة الأساسية للقضية الإنسانية.

وهكذا رفض "باسكال" المنظور العقلاني لديكارت بل وكتب بأنه لن يسامحه: "لا يمكنني أن أسامح ديكارت لأنه أراد من خلال كل فلسفته أن يتخلص من الله، في البدء كان بحاجة إلى الاستعانة بمبدأ وجود الله لوضع عالمه في السكة، إلا أنه بعد ذلك لم يعد محتاجا إليه فعمد إلى التخلص منه في تحاليله، إن فكر ديكارت عقيم ومشكك". وأكثر من ذلك، قال باسكال أن الإنسان المثقف قد يكون منقسما بين ما يسميه روح الرياضيات (المنطق، العقل) وروح الذكاء (الحدس، الإيمان) وبأن البحث عن الحقيقة لا يمكن أن يعتمد على الروح الرياضية وحدها.[365]

من جانبه عمد "دايفيد هيوم" في مؤلفه "رسالة في الطبيعة الإنسانية" إلى دحض الافتراض الرئيسي لديكارت القاضي بأنه يمكن استنباط الحقيقة من العقل المحض، وذلك طالما أن الأفكار تستقى من التجربة. وبعبارة أخرى، فإن العقل الإنساني ليس بالخزان الأولي للحقيقة، بل أنه يتعلم من خلال الانطباعات والتجارب (كل أفكارنا البسيطة في مظهرها الأول تستقى من انطباعات بسيطة). واستطرد "هيوم" قائلا أن الفلاسفة الذين ادعوا بوجود أفكار سابقة في الوجود أو بوجود ما يسمى بـ "العقل المحض" (لدى "أفلاطون" و"ديكارت") لا يبرهنون بذلك سوى على شيء واحد وهو أن هذه الأفكار ذاتها مسبوقة بإدراكات أخرى تستقى منها وتعبر عنها. وبخلاف "ديكارت"، فقد كان "هيوم" أكثر حذرا في تمييزه بين العقل والأخلاق. إذ بينما ارتأى ديكارت بـ "أنه يكفي أن يفكر الإنسان بشكل جيد ليفعل ما هو صحيح"، إلا أن "هيوم" أشار إلى أن: "قواعد الأخلاق ليست استنتاجات عقلية". أدرك كانط بأن "رسالة" "هيوم" تمثل تحديا جديا للفلسفة العقلانية، فحاول أن يعيد بناء قواعد صلبة للعقلانية، وذلك في مؤلفه "نقد العقل المحض" Kritik der reinen Vernunft. قام "كانط" بتحديد المجالات التي يعتبر فيها العقل قادرا على البحث عن الحقيقة، وأشار "إلى أنه طالما أن العقل المحض يمتلك هذه القدرة، فإن الفرد قادر على الكشف عن الحقيقة عبر الاستنباط العقلاني وبعدها يجبر الطبيعة على الإجابة عن أسئلته".[366]

وهكذا يتبين أن الفلاسفة الأوربيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر جددوا فعلا النقاش حول طبيعة وقدرة العقل: بالنسبة للعقلانيين، يمكن إيجاد الحقيقة في العقل الإنساني في وجهه النقي، أما بالنسبة للإمبريقيين، فإن الأفكار تعتبر ثمرة للتجربة، فالمسألة إذن هي عما إذا كان الإنسان يستقي معرفته من عقله أم من التجربة.

النقاش حول مصدر المعرفة ما فتئ ليتوسع نحو مسألة ما إذا كان العقل وحده قادرا على ترجمة وتفسير الأحداث التاريخية وتحسين أحوال المجتمع. وقد كان رد الكارتيزيين (أتباع

---

[365] Harold I. Brown, op cit., p. 48.
[366] Harold I. Brown, op cit., pp. 49-50.

ديكارت) العقلانيين بأنه يمكن تفسير التاريخ تفسيرا عقلانيا، وبأنه يمكن أيضا إعادة تنظيم المجتمع على أسس صحية بفضل الفكر العقلاني، وفي المقابل فإن جل الموروث الفكري للنزعة الإمبريقية الانجليزية يشدد على أهمية التقاليد في تحقيق سعادة المجتمع، ويتحدى المنظور الذي يدعي بوجود قانون يحكم مسار التاريخ.[367]

هذا الطرح الفلسفي تجلى بوضوح خلال القرن 18 في الرؤى المتناقضة لكل من "روسو" و"بيرك"، فـ "روسو" كان يؤمن بأن "الإنسان ولد حرا، لكنه مقيد بالأغلال في كل مكان، ومع ذلك فسوف يستعيد حريته الأصلية، عندما يعيد العقل تنظيم المجتمع ويحرره من التقاليد والمعتقدات التي قيدت حريته، والتي تراكمت عبر السنين بسبب الجهل والتعصب".

في حين عارض "بيرك" فكرة "روسو" التي تقضي بأن الحرية الإنسانية تتوافق مع "الحالة الطبيعية" ومن ثمة يمكن استعادتها بالاعتماد على العقل، فبالنسبة لـ"بيرك"، تعتبر الحرية نتاجا للمجتمع المدني، وهو الإطار التقليدي الذي أرساه الناس في ظل سياق ثقافي وتاريخي معين بهدف مواجهة أخطار الطبيعة، لقد استمر المجتمع المدني بفضل تجارب أجيال متلاحقة لكنه يتعرض لمخاطر مستمرة من جانب الثوريين الذين يستخفون بالتجربة ويعتبرونها حكمة الأميين. هؤلاء الثوريون، ومن خلال محاولتهم إعادة تعريف الطبيعة الإنسانية عبر "العقل المحض" وإعادة تنظيم المجتمع بالاعتماد على تصورات مجردة، انبهروا بنظرياتهم حول حقوق الإنسان بحيث نسوا تماما طبيعته.

يمكن اعتبار الرؤى المتعارضة بشكل جذري بين "روسو" و"بيرك" حول مسألة الحرية وسعادة المجتمع بمثابة امتداد للنقاش العقلاني/الإمبريقي ليشمل مجال الفكر السياسي متمحورا حول السؤال: فيما إذا كان الإنسان قادرا على إعادة اكتشاف حريته الفردية والعدالة الاجتماعية عبر تطبيق المبادئ العقلانية الخارجية التي تسبقه في الوجود، أم أن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية ذاتها تعتبر نتاجا للتطور التاريخي بحيث اكتسبها الإنسان بالتجربة ونتيجة لكفاحه ضد الطبيعة؟

في القرن 19، أضاف العقلانيون السياسيون إلى ادعائهم الخاص بالتفسير العقلاني للتاريخ اعتقادا آخر بإمكانية إعادة تنظيم المجتمع على أسس عقلانية، حيث شدد كل من "كوندورسيه"، "فورييه"، "سان سيمون" و"كونت" على أنهم اكتشفوا (عبر الاستنباط العقلاني) قانونا علميا يحكم التطور التاريخي، وبأنهم قادرون على إعادة تنظيم المجتمع وفقا للمبادئ العقلانية بغية تحقيق مستويات يوتوبية من الثروة والسعادة.

وحتى "كارل ماركس" أرسى "اشتراكيته العلمية" على قراءة علمية للتاريخ. وهكذا فإن التاريخية (التي تعني الاعتقاد بوجود قانون يحكم الأحداث التاريخية بحسب تعريف "كارل بوبر") لطالما شكلت جوهر الافتراض الأيديولوجي للاشتراكية، والتي تعني من جهتها الاعتقاد بأنه يمكن للمجتمع أن يبلغ المستويات الأمثل للثروة والعدل عبر التخطيط والتنظيم العقلانيين.[368]

---
[367] Ibid.
[368] Emmanuel Navon, op cit., pp. 615-617.

في ظل هذا الصراع المبطن حول الطرف الذي يمتلك تعريفه للعلمية ولعلمية العلاقات الدولية الشرعية أثير النقاش النظري الثاني، وهذه المرة يبدو أن بعضا ممن لازالوا يتبعون التقليد البحثي المثالي جنبا إلى جنب مع خصومهم الواقعيين الكلاسيكيين، وجدوا أنفسهم في معسكر واحد في مواجهة مزاعم جديدة بامتلاك الطريقة المثلى لجعل العلاقات الدولية علما، وهي تلك المزاعم المستلهمة من الثورة السلوكية. وهو المسعى "البارادايمي" الذي تزعمه كل من "مورتن كابلان" Morton Kaplan و"ديفيد سينقر" David Singer، حيث وضحا أن الدافع من وراء مسعاهم هو البحث في تشكيل منظومة معرفية نظمية عبر توظيف الأدوات المنهجية "العلمية"، لكن "العلمية" حسب المضامين التي يبطنها "البارادايم" الوضعي. إذن فقد حصر النقاش النظري الثاني الجدل القائم في الحقل مرة أخرى وهذه المرة ليس في جوهر الفرد (البعد الأنطولوجي)، لكن في المنهجية التي ستجعل من العلاقات الدولية علما.[369]

المطلب الرابع: بوادر النقاش النظري الثاني في سياق نظرية واقعية مغمورة

مع نهاية الحرب العالمية الثانية، تجلى النقاش بين المقاربات المنتمية للتقليد البحثي-المنهجي العلمي/أوالتاريخي، وبشكل نموذجي، في وجهات النظر المتباينة لكل من "ستانلي هوفمان" Stanley Hoffman و"مورتن كابلان" Morton Kaplan حول المسألة. فبينما كان "كابلان" واثقا من أن تطبيق مناهج الاستقراء العقلاني في دراسة العلاقات الدولية سيمكن نظرية العلاقات الدولية من تحديد الشروط التي يبقى في ظلها النظام الدولي مستقرا والشروط التي يتحول على إثرها هذا النظام، فضلا عن الشكل الذي يأخذه مثل هذا التحول. أما هوفمان فقد دعا إلى مقاربة أكثر تشكيكا وتواضعا تستند إلى البحث التاريخي والتعميمات الاستقرائية. وهو بذلك يرفض بناء فرضيات تجريدية صرفة تقوم على عدد قليل من المسلمات.

ارتأى "هوفمان" أنه يتعين على منظري العلاقات الدولية مباشرة مساعيهم البحثية استقرائيا، وقبل أن يتوصلوا إلى أية استنتاجات حول المسارات التي أخذها التاريخ، عليهم أن يلجؤوا إلى البحث التاريخي النظمي [القائم على تحليل النظم]، ذلك أن القوانين الخاصة بهذا الحقل المعرفي يمكن الحصول عليها من التاريخ، وليس عبر الاستنباط من فرضيات مجردة. إذن بخلاف "النيوواقعيين" و"السلوكيين" الأمريكيين فإن "هوفمان" وأتباع "المدرسة التاريخية" لم يعتقدوا يوما بأن نظرية العلاقات الدولية يمكن أن تصبح علما، ومن خلال تعليقاته على إخفاقات المقاربة "العلمية" الطموحة، خلص "ستانلي هوفمان" إلى أنه كان هناك أمل في أن يتحول هذا الحقل المعرفي إلى "علم"، وكان هناك أمل أيضا في أن يكون هذا العلم "نافعا"، لكن نتيجة كلا المسعيين مخيبة للآمال.[370]

ذلك فيما يتعلق برموز التقليد البحثي الليبرالي، أما بالنسبة للواقعي "كار" الذي يزعم تأسيس الحقل المعرفي للعلاقات الدولية عبر الأسطورة التي نجح في تسويقها بخصوص النقاش

---

[369] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p.17.
[370] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

"الوهمي" بين الواقعية الكلاسيكية والليبرالية المثالية، فقد كان من أتباع المدرسة التاريخية الألمانية، التي يمكن اقتفاء آثارها لدى أشهر أعلام الفلسفة في القرن التاسع عشر: "هيغل" و"ماركس"، وهي التي ادعت إمكانية تحديد مسار التاريخ علميا، ومن ثمة ضرورة الخضوع لقانون التطور التاريخي. لكن "كار" أيضا كان اشتراكيا يؤمن بالتسيير والتخطيط المركزيين وبالنهاية الوشيكة للرأسمالية، ففي حوار له مع مجلة اليسار الجديد أثنى على الإنجازات الكبيرة للنظام السوفييتي، والتي تمكن من القيام بها من خلال نبذه لخاصيتين أساسيتين للإنتاج الرأسمالي وهما "الربح" و"قوانين السوق"، وتعويضهما بتخطيط اقتصادي شامل يهدف إلى تعزيز الرفاه العام، وقد ذهب "كار" إلى أبعد من ذلك بالقول بأن الثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى كانتا بمثابة بادرة لنهاية النظام الرأسمالي. لقد سار "كار" على خطى سلفيه "هيغل" و"ماركس" بتبنيه الاعتقاد القائل بأن التاريخ يأخذ مسارات محددة سلفا، وبأن الليبرالية والقومية تعتبر بمثابة تصورات مثالية تتناسب أكثر مع القرن التاسع عشر الذي انقضى، أما المرحلة النهائية من التاريخ الأوربي فتتجسد في الاشتراكية والتخطيط المركزي، وهي الحقيقة التي لم تفهمها سوى ألمانيا النازية وروسيا السوفييتية.[371]

كان السلام العالمي في طريقه للأفول، بينما انتصرت روسيا السوفييتية وألمانيا حسب "إدوارد كار". بالنسبة لألمانيا، لأنها كانت تبشر بمُثُلٍ كانت حتى عهد قريب مُثلاً عالمية مقبولة وتتمثل في المبدأ الرأسمالي "دعه يعمل". لم تكتف ألمانيا بالتبشير بهذا المبدأ بل عملت على تجسيده. أما بالنسبة لروسيا السوفييتية، فقد جلبها المد إلى القرن العشرين، وقد كافحت من أجل بناء وحدات صناعية كبرى في ظل التخطيط والإشراف المركزيين. ولم يكن يضاهي إعجاب "كار" بالاشتراكية القومية الألمانية سوى مقته للتقليد الليبرالي الانجليزي، وهو ما عبر عنه بشكل مباشر: "لا يمكن تحقيق النتائج المرجوة إلا من خلال إعادة تنظيم الحياة الأوربية على طريقة هتلر". [372]

لقد ارتأى "إدوارد كار" أن الواقعية تستند على عوامل القوة المادية للقوى الكبرى، كما تلح على الطبائع التي تتسم بها التوجهات القائمة والتي لا يمكن أن تحيد عنها، وفي هذا كله ترى الواقعية أن من الحكمة قبول هذا الوضع كما هو والتكيف مع هذه القوى والتوجهات. عندما صرح "كار" بذلك، فإن أفكاره كانت تنبع من صميم المعنى التقليدي للواقعية السياسة من منظور عقلاني، رغم تسليمنا بأن الواقعية عموما تميل إلى المقاربة للعالم كما هو لا كما يجب أن يكون. وفعلا، فإن جوانب القوة للقوى السائدة التي تحدث عنها "كار" تختلف عن "الطبائع الإنسانية التي لا تتغير"، فما الذي تعبر عنه حسب طرح "كار": إنها تعبر عن قوانين علمية مزعومة تحكم مسار التطور التاريخي، والتي يمكن إماطة اللثام عنها بالاعتماد على "العقل المحض المتحرر من أي تشوه أيديولوجي".

وبالاعتماد على هذه المسلمة، بني "كار" ادعائه بتأسيس "علم السياسة الدولية". إذ وبالاعتماد على كتابات "كار" يمكن تحديد مفهوم الواقعية السياسية بطريقتين. الأولى، ترى الواقعية السياسية بمثابة نظرة محافظة للعالم تقوم على تصور "هوبز" لحياة الإنسان باعتبارها

---

[371] Ibid.
[372] Emmanuel Navon, op cit., p. 618.

تتسم بالوحدة، والفقر، والدناءة، والوحشية، وقصر العمر، وبذلك تكون وظيفة أي نظام سياسي (بما في ذلك النظام الدولي) هي لجم هذه البواعث الفطرية للأفراد حماية لهم من أنفسهم ومن بعضهم البعض. ويستطرد "كار" في هذا الشأن قائلا أنه ليس علينا أن نتقبل هذا الواقع كما هو وحسب، بل يتوجب علينا التسليم بأن هذا الواقع تحكمه قوانين تاريخية واجتماعية ثابتة يمكن اكتشافها بالاعتماد على "العقل المحض". ومن هنا يمكن أن نستشف الفرق بين وجهي الواقعية السياسية، فبينما تعتبر الواقعية التقليدية منظورا سياسيا محافظا، فإن "الواقعية العلمية" تقوم على ابستيمولوجيا عقلانية مغمورة.[373]

لم يكتف "كار" بمحاولة تمرير "نظرة معينة للعالم" بل عمد إلى تعزيز القراءة العقلانية للتاريخ وللعلاقات الدولية، وهو ما تجسد في تهجمه الشخصي على "كارل بوبر"، فتحت عنوان ما هو التاريخ؟ انتقد "كار" تجرأ خصمه "بوبر" على انتقاد الفلسفات الحتمية المزعومة للتاريخ لدى كل من "هيغل" و"ماركس"، كما رثى حال المثقفين والمفكرين السياسيين في العالم الناطق بالإنجليزية بسبب ما أسماه تراجع إيمانهم بقدرة العقل. وكان "كار" يتوجه بكلامه إلى كل من "كارل بوبر" و"فريدريك فون هايك" اللذان انتقدا تطبيق العقلانية الألمانية على أوربا وهو ما عاد عليها بالوبال. لقد كان من المثير للحيرة، أن يشيد عالم بريطاني بالاشتراكية القومية في عز الصراع الأيديولوجي الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بين ألمانيا النازية والعالم الحر، بينما نجد في غضون ذلك، مفكرين نمساويين ("بوبر" و"هايك") يدافعان عن مبادئ الليبرالية والحرية التي نشأت في انجلترا.

بل أن "كار" سعى لإيجاد منفذ للعقلانية الألمانية إلى داخل بريطانيا، في الوقت الذي أخذت الفلسفة الألمانية منحى مغايرا ومناوئا للعقلانية بتأثير فلسفة "مارتن هايديقر". لقد جسد هذا النقاش بين "كار" من جهة و"بوبر" و"هايك" من جهة أخرى صراعا نموذجيا بين الواقعية السياسية والعقلانية المحدودة. في مؤلفه "فقر النزعة التاريخية"، وفي العنصر الذي تحدث فيه عن "المجتمع المتفتح"، أشار "بوبر" إلى أن محاولات الكشف عن القوانين التي يسير وفقها التاريخ تنبع من التطلعات العقلانية الهادفة للتحكم في المجتمع، وفي التحولات التاريخية، وهي كلها محاولات تبوء بالفشل لأن ذوي النزعة التاريخية يريدون تحويل الاعتقاد الديني إلى معطى تاريخي، ومن ثمة إلى معرفة علمية، وذلك عبر استبدال [الله كمسبب وخالق لكل شيء] بـ التطور أو بالعقل أو بالطبيعة.[374]

وحسب "بوبر" فإن التساؤل بشأن المضمون المحتمل أو الاتجاه المزعوم للتاريخ هو سؤال عقيم ولا يمكن الإجابة عنه لا بالاستنباط العقلي ولا بالبحث الإمبريقي. ويضيف "بوبر" أنه عندما يدعي الفلاسفة العقلانيون (مثل أفلاطون وهيقل وماركس) أنهم اكتشفوا القوانين الناظمة للتاريخ، ومن ثمة يدعون بأنهم وتبعا لذلك توصلوا لصياغة النظام الاجتماعي الأمثل، وحينها فإن أتباعهم

---

[373] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.
[374] Ibid.

سيعملون على تجسيد هذه النظم المثلى بالقوة، فإن ذلك إنما مهد لظهور الطغيان السياسي الذي شهد القرن العشرين أحد أطواره.[375]

لقد كان رفض "بوبر" للتاريخانية بمثابة رد ضمني على "كار" وعلى علم السياسة الدولية الذي أسسه وطبيعي جدا إن لم يهضم "كار" الطريقة التي تعامل بها "بوبر" مع الفلسفة الحتمية المزعومة للتاريخ والتي طورها "هيقل" و"ماركس"، فمن منظور نظرية "بوبر" للصلاحية العلمية، تعتبر "التاريخانية" مثلها مثل "علم السياسة الدولية" دون قيمة علمية لأن النظرية التي يقومان عليها غير قابلة للمراجعة والتكذيب على أسس عقلانية وهو ما يمكن التأكد منه لدى فحص الافتراضات الست التي قامت عليها الواقعية الكلاسيكية والتي تضمنها كتاب "هانس مورقينتو" Hans Morgenthau، المعنون بـ: "السياسة بين الأمم" Politics Among Nations (صدر سنة 1948):[376]

- يمكن تطوير نظرية عقلانية تعكس القوانين الموضوعية التي تسير وفقها السياسة طالما أنها تستند إلى الطبيعة الإنسانية غير الخيرة، فالإنسان يضمر الشر بطبعه، حسب مورقينتو، وهذه الطبيعة ثابتة لا تتغير بأي حال من الأحوال؛
- المصلحة هي جوهر العمل السياسي، وهي تتحدد بمؤشر القوة، حيث أن القوة بالنسبة للواقعيين تعتبر وسيلة وهدفا في الوقت نفسه، وتعرف القوة على أنها القدرة على التأثير في سلوك الآخرين أو تغييره وفق الاتجاه المرغوب به، من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على مقاومة محاولات الآخرين للتأثير في السلوك؛
- يفترض الواقعيون أن المصلحة التي تتحدد بالقوة تعتبر مفهوما موضوعيا يتمتع بصلاحية غير قابلة للجدل، ومع ذلك فإن مضامين المصلحة ليست ثابتة بالنسبة لكل الدول كما أنها ليست ثابتة على امتداد فترات تاريخية متعاقبة؛
- الواقعية ليست نظرية غير أخلاقية immoral، بل أنها فقط نظرية لا تبالي بالمعايير الأخلاقية على اختلافها amoral، وذلك لأنها وفي الوقت الذي تعي فيه التبعات الأخلاقية للعمل السياسي، فإنها واعية أيضا بالتوتر الذي يمكن أن يحدث بين القيادة المتمسكة بالمضامين الأخلاقية وبين مقتضيات نجاح العمل السياسي؛
- ترفض الواقعية ادعاء دولة من الدول بأن قيمها الأخلاقية يجب أن تكون بمثابة قوانين كونية تستوجب خضوع الجميع لها. وبدلا من ذلك ترى أن المصلحة هي التصور الذي يتبوأ مكانة القانون الكوني لأنه يحول دون الإقدام على مغامرات سياسية نابعة من محاولة فرض المنظومة القيمية والأخلاقية لدولة معينة على الدول الأخرى، وكذلك لأن تحقيق المصلحة شيء مشترك يحظى بإجماع الكل؛
- السياسة من المنظور الواقعي حقل مستقل بذاته وللحصول على تحليل جيد يتوجب استبعاد أي مجال آخر من مجالات الاهتمام الإنساني.

---

[375] Emmanuel Navon, op cit., p. 619.

[376] Hans J. Morgenthau, **Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace**, 5th revised ed. (USA: New York: Alfred A. Knopf, 1978), pp. 4-15.

لقد نجحت هذه الافتراضات في التسويق لانتصار النزعة الواقعية ليس أكاديميا فحسب بل ميدانيا أيضا. لكن ذوي النزعة السلوكية العلمية انتقدوا كل افتراض من الافتراضات السابقة عبر منفذ واحد أساسي وهو غياب الصرامة المنهجية والاتساق التصوري في بلورة هذه الافتراضات:[377]

- بداية بعدم الدقة في استخدام المفاهيم المفتاحية، فمصطلح القوة الذي يبني عليه طرحه النظري يحتمل مضامين عدة، وفعلا فقد دأب الواقعيون لاحقا في ما اصطلح على تسميته بالنسخة البنيوية للواقعية لدى "وولتز" بإضافة الشق الاقتصادي للشق العسكري الذي تبنته الواقعية الكلاسيكية؛
- أما تبريره قيام الحروب بالنزعة الشريرة للإنسان، فهي وحسب "السلوكيين" لا تصمد كثيرا أمام الحالات العديدة لسيادة منطق السلام والتعايش، وفي هذه النقطة بالذات يتساءل أتباع منظور السلام الديمقراطي إن كان الطرح الواقعي لا ينطبق على الدول الديمقراطية التي لا تلجأ أبدا لاستخدام القوة ضد بعضها البعض حتى لو لم تكن مصالحها متناغمة؛
- النقطة الأخيرة التي تم انتقادها من طرف دوي النزعة العلمية الوضعية تتعلق بمدى صلابة مفهوم الدولة كفاعل موحد، والذي يستند إليه الواقعيون لتبرير تماثل ردود أفعال الدول تجاه البيئة الدولية، فالواقع يظهر أن الدولة هي مجموع الفواعل الداخليين المشكلين لها، وبذلك فإن ردود أفعالها تتباين بحسب توجهات السياسة الداخلية التي تدخل ضمن مستوى تحليلي آخر غير المستوى النظمي، وهو المستوى الوطني.

صحيح أن الواقعية والليبرالية انحنت أمام الانتقادات السلوكية، بل وتهافتت لاحقا على توظيف التقنيات الكمية أو أنها استندت على الأقل إلى "بارادايم" صاعد في العلوم الاجتماعية: "الخيار العقلاني"، وصحيح أن النقاش حول ما يجب أن تكون عليه العلمية في العلاقات الدولية استمر لاحقا سيما في إطار النقاش نيو-نيو، إلا أن النقطة المتعلقة بالدولة كفاعل موحد ووحيد في التفاعلات الدولية لم يعد لديه الكثير مما يسنده إمبريقيا ما مما فتح المجال للنقاش مجددا في هذه المسألة، وإضافة إلى ذلك فإن إفراط النزعة السلوكية في اهتمامها بإضفاء الاحترافية على دراسة العلاقات الدولية، من جهة، ومن جهة أخرى، مغالاة الواقعيين في واقعيتهم التي لا تبالي بالبعد الأخلاقي، أوجد كل ذلك منفذا لدخول النقديين إلى حيز الجدل الفكري في التخصص، عبر إثارتهم استفهامات جادة حول جدوى هذا العلم الناشئ إن لم يكن سيهتم بانشغالات الأفراد والمجتمعات. وقد كانت هذه النقاط إحدى بوادر بداية النقاش النظري الثالث في العلاقات الدولية.

المطلب الخامس: النقاش النظري الثالث بين البارادايمات الثلاث.

---

[377] Milja Kurki and Colin Wight, op cit., p. 18.

عقب نجاح الثورة السلوكية في علم السياسة كما في العلاقات الدولية خلال فترة زمنية وجيزة نهاية الخمسينيات وبادية الستينيات، ظهرت بوادر التحدي البارادايمي "البنيوي" و"النقدي" بشكل متزامن في المجالين نهاية الستينيات، رافضة سلبية النزعة العلمية في التعاطي مع الشؤون العالمية. وقد أطلق ذلك نقاشات نظرية اشتملت في البداية على "بارادايمات" ثلاثة كما اصطلح على تسمية هذه المرحلة من النقاشات النظرية بالنقاش المتعدد "البارادايمي" interparadigm debate اقتداء بالعمل المرجعي لأحد أبرز فلاسفة العلم في العلاقات الدولية "مايكل بانكز" Michael Banks.[378]

انطلق النقاش النظري الثالث لدى تقهقر الرؤية القائلة بأن العلاقات الدولية تعتبر مجالا للفعل وتداول الخطابات السياسية بشكل مستقل عن النظرية السياسية، فهذه الرؤية فقدت الكثير من بريقها نهاية الستينيات كما أنها لم تعد تجد دعما كافيا في ظل الانتقادات الموجهة إليها بالتزام موقف محايد وسلبي إزاء عالم مليء بالكوارث من شاكلة حرب فييتنام ومخاطر حرب نووية بين القوتين العظميين. لقد تحول النقاش خلال هذه المرحلة من نقاش حول أكثر النظريات اتساقا إلى البحث عن أفضل النظريات إذا ما قيست بالبيئة العالمية التي تحاول وصفها وتفسيرها. لكن الميزة هذه المرة هي أننا أمام نقاش من نوع آخر لا يعنى بالمفاضلة بين الافتراضات المتنافسة، بل بالمفاضلة بين "البارادايمات" التي ترعاها.[379]

يصف "بانكز" هذا المشهد النظري الجديد بأن الباحثين في العلاقات الدولية أصبحوا يجدون أمامهم ثلاث صور عن العالم تمثل منطلقات مختلفة منذ البداية، فبالنسبة للنزعة الواحدية،[380] لدى الواقعيين، يعتبر المجتمع الدولي نظاما تتفاعل فيه الدول وفق منطق "كرة البيليارد" Billiard-ball (كل فعل يولد رد فعل يماثله في القوة بما ينشأ عنه فهم متميز للعلاقات الدولية باعتبارها علاقات صدام وقوة). في الطرف الآخر نجد النزعة التعددية pluralism والتي تعدد فواعل كثيرين بجانب الدولة، هذه النزعة التي تدافع عنها المقاربة الليبرالية تنطلق من صورة مختلفة بحيث ترى أن العالم أشبه بشبكة عنكبوت cobweb model (حيث الترابط والاعتماد المتبادل بين أعضاء المجتمع الدولي سيجعلهم يميلون للتعاون لا الصراع). وأخيرا، الصورة التي يقدمها أصحاب النزعة البنيوية Structuralism والتي تسمى في بعض الأدبيات "النزعة الراديكالية" وفي بعضها الآخر "النقدية"،[381] هذه الصورة تمثل المشهد العالمي بـ"أخطبوط متعدد

---

[378] إن استخدام مصطلح "البارادايم" آنذاك كان شائعا بفعل الوقع الذي أحدثه عمل "توماس كون" على كل المجالات العلمية، لكن لاحقا أي مع بداية النقاش النظري الرابع، أصبح هناك إحجام عن إطلاق وصف النقاش بين البارادايمات على النقاش النظري الثالث لأن هذا الأخير انضوت تحته عدد من المقاربات الوضعية والعقلانية والتي شكلت لاحقا بارادايما واحدا في مواجهة البارادايم التأملي والبارادايم البنائي، لكن يبدو من المناسب الاحتفاظ بهذا المصطلح لدى مراجعة حيثيات النقاش الثالث، كون التباين في الافتراضات النظرية للمقاربات الواقعية والتعددية (الليبرالية) والراديكالية (النقدية) يؤهلها لحمل وصف البارادايمات المتعارضة إذا ما اعتمدنا تعريفا مرنا للبارادايم، لفهم أفضل لبوادر النقاش الثالث، أنظر:

Michael Banks, "The Inter-Paradigm Debate", in M. Light & A.J.R. Groom (eds.), '**International Relations. A Handbook of current theory**' (UK: Frances Pinter, 1985), p. 7.

[379] Mark A. Neufeld, '**Restructuring of International Relations Theory**'(UK: Cambridge University Press, 1995), p. 47.

[380] أي أنها تحاجج بكون الدولة فاعلا موحدا ووحيدا في العلاقات الدولية، منطق الواحدية mono مقابل التعددية pluri في رصد التفاعلات التي تشكل السياسة الدولية حسب النظرة الأولى والسياسة العالمية حسب النظرة الثانية.

[381] تختلف آراء الباحثين بهذا الصدد فمنهم من يرى أن النقاش يتضمن بالإضافة إلى الواقعية والليبرالية عددا من المقاربات يجمع بينها راديكاليتها ورفضها للعالم كما هو، ليدرج كلا من النقدية لـ "كوكس" والتبعية لـ"كاردوسو" و"سمير أمين". أما البعض الآخر مثل "مارك

الرؤوس" Multiheaded Octopus [بلدان الشمال] يعمل على امتصاص ثروات بلدان المحيط الضعيفة [بلدان الجنوب].[382]

إن ميزة المقاربات الثالث التي تم تطويرها على هذه الصور هي أنها متسقة داخليا، أي أنه لا مجال لنقاش مستفيض بينها حول هذه المسألة، لكن من المحير أن مع ذلك تختلف كليا عن بعضها البعض في بناءاتها التصورية عندما يتعلق الأمر بالمكونات النظرية التالية: الفواعل؛ طبيعة الديناميكيات الدولية؛ المتغيرات التابعة؛ الحدود التي يجب رسمها للحقل المعرفي للعلاقات الدولية؛ وأخيرا حول مضامين بعض التصورات المفتاحية. إذن فقد كان طرح خاصية اللامقايسة مستساغا بالنظر إلى تفاوت واضح يمنع إجراء مقارنات معيارية. فالواقعيون يرون أن وظيفة النظرية في العلاقات الدولية يجب أن تنحصر في تفسير ما تقوم به الدول؛ بينما تذهب التعددية الليبرالية إلى أبعد من ذلك بإناطتها دور تفسير كل الأحداث العالمية المهمة؛ أما "النقدية"/"البنيوية" فترى أن وظيفة النظرية هي إماطة اللثام عن الأسباب التي أدت إلى هذا البون الشاسع بين الأغنياء والفقراء.[383]

على المستوى الأنطولوجي ترى الواقعية أن حدود الحقل المعرفي ترسمها السلوكات التي تقف ورائها الدول؛ بينما يتسع الحيز الأنطولوجي لدى ذوي النزعة التعددية ليشتمل على الشركات المتعددة، والأسواق والمجموعات الإثنية والقومية جنبا إلى جنب مع الدولة؛ أما لدى النزعة البنيوية فإن مجال البحث يصبح شاسعا وذلك لتمسكها بوحدة البنية الدولية على كل بما يكفل تحليلا عبر المستويات مع التركيز على الدور الذي تلعبه أنماط الإنتاج الاقتصادية بما يجعل السياسة بين الدول مسألة سطحية وتحصيل حاصل للتفاعلات الداخلية. أما التباين في التصورات المفتاحية المستخدمة في كل منها فيتضح من خلال اعتماد الواقعيين على الردع والتحالف؛ في مقابل الإثنية والاعتماد المتبادل لدى التعدديين الليبراليين؛ وأخيرا الاستغلال والتبعية لدى البنيويين.[384]

بالنسبة لـ"نيكولاس جـ. رينقر" Nicholas J. Rengger، يعتبر النقاش النظري الثالث أكثر النقاشات إهدارا للوقت دون قيمة مضافة لعلم العلاقات الدولية، فهو ورغم الطابع العلمي المحض الذي يحاول الظهور به، إلا أنه لم يكن سوى انعكاس للصراع الأيديولوجي آنذاك وللأيديولوجيات الثلاث المسيطرة على المشهد السياسي، من حيث أن الثلاثية "البارادايمية" المزعومة: الواقعية/التعددية/البنيوية تقبلها ثلاثية أيديولوجية: المحافظة/الليبرالية/الاشتراكية. وزيادة على ذلك فقد ساهم هذا النقاش في إضفاء مزيد من الغموض على مفهوم "البارادايم" الذي

هوفمان" فيرى أنها تنحصر في "النقدية". لمزيد من التوضيحات. وجهة نظر أخرى يسوقها "كارل هولستي" مفادها أن النقاش النظري الثالث جمع بين "التقليد البحثي الكلاسيكي"، ومقاربة "المجتمع العالمي" و"النيوماركسية".
حول هذه النقطة أنظر:

Mark Hoffman, 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate', **Mellennium: Journal of International Studies** 16 (2) 1987, p. 231; Karl J. Holsti '**The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory**' (London: Allen and Unwin, 1987); Michael Banks, op cit., pp. 7-15.

[382] Michael Banks, op cit., p. 30.

[383] Mark A. Neufeld, op cit., p. 47.

[384] Ibid.

أصبح يستخدم بطريقة عشوائية دون احترازات كافية.[385] بل ويذهب باحث آخر وهو "مايكل تشارلز ويليامز" Michael Charles Williams إلى القول بأن النقاش الثالث كشف، وبشكل مفضوح، عن غياب أرضية معرفية محايدة لتقييم المخرجات المعرفية في العلاقات الدولية، بل وساهم في تتفيه banalisation مصطلح النقاشات النظرية لأن المرحلة الثالثة من هذه النقاشات على حد تعبيره لم تتضمن أية نقاشات تذكر في واقع الأمر.[386]

لكن "أول ويفر" Ole Waever يطرح فكرة مخالفة، فبالنسبة إليه، يحلينا النقاش النظري الأول في الوهلة الأولى إلى مشكلة غير معهودة تتمثل في وجود طروحات متباينة في حقل العلاقات الدولية دون أن تتمكن من تطوير لغة مشتركة للحوار أو للتنافس فيما بين بعضها، لكن مع مرور الوقت استطعنا قراءة دروس مهمة من هذه المرحلة من تطور التخصص، حيث تراجعت الرؤى التي ترى بأن قوة التخصص في وحدته وانسجامه، حيث أثبتت مساعي الهيمنة خلال النقاشين الأولين أنها غير مجدية عندما يتعلق الأمر بإثراء الحقل المعرفي بعدد كبير من التصورات التي ستمكننا من فهم أفضل لما يحدث في الساحة الدولية. فخلال النقاش الأول تغلبت النظرة المتشائمة أنطولوجيا إزاء الطبيعة الإنسانية مما ساهم في إنتاج معرفي لا يساهم أحسن الأحوال إلا في الحفاظ على الوضع الراهن، ومعروف أن الوضع السائد بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن جيدا للجميع سيما مع اندلاع الحرب الباردة. أما في سياق النقاش الثاني فقد كادت تطغى النزعة العلمية والوضعية على الحقل رغم أن منطلقاتها تتمثل في فك الارتباط بالواقع فكانت السمة الغالبة هي السلبية. إذن، من المهم الانتباه إلى الخاصية الجديدة التي فرضها النقاش النظري الثالث على الحقل المعرفي: التعايش بين برامج بحثية/أو بارادايمات مختلفة كل منها تتلقف جزء من الظاهرة الدولية وتمثله نظريا بشكل ملفت لأنها طورت منطقا داخليا وبناء تصوريا يتناسب مع الجزء من الظاهرة الدولية الذي تتعاطى معه أنطولوجيا وباستخدام أدوات ابستيمولوجية وضعية.[387]

المطلب السادس: الاتصال المنظوراتي نيو-نيو وإطلاق النقاش النظري الرابع.

لقد اتسم المشهد الأكاديمي خلال النقاش النظري الثالث بتمسك كل مقاربة من المقاربات الثلاث بقناعتها بأن منظومتها التصورية تزود باحثي العلاقات الدولية بتفسيرات لا يمكن دحضها إمبريقيا، كما أن الاتصال عبر المنظوراتي لم يولد تركيبا بين المقاربات الثلاث، لكن مع بداية

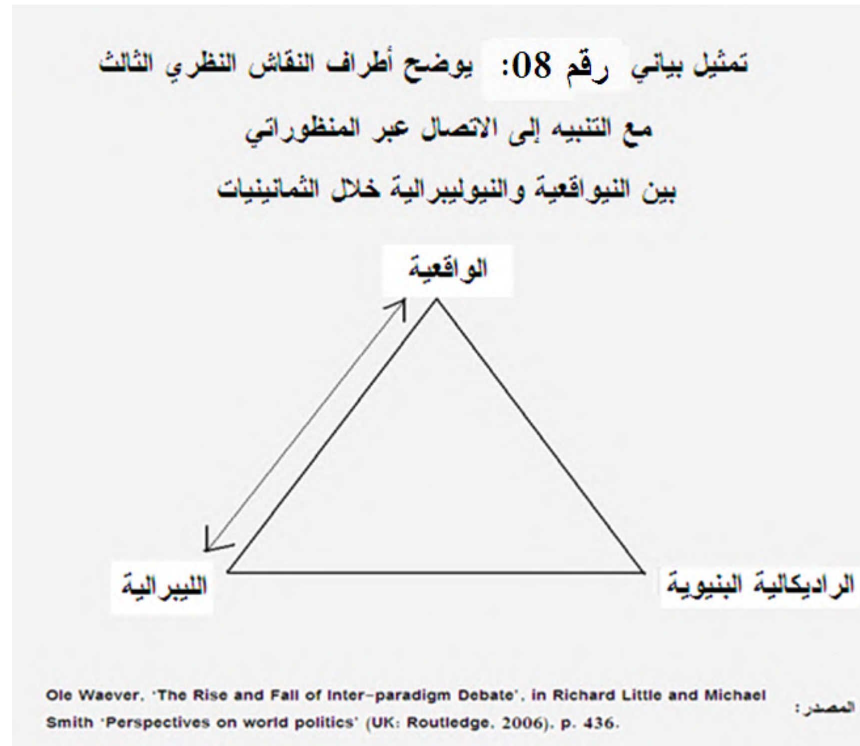
---

[385] Nicholas J. Rengger, '**International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory'** (UK: Routledge, 2000), p. 30.

[386] Michael Charles Williams, 'The Realist Tradition and the Limits of International Relations' (UK: Cambridge University Press, 2005), p. 141.

[387] Ole Waever, 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate', in Richard Little and Michael Smith '**Perspectives on world politics**' (UK: Routledge, 2006), pp. 435-437.

الثمانينيات وظهور بوادر تحدي بارادايمي أخطر مستشف من النزعة ما بعد الوضعية، وجدت النيوواقعية والنيوليبرالية في حالة اتصال منظوراتي حاد أفضى إلى إعادة ترتيب التصورات العقلانية بما يتيح لها التصدي للانتقادات التي وجهت للـ"البارادايم الوضعي" عموما في الحقول المعرفية الأخرى، حيث كانت العلاقات الدولية آنذاك بمنأى عنها. إذن فقد كان أهم تحول "بارادايمي" خلال السبعينيات والثمانينيات هو التحول عن الاعتقاد السائد بأن الاحترام والسمعة الأكاديمية للتخصص يمكن اكتسابهما عبر هيمنة "بارادايم" واحد إلى قناعة مختلفة ترى أن هذه السمعة تكتسب عبر الحصول على فهوم متنوعة وثرية عبر التسليم بقيمة المخرجات العلمية التي ينتجها كل "بارادايم" على حده.[388]



لكن المشكلة التي تطرح نفسها بحدة في ظل هذا المشهد: ما جدوى إطلاق عبارة نقاش على وضع اتصالي لا يظهر أية أنماط تحاورية، فكل من المقاربات السابقة التي وصفت بـالبارادايمات من طرف فلاسفة العلم في ذلك الوقت تمتلك منطقا خاصا بها لإنتاج الحقيقة truth، ونظرا لتباين الأنساق المنطقية التي ترتكز عليها كل وحدة على حده فإنه لا يمكن ابستيمولوجيا القيام بمراجعة النسق الخاص بأي منها من قبل الأنساق الأخرى لأننا هنا أصبحنا بحاجة إلى نسق أعلى، لأن الرموز التي تم تطويرها في المجموعات العلمية لهذه "البارادايمات" الثلاث لا تستطيع تأكيد أو دحض مخرجات معرفية غير تلك التي طورتها فهي ذاتية الإحالة self-referent.[389] هذه المشكلة استمرت إلى غاية بدء النقاش الرابع ولم يتم التعامل معها بجدية إلا بفضل سيبرنيطيقا

[388] Ole Waever, op cit., p. 236.
[389] Ole Waever, op cit., p. 236.

المستوى الثاني second order cybernetics لـ"فون فورستر"، والتي سيتم شرحها لدى التعرض لمخارج النقاش الرابع في الفصل الأخير من الأطروحة.

وإذ كان احترام التنوع النظري في حد ذاته مشكلة حسب الفهم الكلاسيكي فإنه يعتبر من زاوية معينة إحدى المكاسب المهمة بالنسبة للتخصص، حيث وبغض النظر عن تنوع الاستبصارات التي يمكن أن نحظى به عندما تكون لدينا مقاربات عدة، تمتلك كل منها جوانب قوة معينة، فإن تعقد المشكلات الدولية أكد بما لا يدع مجالا للشك أن التنوع فضيلة انتفع بها خلال النقاش الرابع، لكن إرساء هذا الاعتقاد يعود إلى السبعينيات وأوائل الثمانينيات أي خلال النقاش النظري الثالث. إذ أن ميزة هذا النقاش هي النزعة المحافظة والتحول البارادايمي الأساسي الذي أرسيت أسسه هو التخلي عن المنطق الثوري وعن منطق التحولات البارادايمية نفسه لصالح الفهم اللاكاتوشي أي برامج بحثية بعضها تقدمي progressive والآخر تقهقري regressive.[390]

يعتبر تبني مصطلح النقاش متعدد المنظورات ذاته مظللا، لكنه ساعد على إضفاء المسحة المحافظة conservative لأنه بذلك حال دون سيادة أسلوب النقد المتبادل بين المقاربات الثلاث، فقد أوجد أسوارا معرفية حصنت هذه المقاربات ضد النقد عبر رفع شعار: لا تنتقدني، فنحن لا نتحدث لغة واحدة. إذن فأهم إنجاز للنقاش النظري الثالث هو شرعنة التقليد البحثي المبني على برامج بحثية مجبرة على تكييف افتراضاتها في كل مرة يبرز فيها خلل تصوري. لكن مواطن الخلل هذه تكشف عنها عادة أدبيات فلسفة العلوم، إذن فقد أصبح للنقاش أيضا محتوى مختلف، وتم إيجاد المستوى الثاني للملاحظة وشرعنته فعليا قبل أن يتم التنظير له تصوريا باعتباره أحد مخارج النقاش الرابع.[391]

إن فضل النقاش النظري الثالث على الرابع لا يتوقف عند هذا الحد، بل إحدى أهم إنجازاته متمثلة في النقاش الداخلي [أي ضمن البارادايم العقلاني نفسه] بين النيوواقعية والنيوليبرالية والذي أفضى إلى التوليفة نيو-نيو ساهم في تقوية معسكر العقلانيين الذين أصبحوا يبحثون عن خصم نظري جديد وضعيف. ومعروف أن التوجه التركيبي نيو-نيو كان بمثابة تحول معرفي غير متوقع، إذ أصبح تعدديو السبعينيات (الليبراليين) في معظمهم نيوليبراليين مؤسساتيين مع حدوث التحول نيو-نيو، وكانوا بذلك قد اقتربوا من النيواقعيين، فكلاهما يسلم بالفوضى مع فارق أن النيوواقعيين يعتقدون بإمكان مساهمة المؤسسات الدولية في التخفيف من جدة الفوضى، كما أن كلاهما يسلم بوجود ظاهرة الركبة المجانية free-riding pattern والتي تتلخص في وجود دول تستفيد من مزايا التعاون دون المساهمة في تكاليف إرسائه.[392]

ويرى "جوزيف قريكو" Joseph Grieco أن التمايز الرئيسي بين المقاربتين النيوواقعية والنيوليبرالية هو في نظرتهما لمقاصد الدول من وراء التفاعل غير النزاعي، فمن

---

[390] Ibid., p. 237.
[391] Ole Waever, op cit., p. 236.
[392] كريس براون، ترجمة: مركز الخليج للأبحاث، **"فهم العلاقات الدولية"** (دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004)، ص. 56.

المنظور النيوواقعي فإن الدول تسعى نحو تحقيق مكاسب نسبية أي أنها تهتم بما تحصل عليه الدول الأخرى،[393] وبتعبير أكثر تبسيطا فإنه لا يهم كثيرا الحصول على مكاسب كبيرة طالما أن دولا أخرى منافسة قد تحصل على مكاسب أكبر تهدد وضعها التنافسي إن عسكريا أو اقتصاديا. أما من منظور النيوواقعية فإن إدراك الدول بأنها في وضع لا يدعو للارتياح بوجود تحديات عدة، يجعلها تتلافى مقارنة مكاسبها مع الآخرين، لأن إرساء التعاون سيحقق لها مستوى معين من المكاسب، وذلك في حد ذاته كاف. وهكذا فقد اختلفت مكونا التوليفة نيو-نيو في بعض التفاصيل لكنهما توافقا بشأن عقلانية مساعي الدولة في بيئتها المتسمة بغياب التراتبية.

وحسب "أول ويفر" فإن هذه التوليفة العقلانية يمكنهم من الهيمنة على الحقل عبر مؤامرة يستبعد فيها خصمهم العقلاني التقليدي البنيوية (الينوماركسية). ففي مداخلته الافتتاحية كرئيس لجمعية الدراسات الدولية، سنة 1988 قال "روبرت كيوهان" أن المشهد الأكاديمي حاليا يهيمن عليه برنامجين للبحث: برنامج البحث العقلاني rationalist الذي يتضمن التوليفة نيو-نيو، مقابل برنامج البحث التأملي reflectivist والذي يتضمن مقاربات مستلهمة من: الاتجاه ما بعد البنيوي poststructuralism الفرنسي، و"الهيرمونيطيقا" hermeneutics و"الفيتقنشاينية" [نسبة إلى Wittgenstein] الألمانيتين فضلا إلى البنائية الاجتماعية.[394]

هذا التوصيف الذي قدمه "كيوهان" للمشهد الأكاديمي، والذي حظي باستحسان التقليد البحثي المهيمن ومنظريه، ساهم في إعادة ترتيب الكتب الدراسية في التخصص لجعل "ما بعد الحداثة" عموما بمثابة التحدي البارادايمي الحقيقي للعقلانية. ونظرا لأن المقاربات التأملية التي تحدث عنها "كيوهان" لم تكن أهلا لمنافسة التقليد البحثي العقلاني آنذاك فقد استشف النيوماركسيون من هذه الخطوة أنها مؤامرة للهيمنة على الحقل عبر تقديمه كميدان خصومة نظرية مع مقاربات ضعيفة بينما يغض الطرف عن النيوماركسية، لأنها تتبنى بدورها ابستيمولوجيا وضعية، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن معايير النشر في الدوريات الأكاديمية تطغى عليها النزعة الوضعية فسوف يبدو الطرح النيوماركسي مؤسسا نسبيا.[395]

لكن وحتى إذا سلمنا بوجهة النظر هذه، فإن التحدي البارادايمي المتأتي من "التأملية" لم يكن هينا في النهاية، لأنه ساهم في صقل "البارادايم البنائي" بداية التسعينيات مستفيدا من ثلاثة عوامل أساسية:[396] أولى هذه العوامل، مغالاة التوليفة نيو-نيو في نزعتها العلمية بما أبعدها عن الاهتمام بالقضايا الجوهرية للحركية السياسية مع العلم أن الواقعية الكلاسيكية جنبا إلى جنب مع الليبرالية الكلاسيكية كانتا تتلقفان هذه الحركية بشكل أفضل بتوظيف أدواتهما التحليلية التقليدية. ومن جانب آخر، فإن التأملية وجدت نفسها رهينة النزعة التقويضية التي لا تقدم أية بدائل عملية نظريا أو ممارساتيا؛ ثاني العوامل التي أفادت البنائية تمثلت في صعوبة إرساء قنوات اتصال

---

[393] كريس براون، المرجع السابق، ص. 57.

[394] Ole Waever, op cit., p. 240.

[395] Ole Waever, op cit., p. 439.

[396] لفهم أفضل للميزة المقارنة للتحليل البنائي في العلاقات الدولية أنظر:

Ted Hopf, 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory', in Andrew Linklater, '**International Relations: Critical Concepts in Political Science**' (UK Taylor & Francis, 2000), p. 1756.

منظوراتي بين العقلانية والتأملية بسبب انغلاقهما في ابستيمولوجيا ذات نسق معرفي متفرد أعاد طرح مشكلة اللامقايسة من جديد في نظرية العلاقات الدولية. لكن العامل الأكثر أهمية ربما له علاقة بالتطورات الإمبريقية التي لم يسايرها أي من المنظورين السابقين: نهاية الحرب الباردة. فبالنسبة لهذه النقطة بالذات، وجدت العقلانية في مصيدة التبريرية للوضع القائم بحيث أخفقت في في التنبؤ لهذا الحدث البارز، أما التأملية فقد كانت غارقة في مطارحات مفاهيمية مثيرة للاهتمام لكن لم تصل بعد إلى درجة تزويدنا بنماذج عملية تحاكي الواقع وتستشرف له.

إذن فقد أصبح الحقل مرة أخرى في تضارب نظري يجمع ثلاثة بارادايمات [بكل ما تحمله كلمة "بارادايم" من معنى] وذلك بعد أن بدا المشهد الأكاديمي مختزلا في العقلانية والتأملية.

خاتمة

خاتمة

ساهمت الفصول الثلاثة من هذه الأطروحة في تمحيص عدد من الافتراضات الأولية والتصورات التي عادة ما كانت تلازم الحديث عن النقاشات النظرية، بما في ذلك تلك المتعلقة بنفي وجود نقاشات من الأساس في حقل العلاقات الدولية. إن محاولة إسقاط الطروحات المتعلقة برصد وتفسير التحولات المعرفية على تطور الحقل المعرفي لعلم السياسة والعلاقات الدولية، ساعد على التوصل إلى نتيجة مفادها أن كلا من "التحولات البارادايمية الكونية" و"البرامج البحثية اللاكاتوشية" و"الوثبات المعرفية لـ فايرآبنت" إنما تبصر باحثي التخصص جزئيا فقط، ذلك أن كلا منها يتمتع بقوة تفسيرية لدى الحديث عن مراحل معينة من تطور هذا الحقل المعرفي.

وبذلك تمت الإشارة إلى أنه، وخلافا لكل التحديات البارادايمية التي واجهها التقليد البحثي السائد إن في علم السياسة أو في "العلاقات الدولية" IR، فوحدها المقاربات السلوكية ذات النزعة العلمية المتطرفة شكلت تحولا ثوريا بارادايميا بالمفهوم "الكوني" في علم السياسة، أما في "العلاقات الدولية" فإن الأمر بدا مختلفا تماما، حيث ظل التنافس رهين "البارادايم الوضعي" وبين برامج بحثية بالمفهوم "اللاكاتوشي"، عدا أن الفوضى المنهجية "الخلاقة"، حسب طرح "فايرآبنت"، مكنت من بروز تحديات بارادايمية حقيقية للوضعية-العقلانية خلال النقاش النظري الرابع.

لكن الصيغة التي تم عبرها تأطير هذا النقاش كانت مختلفة، سمتها الأساسية التملص من الثنائية التي انبنت عليها طروحات "كون" و"لاكاتوش" فضلا عن "فايرآبنت". حيث أنه ومع وجود اختلافات بين نظرة كل منهم لمسألة التحول المعرفي (بين من يرى أن "النظرية الكبرى" القديمة يتم احتوائها من طرف الجديدة وبين من يصر على القطيعة المعرفية الجزئية أو الكلية)، إلا

أنهم يتفقون على قضية واحدة على الأقل، وهي تعاقب نظريتين في كل الحالات، لذا كان التملص من هذا الإطار الثنائي في حد ذاته تطورا استثنائيا.

وقد ساهم المبحث الثاني من الفصل الأول في إلقاء الضوء على بعض ارتدادات ذلك على المستوى التنظيري، فالقطيعة المعرفية الصرفة بمفهوم "باشلار"، بدا أنها غير مؤسسة نظرا لوجود اتصال منظوراتي ونقاش داخلي بين المقاربات المنتمية للتقليد البحثي السائد العقلاني و/أو تلك المنتمية لتقاليد بحثية بديلة أي التأملية والبنائية، حيث برزت القوة التنظيرية لكل منها على حده في جوانب معينة. إلا أن طرح "فيتغنشتاين" أثبت صحته جزئيا من حيث أن كل "باراديام" كان يعتمد على لعبة لغوية language games متميزة وقدم استبصارات حصرية لدى اختباره في مسألة "مأسسة التفاعلات الدولية". ومع ذلك، يبدو غريبا أن هذه اللعبة اللغوية على صعيد كل "باراديام" لم تغلق منافذ النقاش، بل أوجدت مجالات تواصل منظوراتي أمدت التخصص بمخرجات علمية متميزة: سيما قضايا مثل العلاقة بين المصلحة/الهوية/الخطاب.

في الجزء الأخير من البحث تم تبيان كيف أن "النقاش النظري الخامس" -المرتقب- في نظرية العلاقات الدولية، والذي يستند إلى علم "التعقد" بكل تشعباته، لا يبدو أنه سينطلق من بروز تحديات "باراديمية" جديدة لتلك السائدة، بقدر تعلقه بصيغة تمكن من تجاوز البنيان التصوري الحالي لـ "البارديام"، والذي يعتمد على اللامقايسة الناجمة عن التمسك بادعاءات امتلاك الحقيقة وقياس الصحة والصلاحية وفق معايير انبعثت من صميم "الباراديام"، إلى صيغة جديدة للاتصال عبر المنظوراتي (أو الباراديمي) تقارب للمسعى المعرفي باعتباره مشروعا يهتم أساسا ببناء نظريات متماسكة لا نظريات عامة. سيساعد ذلك في صياغة برامج بحثية تقدمية، ومن جانب آخر فإن التعايش "الباراديمي" في إطار العلم ما بعد الكوني سيساهم في تفعيل الاتصال عبر المنظوراتي بما يساعد على التخلص من الدوغما المتأصلة في بعض النزعات "العلمية" السائدة وزيادة فاعلية الملاحظة من الدرجة الثانية بفضل تذليل عقبة "الأكسيولوجيا" بما:

- يزيد حدة التنافس الباراديمي والتنافس بين البرامج البحثية ضمن "البراديام" الواحد.
- يقلص أعمار مراحل الأزمات المعرفية كما يطرحها "كون".
- تقسيم العمل labour division بين المقاربات النظرية وحل معضلة "التلينوميا" عبر المخرج "الفرونيزي" أي البحث عن التوافقات الممكنة بين النظرية والممارسة.

إن التوليفة التحليلية المتكونة من عدد من النظريات المتماسكة، تحل معضلة "أكسيولوجية" رئيسية عبر التخلص من الوصاية الوضعية على مسألة حيوية جدا في "فلسفة علم العلاقات الدولية": تحديد مضمون العلم نفسه. وذلك عبر القبول بوجود بنى معرفية ثلاثة هي: "العقلانية" و"البنائية" و"التأملية"، لكل منها تصورها الخاص للطريقة التي يتم من خلالها التثبت من مزاعم "الصحة" و"الصلاحية".

وأخيرا، فإنه من المهم جدا الإشارة إلى أن هذه الأطروحة لا تصبو إلى الإجابة عن التساؤلات التي تعتبر من صميم النقاش الرابع بين المقاربات النظرية للعلاقات الدولية، بل تهدف إلى فتح آفاق بحث أوسع سيما عبر اقتراح مخارج تصورية من قبيل "الفرونيزيا" و"سيبرنيطيقا

المستوى الثاني للملاحظة"، لذا سيكون من المناسب إجراء بحوث مستقبلية حول تطبيقات "العلم ما بعد الكوني" في قضايا تتسم بـ"اللاخطية" non-linearity و"الشاوش" أو "الكاوس" chaos، والتي أضحت الأحداث الدولية تصطبغ بها.

قائمة المراجع

قائمة المراجع:

أ. الكتب باللغة العربية: a. Books in arabic

1. بوبر، كارل. ترجمة: أحمد مستجير. "**بحثا عن عالم أفضل**". مصر: سلسلة أعمال فكرية، 2001.
2. -. ترجمة: ماهر عبد القادر محمد. "**منطق الكشف العلمي**". بيروت: دار النهضة العربية، 1986.
3. براون، كريس. ترجمة: مركز الخليج للأبحاث. "**فهم العلاقات الدولية**". دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004.
4. بيليس، جون و ستيف سميث. ترجمة: مركز الخليج للأبحاث. "**عولمة السياسة العالمية**". ط. 1. دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004.
5. الجابري، محمد عابد. "**مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي". ط. 6. لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.
6. الخولي، يمنى طريف. "**فلسفة العلم في القرن العشرين: الأصول، الحصاد والآفاق المستقبلية**". الكويت: عالم المعرفة: 2000.
7. ستروك، جون. محمد عصفور، مترجما. "**البنيوية وما بعدها: من ليفي شتراوس إلى دريدا**". الكويت: عالم المعرفة، 1996.
8. فايرآبنت، باول. ترجمة: محمد أحمد السيد. "**ثلاث محاورات في المعرفة**". الاسكندرية: منشأة المعارف، 1997.
9. كون، توماس. ترجمة: شوقي جلال. "**بنية الثورات العلمية**". الكويت: عالم المعرفة، 1992.

10.ناي، جوزيف وآخرون. ترجمة: محمد شريف الطرح. "**الحكم في عالم يتجه نحو العولمة**". الرياض: مكتبة العقبيقان، 2002.

b. Books & Book' Chapters in English ب.كتب وفصول في كتب باللغة الإنجليزية:

1. Adcock, Robert. 'Interpreting Behavioralism', in Robert Adcock et al., eds. '**Modern Political Science: Anglo-American Exchanges Since 1880**'. USA: Princeton University Press, 2007.
2. Archer, Margaret S. '**Structure, agency and the internal conversation**'. UK: Cambridge University Press, 2003.
3. Banks, Michael 'The Inter-Paradigm Debate'. in M. Light & A.J.R. Groom. eds. '**International Relations. A Handbook of current theory'.** UK: Frances Pinter, 1985.
4. Bigo, Didier. 'The Möbius Ribbon of Internal and External Securities', in Mathias Albert et al. eds. '**Identities, Borders, Orders: Rethinking International Relations Theory**'. USA: University of Minnesota Press, 2001.
5. Blaikie, Norman. '**Approaches to Social Enquiry: Advancing Knowledge**'. USA: Polity, 2007.
6. Boston, David. 'The Political Science in the United States: Past and Present'. in David Easton, et al. eds. '**The Development of Political Science: A Comparative Survey'.** UK: Routledge, 1991.
7. Booth, Ken, Michael Cox and Timothy Dunne. '**The eighty years' crisis: international relations 1919-1999**'. UK: Cambridge University Press, 1998.
8. Brown, Harold I. **'Rationality**'. UK: Routledge, 1990.
9. Burchill Scott et al. '**Theories of International Relations**'. 3rd ed. UK: Palgrave Macmillan, 2005.
10. Cohen, Floris. '**The Scientific Revolution: A Historiographical Inquiry'.** University of Chicago: Press, 1994.
11. Elman, Colin and Miriam Fendius Elman. 'Appraising Progress in International Relations Theory: An Introduction'. in Colin Elman and

Miriam Fendius Elman. eds. '**Progrees in International Relations Theory'.** USA: Mit Press, 2003.

12. Foucault, Michel. '**Nirtzsche, Généalogie, Histoire**'. Paris: Editions la Découverte, 1971.

13. Friedrichs, Jörg. 'The meaning of new medievalism: An exercise in theoretical reconstruction'. in Jörg Friedrichs '**European Approaches to International Relations Theory: A House with Many Mansions'.** London: Routledge, 2004.

14. Geyer, Felix R. and Johannes Van der Zouwen, '**Sociocybernetics: Complexity, Autopoiesis, and Observation of Social Systems'.** UK: Greenwood Publishing Group, 2001.

15. Giere, Ronald N. '**Science without Laws**'. USA: University of Chicago Press, 1999.

16. Gillies, Donald. 'Lakatos' Criticisms of Popper'. in George Kampis, et al. eds. '**Appraising Lakatos: mathematics, methodology, and the man**'. US: Springer, 2002.

17. Griffiths, Martin. 'Worldviews and IR Theory: Conquest or Coexistence'. in Martin Griffiths. ed. '**International Relations Theory for the Twenty First Century: An Introduction**'. UK: Routledge, 2007.

18. Harisson, Neil E. 'Complex Systems and the Practice of World Politics'. in Neil E. Harisson. ed. '**Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm'.** USA: State University of New York Press, 2006.

19. – ed. '**Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm'**. NY: State University of New York Press, 2006.

20. – 'Thinking About The World We Make'. in Neil E. Harisson. ed. **Complexity in World Politics: Concepts and Methods of A New Paradigm.** USA: State University of New York Press, 2006.

21. Heere, Gerald. '**Die Wellen der Theorie: Eine Empirische Untersuchung über die Grundlegenden Merkmale im System „IB Theorie''.** Deutschland: Technische Universität Carolo Wilhelmina zu Braunschweig, 2004.

22. Heiskanen, Ilkka. 'On the role of meta-analysis in political science: from legitimation, illusions and sous-realism to transrealism, disillusionism and delegitimation'. in Dag Anckar and Erkki Berndtson. eds. '**Political Science Between the Past and the Future'.** Jyväskylä: Finnish Political Science Association, 1988.

23. Holsti, Karl J. '**The Dividing Discipline. Hegemony and Diversity in International Theory'.** London: Allen and Unwin, 1987.

24. Hopf, Ted. 'The Promise of Constructivism in International Relations Theory'. in Andrew Linklater. **'International Relations: Critical Concepts in Political Science**'. UK: Taylor & Francis, 2000.

25. James, Patrick. '**International Relations and Scientific Progress: Structural Realism Reconsidered**'. USA: Ohio State University Press, 2002.

26. Jones, Charles A. '**E.H. Carr and international relations: a duty to lie**'. UK: Cambridge University Press, 1998.

27. Kurki, Milja and Colin Wight. 'International Relations and Social Science'. in Timothy Dunne, et al. eds. '**International Relations Theories: Discipline and Diversity**'. UK: Oxford University Press, 2007.

28. Laitin, David D. 'The Political Science Discipline'. in Edward D. Mansfield. '**The Evolution of Political Knowledge: Theory and Inquiry in American Politics**'. USA: Ohio State University Press, 2003.

29. Lakatos, Imre and A. Musgrave. eds. '**Criticism and the Growth of Knowledge'.** Cambridge: Cambridge University Press, 1970.

30. Leydesdorff, Moet. **'A Sociological Theory of Communication: The Self-organization of the Knowledge-based Society'.** USA: Universal-Publishers, 2001.

31. Lingua Franca editors. '**The Sokal Hoax: The Sham That Shook the Academy'**. USA: University of Nebraska Press, 2000.

32. Losee, John. '**Theories of Scientific Progress: An Introduction**'. UK: Routledge, Taylor and Francis Group, 2004.

33. MacIntyre, Alasdair. 'First Principles, Final Ends, and Contemporary Philosophical Issues'. in Alasdair MacIntyre. '**The Tasks of Philosophy: Selected Essays'.** Vol. I. UK: Cambridge University Press, 2006.

34. Manghroor, Ray and Ramberg Bennett. '**Globalism versus Realism: International Relations Third Debate**

35. Mathias, Albert and Lena Hilkheimer. eds. '**Observing International Relations: Niklas Luhmann and World Politics'.** London: Routledge, 2004.

36. Maturana, Humberto R. Francisco J. Varela. '**Autopoiesis and cognition: the realization of the living**'. USA: Springer, 1980.

37. Monroe, Renwick. ed. '**Perestroika: The Raucous Rebellion in Political Science**'. New Haven: Yale University Press, 2005.

38. Morgenthau, Hans J. **'Politics Among Nations: The Struggle for Power and Peace'.** 5th revised ed. USA: Alfred A. Knopf, 1978.

39. Nagel, Ernest. '**The Structure of Science**'. New York: Harcourt, Brace & World, 1987.

40. Neufeld, Mark A. '**Restructuring of International Relations Theory**'. UK: Cambridge University Press, 1995.

41. Oakeshott, Michael. '**On Human Conduct**'. UK: Oxford University Press, 1990.

42. Pushala, Donald J. 'Woe to the Orphans of the Scientific Revolution'. in Robert L. Rothstein and William T. R. Fox. eds. **'The Evolution of Theory in International Relations: Essay in Honor of William T. R. Fox'.** USA: University of South Carolina Press, 1992.

43. Reinalda, Bob and Bertjan Verbeek. '**Patterns of Decision Making within International Organization'** (UK: Routledge, 2004).

44. Rengger, Nicholas J. '**International Relations, Political Theory, and the Problem of Order: Beyond International Relations Theory'.** UK: Routledge, 2000.

45. Ritzer, George. ed. '**Blackwell Companion to Major Contemporary Social Theorists**'. UK: Blackwell Publishing, 2003.

46. Roseneau, James. 'Globalization and Governance: Bleak Prospects for Sustainablity', in Alfred Pfaller and Marika Lerch. '**Challenges of Globilzation'**. Transaction Publishers, 2005.

47. Salomon, Jean-Jaques. '**Survivre à la Science : Une Certaine Idée du futur**'. Paris: Albin Michel, 1999.

48. Schmidt, Brian. 'Epilogue', in Knud Erik Jørgensen and Tonny Brems Knudsen. eds. '**International Relations in Europe Traditions, Perspectives and Destinations**'. UK: Routledge, 2006.

49. Schram, Sanford F. and Brian Caterino. eds. '**Making Political Science Matter: Debating Knowledge, Research, and Method**'. New York: New York University Press, 2006.

50. Simmons Beth A. and Lisa L. Martin, 'International Organizations and Institutions', in Walter Carlsnaes et al. eds. '**Handbook of International Relations**'. UK: Sage, 2002.

51. Smith, Steve and Patricia Owens. 'Alternative Approaches to International theory'. in John Baylis and Steve Smith. eds. **'The Globalization of World Politics: An Introduction to International Relations**'. 2nd ed. UK: Oxford University Press, 2001.

52. – '**International Theory: Positivism and Beyond**'. UK: Cambridge University Press, 1996.

53. – 'The Self-Images of a Discipline', in Ken Booth and Steve Smith, eds., **International Relations Theory Today.** US: State University of New York Press, 1995.

54. Taylor, Mark C. **'The Moment of Complexity: Emerging Network Culture'.** USA: University of Chicago Press, 2003.

55. van de Vijver, Gertrudis. **'New Perspectives on Cybernetics: Self-organization, Autonomy, and Connectionism'.** USA: Springer, 1992.

56. Vasquez, John. 'Kuhn versus Lakatos: The Case for Multiple Frames in Appraising International Relations Theory'. in Colin Elman and

Miriam Fendius Elman. eds. '**Progrees in International Relations Theory'.** USA: Mit Press, 2003.

57. – 'The Post-Positivist Debate', in Ken Booth and Steve Smith, eds., **International Relations Theory Today** (US: State University of New York Press, 1995).

58. Von Foerster, Heinz. **Understanding Understanding: Essays on Cybernetics and Cognition.** USA: Springer, 2002.

59. Wæver, Ole. 'Figures of International Thought: Introducing Persons instead of Paradigms'. in Iver B. Neumann and Ole Wæver, '**The future of international relations: masters in the making?**'. UK: Routledge, 1997.

60. Wæver, Ole. 'The Rise and Fall of Inter-paradigm Debate'. in Richard Little and Michael Smith **'Perspectives on world politics**'. UK: Routledge, 2006.

61. Wight, Colin. '**Agents, Structures and International Relations: Politics as Ontology**'. UK: Cambridge University Press, 2006.

62. – 'Philosophy of Social Science and International Relations'. in Walter Carlsnaes, et al. eds**. 'Handbook of International Relations**'. UK: SAGE Publications, 2002.

63. Williams, Michael Charles. '**The Realist Tradition and the Limits of International Relations**'. UK: Cambridge University Press, 2005.

64. Williams, Phil. **'From the New Middle Ages to A New Dark Age: The Decline of the State and US Strategy'.** US: Strategic Studies Institute, 2008.

65. Wright, Larry. '**Teleological Explanations: An Etiological Analysis of Goals and Functions'**. CA: University of California Press, 1976.

c. Periodicals — د. مقالات في دوريات محكمة:

1. Almond, Gabriel Abraham. 'Separate Tables: Schools and Sects in Political Science'. **PS** 21 (04) 1990. pp. 828-42.
2. Armitage, David. 'The Fifty Years' Rift: Intellectual History and International Relations'. **Modern Intellectual Studies** 1 (1) 2004. pp. 97-109.
3. Ashworth, Lucian M. 'Did the Realist-Idealist Great Debate Really Happen ? A Revisionist History of International Relations', **International Relations** 16 (01) 2002. pp. 33-51.
4. Becker, George. 'The Merton Thesis: Oetinger and German Pietism, a Significant Negative Case'. **Sociological Forum** 7 (04) 1992. pp. 641-660.
5. Bieler, Andreas and Adam David Morton, 'The Gordian Knot of Agency—Structure in International Relations: A Neo-Gramscian Perspective'. **European Journal of International Relations** 7 (01) 2001. pp. 05-35.
6. Dryzek, John S. 'Revolutions Without Enemies: Key Transformations in Political Science'. **American Political Science Review** 100 (04) 2006. pp. 487-492.
7. Emilian, Kavalski. 'The fifth debate and the emergence of complex international relations theory: notes on the application of complexity theory to the study of international life'. **Cambridge Review of International Affairs** 20 (03) 2007. pp. 435-454.
8. Esposito, Elena. 'From Self-reference to Autology'. **Social Science Information** (Special Issue: Autopoietic Systems Theory and the System of Science) 1995. Pp. 269-281.
9. Flyvbjerg, Bent. 'Social Science That Matters'. **Foresight Europe** (Vol. 1) 2006. pp. 38-42.
10. Haslam, Jonathan. 'No Virtue Like Necessity: Realist Thought in International Relations since Machiavelli'. **Review of International Studies** (13) 1987. pp. 14-32.
11. Hoffman, Mark. 'Critical Theory and the Inter-Paradigm debate'. **Millennium: Journal of International Studies** 16 (2) 1987. pp. 231-250.

12. Kaplan, Robert. ‘The Coming Anarchy’. **The Atlantic Monthly Review** (February) 1994. pp. 44-76.

13. Kratochwil, Friedrich. ‘History, Action and Identity: Revisiting the Second’ Great Debate and Assessing its Importance for Social Theory’. **European Journal of International Relations** 12 (01) 2006. pp. 05-29.

14. Kurth, James. ‘Inside the Cave: The Banality of IR Studies’. **The National Interest** (53) 1998. pp. 29-40.

15. Lapid, Yosef. ‘The Third Debate’. **International Studies Quarterly** (33) 1989. pp. 235-254.

16. Martinson, Brian C. et al. ‘Scientists Behaving Badly’. **Nature** (Vol. 435) 2005. pp. 737-738.

17. Maton, Karl. ‘Reflexivity, Rationalism & Research: Pierre Bourdieu and Epistemic Conditions of Social Scientific Knowlodge’. **Space and Culture** 32 (06) 2003. pp. 52-65.

18. Mayr, Ernst. ‘The Idea of Teleology’. **Journal of the History of Ideas** (Vol. 53) 1992. pp. 117-135.

19. Monastersky, Richard. ‘French TV Stars Rock the World of Theoretical Physics’. **The Chronicle of Higher Education** (November) 2002. pp. 17-25.

20. Morgan, David L. ‘Paradigms Lost and Pragmatism Regained: Methodological Implications of Combining Qualitative and Quantitative Methods’ 48 (01) 2007. pp. 48-76.

21. Navon, Emmanuel. ‘The ‘Third Debate’ Revisited’. **Review of International Studies** 27 (04) 2001. pp. 611-625.

22. NPS Caucus, ‘History of the Caucus for a New Political Science’. **New Political Science** 29 (04) 2007. pp. 501-507.

23. Quirk, Joel and Darshan Vigneswaran, ‘The Construction of an Edifice: The Story of a First Great Debate’. **Review of International Studies** (Vol. 31) 2005. pp. 59-74.

24. Salvaggio, Salvino A. ‘Au commencement était le trait : Distinctions, cercles et autres miroirs dans la théorie sociologique contemporaine’.

Social Science Information (Special Issue: Autopoietic Systems Theory and the System of Science) 1995. pp. 02-11.

25. Shapin, Steven. 'Understanding the Merton Thesis'. **Isis** 79 (04) 1988. pp. 594—605.

26. Stephano, Guzzini. 'The Enduring Dilemmas of Realism in International Relations'. **European Journal of International Relations** 10 (04) 2004. pp. 95-136.

27. Taureck, Rita. 'Securitization theory and securitization studies', **Journal of International Studies and Development** 9 (01) 2006. pp. 53-61.

28. Walker, Robert B. J. and Didier Bigo. 'Political Sociology and the Problem of the International'. **Millennium Journal of International relations** 35 (3) 2007. pp. 725-739.

29. Walt, Stephen. 'International Relations : One World, Many Theories'. **Foreign Policy** (Spring) 1988. pp. 29-46.

30. Walther, Bo Kampmann. 'Big Theory – Strong Theory: The Ontological Ghost of Post-Ontological Epistemology'. **Cybernetics and Human Knowing** 11 (03) 2005. pp. 01-25.

31. Wight, Colin. 'Incommensurability and Cross-Paradigm Communication in International Relations Theory'. **Millennium Journal of International Relations** 25, 1996. pp. 291-319.

32. Vieira, Marco Antonio. 'The Securitization of the HIV/AIDS Epidemic as A Norm'. **Brazilian Political Science Review** 1 (2) 2007. pp. 137-182.

33. Wilson, Peter. 'The Myth of the "First Great Debate'. **Review of International Studies** (Vol. 24) 1998. pp. 01-15.

b. Web Links **د. وصلات إنترنت:**

1. Engle, Eric. '**Ontology, Epistemology and Axiology: Bases for a Comprehensive Theory of Law**'. Social Science Research Network. Retrived on: 16/08/2008.

<http://papers.ssrn.com/sol3/Delivery.cfm/SSRN_ID1268528_code879868.pdf?abstractid=1268528&mirid=1>

2. Hendershot, Cris. '**Beyond Dichotomies: A Reflexive Engagement of Critical Reflexivity**'. YCISS Working Paper Number 28, May 2004. Retrived on : 15/02/2008.
<www.yorku.ca/yciss/publications/documents/WP28-Hendershot.pdf>

3. Kaupi, Niilo. **'Rationality and Reflexvity in the EU: Some Ontological and Epistemological Considerations**. Paris: CNRS / GSPE working paper, 2009. Retrived on : 10/08/2008.
<prisme.u-strasbg.fr/workingpapers/WPKauppi.pdf>

4. Rose, John. '**Current Topics in Cybernetics and Systems**'. Proceedings of the Fourth International Congress of Cybernetics & Systems, 21-25 August, 1978, Amsterdam, Netherlands: 1978. Retrived on: 08/01/2009.
<http://www.emeraldinsight.com/Insight/html/Output/Published/EmeraldFullTextArticle/Pdf/0670290504.pdf>

5. Waever, Ole. '**Prolegomena to a Posthumos Textbook : How Should we teach' (IR?) Theory in a Post-international Age ?**. A paper prepared for ECPR 5th Pan-European International Relations Conference, The Hague september 9-11 2004.
<http://listserv.cddc.vt.edu/pipermail/interpretationandmethods/2006-August/000507.html >

ملحق

الملحق 1:

جداول تلخيصية لأهم المقاربات النظرية

المنضوية في النقاشات الأربعة

- **المقاصد، والافتراضات والمواضيع الأساسية**
- **التصورات المفتاحية،**
- **والقضايا التي التزمت إزائها الصمت وهو ما يميزها على الصعيد البارادايمي،**
- **والأعمال النظرية المؤسسة للمقاربة.**

المصدر:

Colin Hay (ed.) Political Analysis: Contemporary Controversies (UK: Palgrave, 2002). pp. 08-27.

الواقعية:

مقاصدها وإسهاماتها:

تم حقن جرعات من الواقعية في العلاقات الدولية خلال ثلاثينات القرن العشرين بعد أن برزت أوهام المثالية.

ترى الواقعية بأن الطبيعة الإنسانية دموية في جوهرها وهي تسعى لتقفي أثر هذه النزعة في سلوك الإنسان على مستوى العلاقات الدولية.

تهدف الواقعية إلى جعل العلاقات الدولية كعلم يدرس السياسة الدولية يتسم بالصرامة ولا يخضع للانفعالات.

الافتراضات الأساسية:

العلاقات الدولية تحكمها قوانين موضوعية مستمدة من الطبيعة الإنسانية.

إن سعي الأفراد والدول للحصول على القوة يعتبر بمثابة نزعة راسخة وحتمية، ولذلك فإن ظهور التنافس ومن ثمة النزاع يصبح مزمنا.

الدولة كيان سيد ووحدة تحليل طبيعية في العلاقات الدولية، فالدول لا تعترف بأية سلطة فوقية كما أنها مستقلة تماما عن الفواعل والبنى غير الدولاتية.

تعتبر الدولة فاعلا موحدا يوجه سلوكها المصالح الوطنية، أهم سمة للمصلحة الوطنية هي الموضوعية.

أهم المضامين التي تنطوي عليها المصلحة الوطنية هما: السعي من أجل البقاء/السعي من أجل تعظيم مستوى الأمن.

هناك فصل تام بين السياسة الوطنية والسياسة الدولية على أن هذه الأخيرة تخضع للأولى.

المواضيع الرئيسية:

تنطوي دراسة العلاقات الدولية على دراسة التفاعلات بين دول سيدة.

تنتج الفوضى أي غياب التراتبية عن غياب سلطة مركزية على المستوى العالمي تستطيع ضبط سلوكات الدول والتي تحركها المصالح الذاتية والأنانية.

عادة تطور الخلافات الطبيعية بين الدول إلى نزاعات، لكن إذا تم تفادي النزاع فلا يجب تفسير ذلك بكون الدوال تتمتع بنزعة مسالمة، إنما يفسر بكون المساعي العدائية لهذه الدول من أجل تعظيم قوتها وأمنها قد أوجدت توازنا ردعيا.

من السذاجة التسليم بأن التعاون وليس النزاع هو الحالة الطبيعية للسياسة العالمية.

إن تطور العلاقات الدولية يخضع لمنطق الدورة والتي تخضع بدورها لعدد من القوانين الأزلية المتأصلة في الطبيعة الإنسانية وفي جوهر الفرد.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

الأمن.

السيادة.

المصلحة الوطنية.

سياسة القوة.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

اهتمام المحدود جدا بدور الفاوعل غير الدولاتيين.

عدم إيلاء أهمية كافية بالمتغير الاقتصادي و بالعمليات الاقتصادية.

استنادها إلى تصور اختزالي للطبيعة الإنسانية وكذلك اعتمادها على افتراضات لا تتمتع بصلاحية إمبريقية كافية.

النقطة الأخيرة والتي أشر إليها المنظر "ستانلي هوفمان" تتمثل في أن الواقعية أقرب إلى الرؤية التي يمكن من خلالها التأمل في الطريقة التي تصنع بها السياسة الدولية منها إلى نظرية دقيقة ومحكمة، وبالتالي فهي مجرد عقلنة (إضفاء الطبع العقلاني) على الحرب الباردة.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

E. H. Carr	**The Twenty Years' Crisis**	(1939)
Hans Morgenthau	**Politics Among Nations**	(1948)

نظرية الخيار العقلاني:

مقاصدها وإسهاماتها:

العمل على جعل علم السياسة يحاكي الصرامة المنهجية والقوة التنبؤية لعلم الاقتصاد النيوكلاسيكي.

التأسيس لعلم سياسة يقوم على الاستنباط الذي يستند إلى مجموعة من الافتراضات التبسيطية.

إبراز المضامين العقلانية للسلوك السياسي ونمذجتها رياضيا.

الافتراضات الأساسية:

الفرد بصفته فاعلا يعتبر وحدة التحليل الأساسية التي ينبغي التركيز عليها لفهم العلاقات الدولية.

يتسم الفاعل الفرد بعد من الخصائص، فهو عقلاني يسعى بشكل ذرائعي بالأساس لتعظيم المنافع التي يجنيها مقارنة بالتكاليف.

يمتلك الأفراد جملة من الخيارات المرتبة هرميا بما يسهل عملية التنبؤ بالخيار الذي سيتبناه الفرد في سياق معين.

المواضيع الرئيسية:

في حالات عدة، تقدم لنا السلوكات العقلانية للأفراد مجتمعة محصلات غير عقلانية.

مسعى تحقيق الرفاه الاجتماعي تعيقه المشكلات الناجمة عن "الفعل الجماعي" وما اصطلح على تسميته بـ "الركبة المجانية".

التسليم بأن الأفراد إنما يسعون لتحقيق مصلحتهم الخاصة تمنع الوثوق في مسعى "المسؤولين الرسميين" لتحقيق الرفاهية الجماعية (نظرية الخيار العام العقلاني).

يمكن التنبؤ بسلوك الأحزاب السياسية في الديمقراطيات الليبرالية بالرجوع إلى بنية النظام الانتخابي وطبيعة خيارات الناخبين.

تعيق ظاهرة "الركبة المجانية" "الفعل الجماعي" حتى عندما تكون هناك مصلحة جماعية مشتركة، وذلك بسبب غياب حوافز أخرى.

عندما يتيسر التغلب على معضلات "الفعل الجماعي"، يتفشى السلوك الذي يوصف بـ "السعي وراء الريع" والذي تدعمه مجموعات المصالح القوية، والتي تقوم إضافة لذلك بالضغط من أجل احتكار السلطات ومن أجل التعويضات التي لم تعد فعالة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

"العقلانية"

مشكلات "الفعل الجماعي"

"الركبة المجانية"

"السعي وراء الريع"

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

الحديث عن الخيارات باعتبارها معطى ثابت وعدم إيلاء الأهمية الكافية لطريقة تشكيل هذه الخيارات.

الاهتمام المحدود بالسياق المؤسساتي الذي يتم فيه تفعيل هذه "العقلانية".

رغم قوتها التنبؤية إلا أنها ظلت سجينة عقلانية معينة هي عقلانية الوضع القائم.

محدودية التصور الذي تمدنا به بخصوص "الذات الإنسانية".

محدودية التصور الذي تمدنا به بخصوص وجود أنماط سلوكية أخرى مثل "الإيثار" أو "السلوك العقلاني الجماعي".

تزودنا بتصور محدود عندما يتعلق الأمر بعملية التغير (رغم إسهامات نظرية المباريات التطورية).

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Anthony Downs	**Economic Theory of Democracy**	(1957)
Mancur Olson	**The Logic of Collective Action**	(1978)
William A. Niskanen	**Bureaucracy and Representative Government**	(1971)
James Buchanen and Gordon Tullock	**The Calculus of Consent**	(1962)

السلوكية:

مقاصدها وإسهاماتها:

استخدام تقنيات إحصائية تتسم بالصرامة المنهجية لتحليل المعطيات حول الظاهرة السياسية.

التأسيس لعلم سياسة يقوم على الاستقراء، يكون قادرا على توليد فرضيات تمتع بقدرة تنبؤية، وذلك بالاعتماد على التحليل الكمي للسلوك الإنساني وفق المنطق التراكمي.

الافتراضات الأساسية:

يمكن الحصول على نظريات عامة يستقيها الباحث من ملاحظات إمبريقية محدودة.

يظهر السلوك السياسي بمرور الوقت عددا من الانتظامات التي تسمح بصياغة استقرائية لما يشبه القوانين التي تحكم هذا السلوك.

يمكن الحصول على تحليل محايد وغير منحاز للمعطيات الخام التي يتم تجميعها حول الظواهر السياسية.

لا وجود للفصل بين "الظاهر" و"الواقع".

المواضيع الرئيسية:

لا يمكن السماح لافتراضات نظرية مسبقة أن توجه عملية تحليل المعطيات السياسية.

يجب إخضاع الطروحات والافتراضات النظرية لعملية اختبار إمبريقي نظمي صارم قبل اعتمادها وفق منطق استنباطي.

يجب استبعاد الأحكام الأخلاقية والحؤول دون تأثيرها في توجيه أو تشويه الحقائق الإمبريقية أو التأثير في مسعى تحليلها.

تأخذ الفرضيات النظرية شكل تنبؤات احتمالية، على أن الانتظامات التي نحصل عليها بالاعتماد على الاختبارات الإمبريقية يمكن تعميمها في سياق زماني أو مكاني مختلفين عن السياق الذي تم فيه جمع المعطيات.

السلطة السياسية يمكن اختزالها في صناعة القرار وبذلك يمكن ترميزها كميا.

يمكن فهم المحصلات السياسية بنسبة كبيرة عبر تحليل المدخلات السياسية.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

السببية والتلازم.

المضمون الاحصائي

صناعة القرار.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

مشكلة التمييز بين السببية والتلازمية.

قيامها بحصر عملية التحليل في المتغيرات التي يمكن قراءتها بسهولة وترميزها كميا.

افتراضها المتعلق بانتظام السلوك الإنساني يجعلنا نتساءل إلى أي مدى يمكن للسلوكية أن تقدم لنا تحليلا ذا معنى حول عملية التغير الاجتماعي والسياسي.

افتقادها لتور معين للوكالة.

تعاني من اعتمادها مدلولات ضيقة لمفهومي: السياسة والسلطة.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert A. Dahl	**Who Governs?**	(1961)
Ted Gurr	**Why Men Rebel**	(1970)
Gary King, Robert O. Keohane and Sidney Verba's	**Designing Social Inquiry**	(1994)

النيووقعية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إنتاج "معرفة في مجال العلاقات الدولية" وفي إطار "التقليد البحثي الواقعي" تكون أهم سمة لها أنها: أكثر نسقية، وبنيوية وأكثر صرامة منهجية.

تحرير التقليد البحثي الواقعي من مسلماته الجوهرانية المتشائمة والمعممة إزاء الطبيعة الإنسانية.

بناء معرفة علمية استنباطية حول السياسة الدولية تستند إلى الافتراضات الأكثر تعقيدا وإلماما بالنظام الدولي.

الافتراضات الأساسية:

يمكن تحليل العلاقات الدولية كما لو أن الدول فاعل موحد وعقلاني تسعى لتعظيم منفعتها.

إن سياق الفوضى (غياب التراتبية) الذي تجد الدول نفسها مضطرة للعامل معه هو الذي يحدد مضمون العقلانية التي تطبع سلوكيات الدول ومواقفها.

المتغير الوحيد الذي يفسر سلوكيات الدول هو بنية النظام الدول نفسها طالما أن الدول عقلانية والمحصلة المثلى لتحركاتها تظل ثابتة.

تظل الدولة سيدة ووحدة التحليل الطبيعية في العلاقات الدولية.

ومع ذلك فإنه لا يمكن تجاهل الدور الذي تلعبه المؤسسات الدولية في ممارسة دور حوكمة للتفاعلات الدولية سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي.

تظل الدولة فاعلا موحدا تحركها الاعتبارات المرتبطة بالمصلحة الوطنية.

ما تسعى لتحقيقه الدول هو المكاسب النسبية وليس المطلقة.

المواضيع الرئيسية:

إن ما يجعل الدول تتبنى نمطا معينا من السلوك (النمط الأناني) هو فوضوية النظام الدولي.

وبالنتيجة، فإن النزاعات تعتبر مآلا طبيعيا لا تسهم فيه عدائية الدول كما يفترض الواقعيون التقليديون إنما تنتجه المساعي الحثيثة للدول من أجل تحقيق مصالحها الوطنية في ظل نظام دولي تنتفي التراتبية (الفوضى).

رغم أن النزعة التنافسية والنزاعية للدول متأصل في سلوكياتها إلا أنه يمكن تفادي النزاع في الوضعيات التي يحدث فيها توازن للقوى.

رغم أن حالة اللاإستقرار في النظام الدولي واردة دوما إلا أنه يمكن استبعادها في إذا ما اضطلعت قوة كبرى بدور الهيمنة.

يمكن للمؤسسات الدولية –في ظل حالة الاستقرار بالهيمنة- أن ترسي أرضية للتعاون بين الأمم وهو ما يتجلى على صعيد النظام الاقتصادي الدولي الذي تم تطويره بعد الحرب العالمية الثانية.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

توازن القوى.

المكاسب النسبية (مقابل المكاسب المطلقة).

الاستقرار بالهيمنة.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

عدم وضوح رؤية النيوواقعيين إزاء الشروط التي تمكن من إرساء التعاون أو التي تدفع باتجاه النزاع في النظام الدولي.

إخفاقهم في التنبؤ بل وحتى في تفسير نهاية الحرب الباردة رغم تركيزها على مفهوم توازن القوى في النظام الدولي.

تمركزهم حول الدولة وإغفال دور الفواعل الآخرين.

تقدم لنا النيوواقعية تصورا مختزلا وسطحيا جدا لما يمكن أن تكون عليه المبادأة لدى الدولة.

استنادها إلى عدد من الافتراضات الضعيفة إمبريقيا حول كون الدولة فاعلا موحدا وعقلانيا.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert Gilpin	**War and Change in World Politics**	(1981)
Hans Morgenthau	**The World in Depression (1929-1939)**	(1973)
Kenneth Waltz	**Theory of International Politics**	(1979)

النيوليبرالية:

مقاصدها وإسهاماتها:

مواجهة تمركز الواقعيين والنيوواقعيين حول الدولة عبر إدراج الديناميكيات الاقتصادية في العلاقات الدولية.

البحث عن فرص التعاون في سياق النظام الدولي.

البحث عن مضامين نظرة أكثر مرونة وإيجابية للطبيعة الإنسانية.

الافتراضات الأساسية:

رغم أن الأفراد والدول عقلانيون إلا أن القدرة على حل المشكلات مرهونة بالعمل الجماعي.

التعاون الدولي الذي يعود بالمنفعة المشتركة يعتبر ممكنا بل مطلوبا أيضا.

يلعب الفواعل من غير الدول (مثل الشركات المتعددة الجنسية والحركات الدينية والقومية) دورا محوريا في الأحداث الدولية.

التصور القائم على اعتبار الدولة فاعلا موحدا ليس دقيقا ذلك أنها تنطوي على تنافس بين إرادات متنافسة في الداخل وضغوط من البيئة الخارجية.

تتوزع القوة في النظام الدولي وتنساب بين مختلف الفواعل.

الدول الديمقراطية لا تحارب بعضها البعض (نظرية السلام الديمقراطي).

تسعى الدول للحصول على المكاسب المطلقة وذلك مقابل المكاسب النسبية حسب التصور الواقعي.

المواضيع الرئيسية:

إن تقسيم العمل المعقد في الاقتصاد الدولي يشجع على إرساء علاقات تتسم بالاعتماد المتبادل والتعاون بين الأمم والانتفاع المتبادل.

واقع الاعتماد المتبادل المعقد الذي يميز النظام الدولي يحول الاقتصاديات الوطنية أكثر هشاشة وتأثرا بالأحداث الخارجية، ما يؤدي إلى تقليص قدرة الدولة واستقلاليتها.

هناك علاقات معقدة بين السياسة الداخلية للدولة والسياسة الدولية لكن مع غياب تراتبية واضحة ومناسبة.

رغم أن المؤسسات والمنظمات الدولية تعتبر نتاج الدول إلا أنها تكتسب شخصية وهوية مستقلتين وتحظى بإرادة خاصة وبقدرة على المبادأة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

الاعتماد المتبادل/والمتشابك.

المكاسب المطلقة (مقابل النسبية).

التعاون الدولي.

الأنساق الدولية.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

مثلها مثل النيوواقعية، تفتقد النيوليبرالية لرؤية واضحة بخصوص الشروط التي تجعل التعاون بين الدول ممكنا والشروط التي تدفع باتجاه النزاع.

يصر الواقعيون والنيوواقعيون على حد سواء على أن النيوليبراليين يتمسكون برؤية ساذجة ومثالية إزاء الطبيعة الإنسانية وإزاء فرص التعاون الدولي.

يميل النيوليبراليين إلى المبالغة في تقدير الدور الذي يمكن للمؤسسات الدولية أن تضطلع به، كما أنهم يبالغون بشأن حجم ظاهرة العولمة وبشأن قدرة الدول في رسم السياسة الدولية (مقارنة بالمؤسسات الدولية والفواعل الآخرين غير الدولاتيين).

يميل النيوليبراليين أيضا إلى شرعنة الوضع القائم.

القرائن الإمبريقية لا تساير كثيرا الطرح المتعلق بالسلام الديمقراطي، فالدول الديمقراطية ومن خلال سلوكياتها تبدي عدائية لا تقل عن عدائية الدول غير الديمقراطية.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Robert O. Keohane and Joseph S. Nye	**Power and Interdependence**	(1977)
Joseph S. Nye	**Understanding International Conflicts**	(1993)
James N. Rosenau	**Turbulence in World Politics**	(1990)

النيو-مؤسساتية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إيجاد رابط بين الافتراضات النظرية وبين الواقع الذي تدعي النظريات تمثيله.

الإقرار بالدور الحيوي الذي تلعبه المؤسسات باعتبارها وسيطا يعمل على تأطير السلوك السياسي وكذلك ترجمة المدخلات السياسية إلى محصلات سياسية.

الإقرار بالطابع المعقد والعرضي للأنظمة السياسية.

الافتراضات الأساسية:

المؤسسات لها وزنها في المعادلة السياسية، فالسياق المؤسساتي القائم يعمل على صقل السلوك السياسي ذلك أن هذا الأخير إنما ينشأ في ظل بنى مؤسساتية معينة يأخذ مضامينه منها.

للبعد التاريخي أيضا وزنه في المعادلة السياسية فالتأثير الذي للماضي على الحاضر معتبرة.

الأنظمة السياسية معقدة لدرجة أنه يصعب التنبؤ بشأنها.

الفواعل السياسيين لا يصبون دوما من خلال سلوكياتهم "الذرائعية" إلى تحقيق مصالح مادية خاصة بهم.

المواضيع الرئيسية:

العقلانية والسلوكية تميل للتركيز على المدخلات في سعيها لتفسير المحصلات السياسية، متجاهلة الدور الذي تلعبه المؤسسات كوسيط في العملية.

تغطي الظلال المؤسساتية الممارسات الروتينية والاتفاقية وبالنتيجة يصعب تحويل مسارها عبر إصلاحها أو إحداث تحولات عميقة بها أو تعويضها بأخرى.

إن توقيت ووتيرة تعاقب الأحداث مهم جدا طالما أن التاريخ يتسم بخاصية التبعية لمسار، وبذلك فإنه قد تترتب نتائج ضخمة عن أحداث عرضية.

يتآلف الفواعل السياسيون مع الترتيبات المؤسساتية القائمة والتي تحدد قواعد وإجراءات غير رسمية جنبا إلى جنب مع القواعد والإجراءات الرسمية.

وتبعا لكل ذلك، فإن "منطق التكيف" يفسر بشكل أفضل اتساق السلوك السياسي مع الترتيبات المؤسساتية مقارنة بالتفسير القائل بأن السعي الذرائعي لتحقيق المصلحة الخاصة هو ما يوجه سلوك الفرد/الفاعل السياسي.

مضمون مصطلح "الجمود المؤسساتي" هو أن الوقت وفق المعايير السياسية أي "الوقت السياسي" يتسم بفترات من الاستقرار النسبي يتخلله دوريا مراحل من التحولات العميقة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

المؤسسات.

"التبعية لمسار" (تاريخي).

التوقيت/التتابع/التاريخ.

التوازن.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

رغم عنايتها الكبيرة بالمتغير التاريخي في افتراضاتها الأولية إلا أن تحاليلها لا تولي الأهمية الكافية للتحولات المؤسساتية، وهي في النهاية تركز فقط على استحضار دور المتغيرات من خارج السياق المؤسساتي والتي تلعب دور الصدمة في استثارة عملية التغيير.

يقع النيو-مؤسساتيون في فخ الانتقادات التي وجهوها لدعاة الخيار العقلاني، فبدل كون الفاعل سجينا لسعيه الذرائعي من أجل تحقيق مصالح خاصة كما يدعي العقلانيون، نجد الفاعل لدى النيو-مؤسساتيين سجين السياق المؤسساتي الذي تجبره على التكيف وملائمة سلوكه (وفق منطق بنيوي).

تقدم لنا المؤسساتية شروحا مطولة حول دور المؤسسات باعتبارها وسيطا، لاسيما النقطة المتعلقة بتنوع البنى المؤسساتية، وهي بذلك تقدم كما مبالغا فيه من النظريات والفرضيات.

تبدو "النيو-المؤسساتية" لدى حديثها عن "التبعية لمسار" وعن "تركة الماضي" أكثر تركيزا على الاستقرار مقارنة بالتحول.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Douglass C. North	**Institutions, Institutiona Change and Economic Performance**	(1990)
Sven Steinmo, Kathleen Thelen and Frank Longstreth	**Structuring Politics**	(1992)
James G. March and Johan P. Olsen	**Rediscovering Institutions**	(1989)
Paul Pierson	**Dismantling the Welfare State?**	(1994)
Theda Skocpol	**States and Social Revolutions**	(1979)

البنائية:

مقاصدها وإسهاماتها:

إيجاد أرضية وسطية للبحث في العلاقات الدولية تتوسط التحالف النيوواقعي-النيوليبرالي (نيو-نيو) "العقلاني" والنزعة التأملية (الانعكاسية) [حسب أحد منظريها آدلر Adler].

إرساء برنامج بحث يتولى شرح إحدى أهم مسلماتها: البناء الاجتماعي للواقع السياسي ودور الأفكار في العلاقات الدولية.

استكشاف مضامين تعويض المنطق العقلاني في التحليل (الذي يتبناه التقليد البحثي المهيمن) بالعقلانية الذرائعية (الوسائلية: التي تهتم بالعمليات والمسار ولا تنظر للعقلانية نظرة جوهرية) لتنظر بذلك للوكالة (مع ما تنطوي عليه من قدرة على المبادأة) نظرة سوسيولوجية.

فحص مضامين تسليمهم بأن المصالح والخيارات المتاحة للفواعل في العلاقات الدولية تبنى اجتماعيا وليست معطى موضوعي مسبق.

الافتراضات الأساسية:

تلعب الاعتقادات دورا حيويا في بناء الواقع الذي نعيش فيه.

العالم الاجتماعي والسياسي ليس معطى ثابت موضوعي خارج الإدراك الإنساني بل هو بناء تضع لبناته الفهوم البيذاتانية فهو باختصار بناء اجتماعي.

لا وجود لأي "واقع" مادي موضوعي سياسيا كان أو اجتماعيا خارج حيز الفهوم البيذاتانية للأفراد الذين يصوغونه، فلا وجود لواقع اجتماعي مستقل عن تأثير الأفراد.

يجب أن نمنح الاهتمام الكافي للدور الذي تلعبه الأفكار في العلاقات الدولية بمثل الأهمية التي نوليها لدور العوامل المادية.

بالنسبة لمعظم البنائيين فإنه يصعب توفيق مسلماتهم مع المسلمات الوضعية سيما في الشق المتعلق باعتناقهم (أي البنائيين) تصور "الفهوم البيذاتانية.

المواضيع الرئيسية:

الفوضى هي صنيع الدول أو ما جعلته عليه الدول [حسب ألكسندر ووندت] فبنية النظام الدولي بالتالي لا تملي على الدول السلوك الذي يجب أن تلتزم به، وخلافا لذلك فإن ما يوجه سلوك الدول هو الفهوم البيذاتانية التي تنتج عن التفاعل المستمر بينها، هذا التفاعل أوجد ما نعرفه حاليا بحالة الفوضى (غياب التراتبية).

تبحث البنائية التأثيرات التي تحدثها بعض البناءات الاجتماعية المبتكرة مثل الاتحاد الأوربي.

تشدد على تأثير الضوابط الوطنية على السياسة الدولية وتأثير الضوابط الدولية على السياسة الوطنية.

تشدد على أهمية الخطاب في بناء دلالات ومضامين بعض المفاهيم المفتاحية في العلاقات الدولية مثل مفهوم "التهديد"، فطريقة تلقف وتأويل جوانب من الواقع ووسمها بالتهديد هي ما يجعل منه تهديدا وليس لأنه كذلك فعلا في الواقع.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

البناء الاجتماعي.

البيذاتانية (أو التذاتانية أو البيشخصية).

الهوية.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

يتحاشى البنائيون الإقرار بأن ما يجمع بينهم ليس ما يتقاسمونه من أفكار بقدر ابتعادهم بذات المسافة تقريبا عن الاتجاهات النظرية الأخرى.

بالنسبة للعقلانيين فإن الطروحات البنائية النظرية تبدو متسقة غير أن مشكلتها تتمثل في: إما أنها لم تخضع لأي اختبار أو أنها غير قابلة للاختبار من الأساس.

ادعاء البنائيين بأنهم يهدفون إلى جسر الهوة بين العقلانيين وما بعد الحداثيين التأمليين يفتقد إلى الإسنادات الكافية فالاختلافات بين هذين التوجهين الفكريين يبدو أكبر من أن يتم التوفيق بينهما. وفضلا عن ذلك، فإن رواد "التوجه الفكري" البنائي يميلون في النهاية إما إلى العقلانية أو التأملية رغم ادعائهم التموقع في منطقة وسطية واحتفاظهم بمسافة واحدة مع الإثنين.

البنائية طرحت برنامجا بحثيا واعدا إلا أن منظريها يتحاشون الإشارة إلا أنه لم يتحقق منه الكثير.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

Friedrich Kratochwil	**Rules, Norms and Decisions**	(1989)
Nicholas Onuf	**A World of Our Making**	(1989)
Alexander Wendt	**Social Theory of International Politics**	(1999)

ما بعد الحداثة:

مقاصدها وإسهاماتها:

التشكيك بالافتراضات الحداثية التي تدعي القدرة على إنتاج معرفة موضوعية عن العالم الاجتماعي.

إثارة الاهتمام بالمداخل التصورية التي يقوم الحداثيون من خلالها بصياغة نظريات يدعون أنها تتسم بالحياد والابتعاد عن التأثيرات القيمية والعاطفية.

إماطة اللثام عن القضايا التي ظلت النظريات الحداثية صامتة إزاءها إضافة للإدعاءات بامتلاك نظريات عامة وذلك لكشف التواطؤ القائم بين علاقات القوة والإنتاج المعرفي.

البحث فيما تنطوي عليه علاقات دولية لا تعتمد على الإدعاءات بامتلاك نظرية عامة، ولا تقوم على نفاذ غير متكافئ للمعرفة، أو ما ينطوي عليه تحرر أو انعتاق الإنسان من تأثيرات القوة.

الافتراضات الأساسية:

لا وجود لموقع يتمتع بأفضلية الحياد القيمي والذي يمكن الوقوف فيه والحكم وضع افتراضات غير منحازة واختبارها.

المعرفة الإنسانية تتسم بالقصور والانحياز كما أنها تخدم قوى معينة.

لا تتسم الطروحات المعرفية بالحياد إزاء علاقات القوة القائمة حيث يستحيل استبعاد تأثيرات القوة.

لا وجود لحقائق ثابتة حول العالم الاجتماعي والسياسي كل ما هنالك تأويلات وقراءات يقوم بها الباحث وهو متموقع ضمن إحدى معسكرات القوة.

العالم الاجتماعي والسياسي يتسمان، ليس بالتشابه الذي يدعمه التشبث بـ "الأنا" (الهوية المشتركة)، لكن بالاختلاف والتنوع والذي يعززه التركيز على النظرة للآخر الـ "هُم".

المواضيع الرئيسية:

تحديد والبحث في الطريقة التي تتفاعل بها علاقات القوة مع الخطاب والممارسة في السياسة العالمية

الاعتداد بالاختلاف، التنوع والتعدد.

تحدي النظرة القائلة بأن التاريخ يسير وفق منطق "التقدم" و"التطور".

السعي لتهيئة الظروف من أجل انعتاق الإنسان، لا يساهم ميدانيا سوى في تعويض شكل من أشكال الهيمنة بشكل آخر، حيث أنه في النهاية لا مفر من الطغيان.

الإدعاء بامتلاك نظريات عامة تمهد لمشاريع "الانعتاق" (أو ما يسمى بـ ما وراء السرديات الكبرى) يعتبر خرافة.

يتم تفعيل علاقات القوة عبر بناء تمايزات هرمية للهوية (التماثل)/الاختلاف، "النحن/الـ"هم"، وذلك باستخدام اللغة.

التصورات والمفاهيم المفتاحية:

التشكيك في ماوراء السرديات الكبرى، التفكيك، التمايز/الاختلاف Difference/otherness.

القضايا التي التزمت الصمت إزاءها وحدود المقاربة بشكل عام:

الميل نحو العدمية، اتسامها بالقدرية، الإحجام عن إصدار الأحكام.

أليس الالتزام المعياري لما بعد الحداثة بالتنوع والاختلاف يدحض نفسه بنفسه طالما يتجنب الدعوة للقيام بشيء حيال حماية التنوع والاختلاف؟

أليست مضامين ما بعد الحداثة محافظة في عمقها كونها تتحدث عن التفكيك دون المساهمة في إعادة بناء البديل؟

ماذا عن التناقضات الضمنية، أليس الطرح ما بعد الحداثي نفسه عبارة عن ما وراء سرديات كبرى تأمل أن تقوم على أنقاض ما وراء السرديات الكبرى التقليدية؟

وأخيرا هناك التوجه ما بعد الحداثي ليكون بمثابة سردية وصفية بحتة وذلك بدل أن اهتمامه بالتحليل السياسي.

الأعمال العلمية المؤسسة للنظرية:

David Campbell	**Writing Security**	(1992)
R. J. Walker	**Inside/Outside**	(1993)
Cynthia Weber	**Simulating Sovereignty**	(1995)

الفهرس

فهرس المحتويات